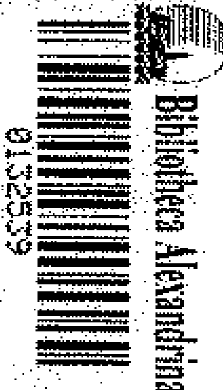
الإسرائيليون

مشهد تفصيلي لمجتمع متغير!





وسي ميلمان

ترجمة : مالك فاضل البديري

الإسرائيليون الجدد

مشهد تفصيلي لمجتمع متغير!

يوسي ميلمان

ترجمة: مالك فاضل البديري

الأهلية للنشر والتوزيع

الأهلية
للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

الحمد لله على فضله . . . وبعد

أحقاً ان إسرائيل لم ترسم خارطة وضعتها على بوابة الكنيست ونقشت عليها عبارة ان حدود إسرائيل تمتد من النيل الى الفرات، هكذا يقول مؤلف هذا الكتاب . بيد أن شهود عيان قالوا أننا رأيناها ، ومايؤكد توهمهم هذا ان إعلان الإستقلال لدولة إسرائيل نفسها عام ١٩٤٨ لم يشر الى حدودها فهي وراءها حدود كثيرة وستتوسع فيها .

إستهل المؤلف في مقدمته ذكر حقيقة الفزع والخوف والضياع التي عاشها الإسرائيليون اليهود داخل إسرائيل أثناء حرب الخليج وتلك حقيقة لن يبالغ فيها المؤلف بشيء بل هي حقيقة قائمة راسخة ظلت دوماً خفية على الشارع العربي. فقد صور العربي للعربي ان اليهودي الإسرائيلي تنين لا حول لنا عليه ولا طاقة . وهنا يأتي صاحب عقل وقلم يهودي إسرائيلي عاش منذ نعومة أظفاره في إسرائيل وخبر كل خفاياها ليقول اننا لسنا كذلك: فنحن لازلنا لانعرف أية هوية نمتلك أنحن يهود أم إسرائيليين؟؟ . إن الإسرائيلي كالسائح الجوال حاملاً حقيبته على ظهره ليتجه صوب يجد مصلحته وحيثما لن يجد في إسرائيل نفعاً له غادرها وولاها . ونحن إذ تبصرنا في هذا القول اليهودي الإسرائيلي لوجدنا أننا لو شئنا أن نحارب إسرائيل ونتجنب العالم فعلينا أن نضع سلاحنا أيضاً جانباً وأن ننخر اسرائيل من داخلها كما ينخر النمل اساس المنزل أي ان علينا أن ندع الإسرائيلي نفسه يفكر أن يجلي نفسه من إسرائيل وبمعنىً صريح آخر ان الإسرائيلي لو إستوعب فكرة ان مصالحه مهددة داخل إسرائيل لغادرها الى أية بقعة يجد فيها ضالته وتلك حقيقة أدرجها المؤلف نفسه بقوله غير المباشر ان رجل الأعمال الإسرائيلي باق في أحياء نيويورك مفضلاً إياها على تل أبيب .

وذهب المؤلف في مقدمته الى أبعد من هذا الأمر ليقول ان الصواريخ العراقية قد أشعرت

الاسرائيلي لأول مرة ان اسرائيل يمكن لها أن تكون ذات يوم ساحة حرب حقيقية . هذا الشيء بعينه قد حاولت اسرائيل دوماً أن تنأى بنفسها عنه وهي قد سعت دوماً الى نقل ساحة الحرب الى أرض أعدائها . هذه المعلوماتية على قدر كبير من الأهمية لأنها تعني في الجانب العسكري ان اسرائيل (لاتملك بعدا عسكريا) وهو أمر يقودنا الى الافتراض هل ان اسرائيل ستجرؤ على استخدام سلاحها (النووي!) لو دارت رحى معركة بيننا وبينها قرب (حدودها) برغم انها لاتملك حدوداً وهذا ليس بالافتراض بل ان حتى (اعلان الاستقلال عام ١٩٤٨) لم يتطرق الى مسألة الحدود بنفس الصيغة التي يتطرق فيها الى مسألة الهوية الاسرائيلية او اليهودي الصهيونية .

يقول الكاتب ان العدو العربي هو العدو الأول لاسرائيل برغم ان العربي لم يكن اذىً لليهودي مالم يسابقه اليهودي الى الأذى ولم يفعل به مافعلته النازية باليهود . ان عداءنا لليهود انها قد اغتصبت أرضنا وشردت شعبنا وهدمت المنازل وقتلت الأطفال وقبل هذا التاريخ لم يكن لنا مع اليهود شيئاً فكانوا يعيشون سالمين في بلداننا العربية في اليمن او العراق او المغرب على سبيل المثال لا الحصر فليهيا عدو الآخر .

حاول المؤلف في كتابه هذا ان يخلق لليهودي واسرائيل تأريخاً إلا انه فشل وتخبط على غير هدى حين ناقض نفسه بالذي قدمه اليهود للحضارة ، أهم الجنود أم المزارعون؟ فترك الماضي القديم وبخا في خطوة واحدة طولها ألف ميل ليصل الى حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧ اللتين أراد بهما ان يجد اسرائيل المعجزة وأن يحط من شأن العرب كثيراً متجاهلاً أو متناسياً حقائق التاريخ ، بل انه أنكر حتى فضل الإنجليز عليهم في حرب ١٩٤٨ . لقد انتهى الإنتداب البريطاني لفلسطين في الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٥ أيار عام ١٩٤٨ وخلفت بريطانيا وراءها لليهود كل ترسانتها من الأسلحة في فلسطين ، أما من اشترك فعلاً وقاتل فعلاً فهما الجيش الأردني والجيش العراقي واكتفت مصر بلواء نظامي واحد وسوريا ببعض الميليشيات بالإضافة الى متطوعين من اليمن أو السعودي لا يتجاوز عددهم ثلاثمئة فرد . لقد قاتل الجيش الأردني حتى وصل أسوار القدس واشتبك مع اليهودي من غرفة الى اخرى بالسلاح الابيض وتقدم الجيش العراقي حتى وصل شرقاً الى البحر المتوسط بيد أن كلا الجيشين كانا تحت الإمرة البريطانية فان تقدما كيلومتراً واحداً تراجعا عشرة كيلومترات بأمر من الحكومة البريطانية . أما حرب عام ١٩٦٧ فقد خسرها العرب لأنها لم تكن بمشيئتهم أن يخوضوا تلك الحرب في ذلك الوقت . كانت العلاقات الأردنية المصرية مقطوعة آنذاك وقبيل الحرب ببضعة أيام طار الملك الحسين ملك الأردن الى مصر بمعية ثلاثة من رجاله فقط مرتدياً

زيه العسكري وحين نزل من الطائرة التي كان يقودها بنفسه إستقبله الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على مدرج المطار وأمضيا ساعتين من الحديث داخل قاعة المطار قال فيها الملك الحسين الى الرئيس جمال عبد الناصر إننا لانقوى حالاً على مقاتلة إسرائيل في هذه الأيام فنحن لم نحصل على السلاح بعد، وطلب اليه ان يؤجل الحرب مدة ثلاث سنوات حتى عام ١٩٧٠ بيد أن الرئيس عبد الناصر رفض ذلك وأصر على خوض الحرب في وقتها المحدد حتى وان قاتل لوحده «لست بحاجة الى مساعدتكم أيها العرب» . ولما وجد الملك الحسين أن الرئيس عبد الناصر لن يتزحزح عن موقفه فيد أنمله سلمه قيادة الجيش الأردني الذي تولى إمرته عبد المنعم رياض الذي كان يحمل ثلاث شهادات دكتوراه في العلوم العسكرية ومع ذلك أوعز للدبابات بالتحرك في وضح النهار وبدون غطاء جوي من شمال القدس الى سيناء أما الجيش السوري فقد دخل المعركة في يومها الثالث ولست ساعات فقط سلم فيها مرتفعات الجولان وبقيت الطائرات المصرية جاثمة في مطاراتها حتى أخذت الطائرات الإسرائيلية تنتقي منها الواحدة بعد الاخرى فمفتش سلاح الجو المصري كان يهودياً يحمل جواز سفر تركي وصل مصر في مطلع الخمسينات وبات الرجل الرابع في الدولة المصرية . هذه إذن هي طبخة حرب ١٩٦٧ التي سلمت فيها مصر الجولان وقطاع غزة والضفة الغربية .

وبعد، فاني سأترك للقارىء الكريم الحكم على ما ورد فيها من صحة أو خطأ من المعلومات برغم أني ادرك ان بعضها كان مقصوداً منه الإساءة للعرب والإسلام منها على سبيل المثال لا الحصر ان المؤلف ذكر ان اليهود قد تعلموا عبادة القبور من الإسلام وهذا ضمن مقصود منه الإساءة للإسلام فنحن لدينا زيارة القبور وليس عبادتها . وفي ذلك قول الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» .

أسأل الله ان أكون قد وفقت في ترجمتي هذه وان أكون قد نقلت بعض مما يجول في أذهان أعدائنا من تخطيط أو تفكير مما هو غائب عن أذهان العربي والله ولي التوفيق . . . .

المترجم

مالك فاضل البديري

توطئة

ساحة الحرب طمست كل معتقد قديم

في الثالث والعشرين من حزيران عام ١٩٩٢ أدار ثلاثة ملايين ناخب إسرائيلي ظهورهم نحو حزب الجناح اليميني (الليكود) بعد أن مكثوا تحت مظلة حكمه نحواً من خمسة عشر عاماً، فولجوا عتبة حزب العمال معبرين بانتخابهم (اسحق رابين) رئيس وزراء لهم عن رغبتهم في التغير وأن يخيموا فوق كل هذا وذاك في ظلال السلام والطمأنينه والاستقرار. بيد أن بذور تلك الآمال الجديدة لما تدم طويلا فكان غاضها خيبة ظن بلغت أوجها إبان أحداث حرب الخليج قبل ثمانية عشر شهراً.

لقد هزت في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٩١ وبالتحديد في الساعة الثانية ودقيقة واحدة فجر ذلك اليوم ثمانية صواريخ سكود الروسية أركان تل أبيب وحيفا وكلاهما أكبر مدن إسرائيل مساحة. لقد غطت الأمة الإسرائيلية في تلك الليلة في غياهب أشد أزمة تعريف بهوية تاريخها الموجز والمعقد بعد أن فرقتها طوال عقدين من السنين خلت التناحرات والتعصبات والإنقسامات. وهكذا أماط صاروخ سكود اللثام عن حقيقة النفس الإسرائيلية بعد أن ظلت بمنأى عن كل هجوم مباشر صوب قلب إسرائيل منذ أن نالت استقلالها عام ١٩٤٨.

كنت في ذلك الوقت منكباً في دراستي في الطابق التاسع من عمارة تقع في احدى ضواحي تل أبيب ومتهيئاً لمقابلة إذاعية مقرر اجراؤها مع محطة إذاعة شيكاغو، كانت تبغي معرفة حال الفرد الإسرائيلي في أول يوم حرب ضد العراق وفي جعبتي جواب

هو أن الحرب ستمر على إسرائيل كما أوحت بذلك بوارقها الاولى دون غيث. فتقارير التلفاز والمذياع ماانفكت تنقل بين الحين والآخر أنباء غارات الحلفاء على أهداف العراق الاستراتيجية فأزادت في الإسرائيليين غبطة وتبجحاً. وكنت أنا كذلك بين أولئك الذين خال لهم ان العراق لن يجرؤ بعد هذا وينفذ تهديده بضرب مناطق إسرائيل السكانية بالصواريخ ذات الرؤوس التقليدية والكيماوية إذا ما اندلع فتيل الحرب ضده.

بيد أن هذا الإعتقاد تلاشى ما ان أيقظتنا صفارات الانذار فجر الجمعة بعد الساعة الثانية ليلاً بلحظات. وهرعت أنا وزوجتي نحو طفلنا البالغ من العمر سبع سنوات وحملناه صوب غرفة ملجأ كنا قد أعددناها لهذا الغرض مسبقاً وطبقاً لتعليمات الدفاع المدني فقد تم ختم الأبواب والشبابيك بطبقات من الأشرطة البلاستيكية منعاً لتسرب الغازات السامة. لقد أجهش الطفل بالبكاء ما ان وضعت منشفاً مبللاً تحت الباب وارتدينا جميعاً أقنعة الوقاية المطاطية السوداء التي أبقيناها استناداً لتلك التعليمات في صناديقها البنية اللون البشعة المنظر حتى تحين ساعة الحاجة إليها.

لم تمض سوى دقيقتان أو ثلاث حتى طرق مسامعنا دوي انفجارات أدركت حينها أنها وقعت في أماكن قريبة. لقد اهتزت الجدران وتخدشت بعض الشبابيك. إنني لم أجرب قط هجوماً صاروخياً برغم أني وقبل عشرين سنة مضت قد تدربت خلال خدمتي العسكرية على إطلاق النار وعشت تجربتي تبادل النيران المدفعي والغارات الجوية. لقد كان شيئاً مرعباً حقاً، وأشد قسوة من القلق والخوف كان الشعور العميق باللاأمل الذي بدأ يدب في أجسادنا. وكل ما كنت أقدر على فعله آنذاك هو الجلوس والاستماع لعويل صفارات الإنذار وتقارير الأنباء المتضاربة وأن نتساءل متخبطين بالذي حل في أماكن البلاد الأخرى. وبرغم قناعتي وأنا في ملجأي هذا مرتدياً قناع الوقاية أنني آمن حالاً ضد الهجوم الكيماوي إلا أن شبح أن تنهار

هذه الشقة بأي هجوم صاروخي تقليدي لما يزل يسكن جسدي .

مر أكثر من ساعة قبل أن يعلن المتحدث العسكري أن الهجوم لم يكن بالغازات السامة بينما أمضيت ذلك الوقت أفكر في موقفنا الغريب هذا وكنت قد حذرت مسبقاً في عدة مقالات أن العراق بقيادة الرئيس صدام حسين لن يتردد قط في الإيفاء بوعده بضرب إسرائيل بصواريخه الكيماوية والتقليدية التي بناها باضطراد في ترسانته الهائلة كان له الغرب فيها أشد نصير . بيد أني وبرغم هذا لم أكن أتصور أني سأجد يوماً ما حالنا مهدداً هكذا وبالطريقة ذاتها التي أسكت فيها العراق الأكراد عام ١٩٨٨ .

كان الأثر المباشر للهجوم الصاروخي العراقي طفيفاً نسبياً . اذ أطلق العراق واحداً وأربعين صاروخاً ضد إسرائيل كانت نتائجه موت ثلاثة عشر شخصاً معظمهم نتيجة إصابته بالسكتة القلبية أو الإختناق أو القلق بينما توفي واحد فقط نتيجة إصابة مباشرة . كما بلغ عدد الجرحى نحواً من ألف شخص دخل منهم سبعون فقط المستشفيات . أما الخسائر المادية فكانت الحاق الضرر بحوالي أحد عشر ألف منزل كان ضرر معظمها ولحسن الحظ تهشم زجاج الشبابيك . ومع هذا بقي أثر الجانب الآخر أعظم ألا وهو أن هذه الهجومات قد ولدت صدمات عنيفة تسللت نحو أعماق البنية الهشة للمجتمع الإسرائيلي .

شهد المجتمع الإسرائيلي وقبيل الحرب بوادر للإصلاح بيد أنها لم تكن ملموسة في أغلبها . لقد اقتربت العديد من عاداتنا وقيمنا ومعتقداتنا السياسية ونظراتنا الشمولية وطرائق تفكيرنا كثيراً من عتبة التغيير إلا أن أحداث الحرب قد عجلت من عملية التغير هذه وبلورت عواملها بينما ترى أركان عالمنا القديم وقد انهدت من أساسها أو انها تخلخلت كثيراً .

وكنت أنا بصفتي كاتباً بين أولئك الذين عكسوا هذه الاتجاهات والظواهر

الجديدة فهي إيماءة أن ولادة مجتمع إسرائيلي جديد قد اقتربت. ومع هذا يبقى تعريف مصطلح جديد بهذه الشمولية والتعقيد أمراً يصعب إنجازه. لقد ألقت أيام حرب الخليج ونحن نعيش أحداثها ونرقب صداها الضوء على كثير من آرائي المسبقة ووضعتها في إطارها المرجعي.

لقد كان الأثر النفسي لحرب الخليج على الروح الإسرائيلية أبعد من مجرد أن تفقد لك طفلاً بريئاً أو كحال المجتمع الأمريكي وقد اعترته خيبة الأمل بعد إغتيال الرئيس جون كنيدي. لقد بدا الأمر ذلك اليوم وكأن التيار قد جرف معه هذا العالم الهش بأسره ورحنا نتساءل كإسرائيليين وحالة الذهول تأسرنا في هذا الأمر المخيف: ماذا كنت تفعل عندما طرقت مسامعك لأول مرة صفارات الإنذار؟.

وبعد أن سحبوا البساط من تحت أقدامنا لم أعد قادراً أن أمنع نفسي ألا تصارع ذاتها في معنى اليهودية. لقد كنت أرى نفسي ملحداً كسائر ٨٠٪ من الإسرائيليين وقلما حضرت اجتماعات اليهود للعبادة. بيد أني وعلى خلاف معظم أولئك الذين ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية كنت مدركاً لتلك المشاكل الخاصة والعويصة المتعلقة بالسؤال عن حقيقتنا نحن الإسرائيليين. فمن نكون نحن؟ لقد ولدنا وترعرعنا في أحضان مجتمع حر ديموقراطي مغرب، إلا أن كثيراً من مؤسساتنا قد نخرت البيروقراطية أساساتها فولجت حتى حياتنا الخاصة ولتغدوا صورةً أخرى للأنظمة الشيوعية. إن دولة إسرائيل ما برحت تعرف نفسها في إطار دولة اليهود ولكن ما معنى هذا الأمر؟ أنحن إسرائيليون أم يهود؟ وهوية من تسبق الأخرى؟ وما جنسيتنا أهي إسرائيلية أم يهودية؟ وهل تعبر يهوديتنا عن نفسها في إطار المصطلح القومي أم في إطار آخر ربما هو الإطار الديني؟ ثم ماذا عن مصطلح (شعب الله) ومصطلح (دولة اليهود)؟ فهل يستثني كلاهما العرب الذين يقطنون دولة إسرائيل؟ وأخيراً أيهما منبع حضارتنا؟ أهو الاوروبي أم الشرق أوسطي؟.

لقد أعـاد الى ذاكرتي وذاكـرة كل إسرائيلي يهودي خطر الغـازات السـامـة في تلك الليلـة الغبراء وأنا مـا بـرحـت على غير هدىً أتخبط في إجـابـات هذه الأسئلـة ، تلك التجربة (المرة) لنا كشعب وذاك الخطر الجسيم المحدق بنا . لم يكن يسيراً أن نتجرد من التفكير في (حجرات الغاز) وكان من السخريـة الإدعاء ان الألمان مسؤولون عن تقنية العراق المتقدمة في ميدان الأسلحة الكيماوية والغازات السامة .

وبرغم ان دلائل جيدة كانت آخذة بـالنمو على أن المجتمع الإسرائيلي بدأ مرحلة الانعتاق من تلك المشكلـة النفسية الخانقة النـاجمة عن (فكرة المذبحة) (بعـد عقود من الـزمان وظفتهـا الحكـومة مـن تلك الحقبة المأسـاويـة من التاريـخ) فإن هذا الهجـوم الصاروخي قد مزق هذا الايمان الجديد شذراً مذرا .

لقد جلبت صواريخ سكود العراقيـة لكل بيت إسرائيلي حقيقة مهمة إضافية ربما حاول الإسـرائيليون وعلى مدى ثلاثة وأربعين عامـاً بعد الاستقلال تناسيها أو الغائها ولـربما التقليل من شأنها ألا وهـي ان التقـدم التقني والعصري لـدولـة إسرائيل مجرد زوبعة في فنجان .

لقد ادعت الحركة الصهيـونية بعد ولادتها انه لن يكون بمقدور ضحـايا مناهضة السامية العيش آمنين خارج وطنهم الأم . بيد أن الهجوم العراقي الذي أحال أكبر مدن إسرائيل الى (رهائن) قد ولد أسئلة خطيرة تتعلق بمدى إستمرارية الإرتباط بهذه الأمة الصهيـونية . فهل إسـرائيل حقـاً دولـة آمنةً لليهـود؟ أو بمعنىً آخـر هل أن شعب تل أبيب أكثر طمأنينة من يهود نيويورك؟ .

كما لا يصح القـول أن إختيـار العـراق لمدينة تل أبيـب كان مجرد تصـادف . لقـد غـدت تل أبيب منـذ نشأتها قبل ثمانين سنة على الكثبـان الـرمليـة لخط حوض البحـر الابيض المتوسط السـاحلي رمزاً للصهيـونية وقـوة إسرائيل وهي للإسرائيلي العصري

الفائز الاول وطليعة المدن فهي أنموذج للسلوكية الحديثة ونمط الحياة لباقي البلاد. وهي اليوم بكل جوانبها مدينة حوض البحر المتوسط الحيوية بثقافاتها واتجاهاتها وحدتها وخطواتها المسرعة نحو الأمام. لقد وصفها رئيس بلديتها المحبوب النشط والكثير الكلام (شلومو لاهط) بأنها (مدينة بلا عيوب).

إلا أن تل أبيب استوقفت حالها عاجزة بعد أول ليلة هجوم صاروخي. وتقول إحصائيات رسمية ان ٤٤٪ من مجموع سكانها البالغ مليون نسمة قد هجروا مدينتهم الأعظم بين المدن وتركوا ديارهم هرباً من صواريخ سكود. لقد واجه (التل أبيبيون) مرة واحدة حقيقة كانت بسيطة هي أنهم وبرغم خيلائهم وانتماءهم لبعضهم البعض ولتلك الحضارة الآمنة يعيشون في منطقة الشرق الأوسط وأنهم عرضة لحالة اللاإستقرار التي تعم المنطقة.

وفي ضاحية(رامات أبيب) حيث أقطن هناك وسط طبقة متوسطة من الأساتذة ميسوري الحال، رأيت معظم سكان العمارة التي أسكنها يهجرون شققهم بعد أول هجوم صاروخي. لقد اتجه معظمهم صوب مناطق أخرى من البلاد ظنوا أنها أكثر أماناً، وباتت مواقف السيارات خالية تماماً بينما خيم الصمت الموحش على البناية شأنها شأن جميع أبنية المدينة الأخرى وضواحيها. لقد كانت الشبابيك مغلقة بإحكام وأضحت المناطق المجاورة المزدهرة كأنها أحياء للفقراء ووقف اليهود الذين يفضلون مناداتهم بالإسرائيليين على المحك ثانيةً. لقد وقع هذا الأمر وعلى خلاف فترات الحروب والإضطهاد السابقة على أرض بلادهم.

لقد قررت البقاء ليس لأني قد إحتفظت برباطة جأشي بل لقد شدني أمران، أولها إرتباطي بوالدي اللذين يسكنان بالقرب مني، وثانيهما أنني كنت أمقت فكرة أن يغدو المرء لاجئاً في بلده.

لقد تولى رئيس بلدية المدينة لاهط بصفته قائداً عسكرياً سابقاً قيادة فرقة مدرعة أطلقت على من هرب من سكان تل أبيب اسم (الهاربين). أما ملاحظاته فكانت تنم عن مقته ومرارته من المناقشات العامة.

لقد كتبوا رسائل كثيرة، وأظهر التلفاز والمذياع موجة من ردود فعل متضاربة، فلقد اتهم من هجر المدينة أولئك الذين بقوا فيها أنهم (يعرضون حياة أطفالهم للخطر) وبـ (اللامبالاة)، بينما قال من بقي في المدينة في من هجرها: «إنهم (جبناء) و(غير وطنيين)». لقد أجاب رئيس البلدية لاهط عن سؤال وجه اليه ويتعلق بولده الذي ترك المدينة: «حسن، انه هارب ايضاً»، وأضاف بلهجة الإسرائيلي المتبجح: «إنني أرى أن عليهم البقاء حتى وإن كان الخطر جسيماً وربما مميتاً».

إن حواراً كهذا يحدث في دولة إسرائيل يعد بحد ذاته أمراً غير إعتيادي. فسجل التاريخ الحكومي لدولة إسرائيل لم يشهد قط موافقة علنية على التراجع عن خطر مقبل برغم حقيقة أن العديد من المستوطنات الإسرائيلية قد هجرها مستوطنوها إبان حرب عام ١٩٤٨ بعد مواجهتهم للقوة العربية الغازية. وغالباً ما كانت الذاكرة الوطنية تمحوا من سجلها عمداً خجل أفعال كهذه. إلا أن الحال قد أخذ منحىً آخر مع حرب الخليج فلم يعد هناك حياء من الإنهزام أو ترك الديار.

ان ردود فعلي لحالة كهذه تكشف في حقيقة الأمر تعقيدات الحياة لمجتمع كالمجتمع الإسرائيلي. وحقيقة أن مسألة بقاء الفرد حياً لهي من الأهمية بمكان، ولكن كيف يمكن أن يؤثر هذا البقاء على مسألة التزام الفرد نحو مجتمعه؟. لا يجمع هاتين الفكرتين أي تناقض برغم الاختلاف الظاهر بينهما بل يمكن لكليهما التعايش سويةً. لقد كانت دولة إسرائيل وعلى مدى أربع واربعين سنة خلت فخورة بقدرتها في شق طريق نظيف ومشرق هيأت بموجبه لفردها كل حاجياته وكذلك حاجيات المجتمع بأسره. ومع هذا فان خصوصية مجتمع الشعب اليهودي وكذلك إسرائيل قد

أوحت لغالبية الإسرائيليين بحقيقة انهم يعيشون في موقع وجود فريد إذا ما قورن بأية أمة أخرى. فما برحنا نواجه الحقائق المأساوية لتاريخنا كشعب يهودي وكان مخاض هذا الأمر أن نما لدينا شعور قوي بأهمية الصمود دوماً في مكاننا وأن لا نتخلى أو نتراجع عن أي شيء. وحتى الرطانة العسكرية الإسرائيلية لا تضم بين طياتها كلمة (تراجع) مطلقاً بل تعبر عنها بالعبارة البديلة (حصنوا مواقعكم في الخلف).

تشبث الناقد الادبي (جيرشون شاكد) في مجموعة من مقالاته الموسومة بـ(لا مكان بديل آخر) في الاسئلة التي نشأت مع الصهيونية الأولى: ما هي الميزة التي تتفرد بها إسرائيل؟ هل يوجد وجود قومي يهودي بديل خارج إسرائيل؟.

فلو كان شاغل مؤسسي الحركة الصهيونية الأوائل الوحيد مجرد خلق الأمان الجغرافي والسلامة المادية لجلسوا غير آبهين بالبحث عن الوطن القومي الذي كان سيكون على نحو أكيد في مكان آخر من العالم ولوجد اليهودي الشريد نفسه بمنأىً عن الخطر إذا ما أبقى حقائبه في يده حيثما سار وليكون دوماً على استعداد ليمضي في رحلته قدماً حيثما حانت الساعة لها. لقد قامت دولة إسرائيل على أساس أنها أمة يهودية ذات سيادة وقدرة على الدفاع عن نفسها، وأن الصهيونية كان مرجواً منها ان تقدم الحلول لمشاكل الشعب اليهودي ككل متكامل وليس -ويا للسخرية- لأفراد من اليهود.

وتتمثل المزالة الاخرى بقرار رئيس الوزراء اسحق شامير وبإصرار مباشر من الولايات المتحدة الذي قاد به البلاد نحو انعطافة تاريخية ألا وهو ان تتحمل إسرائيل عبء الهجومات الصاروخية دون الرد عليها. فاذا ما تطرقنا كثيراً في الإفتراض وادعينا أن مجلس الوزراء ذو الجناح اليميني كان سيتخذ موقفاً عسكرياً كهذا لتبادر الينا السؤال التالي: من كان يتوقع أن تقف إسرائيل مكتوفة الايدي حيال هجوم كهذا؟ لقد وجد معظم الإسرائيليين هذا الموقف صعباً عليهم إدراكه برغم أن معظمهم قد تأقلم معه الى حد ما.

لقد توجب علينا ان نهضم فكرة ان الجنود الأمريكان كانوا رابضين على الارض الإسرائيلية لأول مرة في تاريخ حرب ما. فالحكومات الإسرائيلية المتعاقبة اليسارية منها واليمينية ماانفكت تقول ان إسرائيل قادرة على الدفاع عن نفسها دون أية معونة خارجية مباشرة وكل ما كنا بحاجة اليه خلال جميع الصراعات العسكرية السابقة هو رفع الروح المعنوية والدعم السياسي والمعدات العسكرية من الولايات المتحدة وكل هذا يختلف تماماً عن نشر قطعات عسكرية أجنبية في أرضك. لقد كان خط التفكير الإسرائيلي هو (لا نريد ان تراق دماء الجنود الأمريكان دفاعاً عنا).

نعم، لقد خاض الإسرائيليون جميع الحروب السابقة يحثهم ايمانهم القوي أنهم يدافعون عن ديارهم وعوائلهم، إلا أن هذه الحرب قد جلبت معها شيئاً جديداً. وكان عسيراً أن تقارن بين حرب الخليج وباقي الحروب الأخرى التي كانت فيها إسرائيل مركز العداءات. بيد أن نقطة ارتكاز مقارنة كهذه هي أن هذه الحرب كانت حرباً حقيقية تماماً.

لقد دب الرعب في الإسرائيليين بعد أول غارة صاروخية وشعر معظمهم أن الحكومة قد تركتهم مكشوفين مجردين من الدفاعات الفعالة التي كانت قد وعدتهم بها. وما ان وصل شعور الخيبة هذا مسامع الحكومة في القدس حتى قرر قادتها استدعاء قطعات عسكرية أمريكية. ومع إشراقة صباح اليوم التالي هبطت في مطار بن غوريون الواقع خارج تل أبيب عشرون طائرة جالاكسي وهي أكبر طائرة نقل عسكرية امريكية. وفي غضون ساعات تم نصب أربعة بطاريات صواريخ (باتريوت) الامريكية الصنع في أنحاء تل أبيب وحيفا. وكنت أرقب من نافذة شقتي ذلك النشاط الدؤوب في أحد هذه المواقع بينما تراني أسكن خلال الليل لا أسمع سوى ذلك الصفير الحاد لهذه الصواريخ وهي تخترق حاجز الصوت في محاولتها اعتراض صواريخ سكود القادمة الينا.

لقد أظهرت العديد من الدراسات التي أجريت في إسرائيل والولايات المتحدة بعد حرب الخليج أن المناطق المحمية بصواريخ باتريوت قد تضررت أكثر من المناطق المجاورة التي تعرضت مباشرة لهجوم سكود دون أي دفاع باتريوتي. كما كشفت دراسة أجرتها وزارة الدفاع الإسرائيلية أن ثلاثة عشر صاروخ سكود ضربت تل أبيب قبل نشر بطاريات باتريوت وتسببت في جرح مائة وخمسة عشر فرداً وإلحاق الضرر بنحو من ألفين وسبعمائة شقة سكنية. بينما تسببت صواريخ باتريوت تم إطلاقها لاعتراض أحد عشر صاروخ سكود في جرح مائة وثمانية وستين شخصاً وتدمير ما يقارب ثمانية آلاف شقة سكنية في ضواحي تل أبيب العظيمة.

كان لهذا الأمر تفسيراً منطقياً وهو أن صواريخ باتريوت لم تكن قادرة تماماً على إذلال صاروخ سكود العراقي وهكذا لم يسبب تصادم الصاروخين وانفجارهما في الجو في إمطار المنطقة بشظاياهما بل ان بعض صواريخ باتريوت كانت تنفجر في الجو قبل أن تعترض صاروخ سكود لتنثر شظاياها فوق المنطقة.

أدرك قادة إسرائيل وجنرالاتها هذه الحقائق، بيد أنهم آثروا عدم مشاطرة الشارع الإسرائيلي هذا الرأي. فلقد عرضوا على إسرائيل قبل بضع سنوات خلت شراء بطاريات باتريوت. بيد أن الحكومة رأت أن هذه الصواريخ لا تلائم خططها الدفاعية وقررت بدلاً عنها بناء منظومة صواريخ أفضل لحسابها الخاص. إلا أن هذه الصواريخ لما يكتمل بناؤها بعد مع اندلاع شرارة الحرب. لقد وعي قادة إسرائيل الآن حقيقة أن معظم البلاد تعاني من أزمة ثقة حقيقية وأنها بحاجة لأن تتعلق حتى بقشة تمنحها بعضاً من شعور الحماية وبات الإسرائيلي يعيش تحت مظلة صواريخ أمريكا وجنودها بينما شرع قادة إسرائيل بشحذ همم الإسرائيليين ليؤمنوا أن الصواريخ الأمريكية ستحقق المعجزات. لقد اختاروا أن يكبحوا الحقيقة خوفاً من أن تتزعزع ثقة العامة وتعم البلاد الفوضى تحت وطأة القلق الطويل الأمد.

إنه لقرار مشؤوم أن تضحي بالحقيقة مقابل هدوء نسبي ومؤقت قد تزرعه في العامة وانهم بتحقيق هذا الهدف القصير المدى قد ساعدوا كثيراً في التقليل من شأن واحد من أكثر المعتقدات المقدسة للصهيونية القديمة ودولة إسرائيل الحديثة سوية ألا وهو (ان دولة اليهود يجب أن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها مهما تكالبت عليها الظروف) . لقد نشأ الإسرائيليون مؤمنين أن دولتهم فعالة جداً بل انها ذات طاقة إستثنائية ، تحضرها دوماً المبادرات العديدة وردود الفعل السريعة وتلك هي تجربة جميع الحروب السابقة وانها (اي إسرائيل) ستتولى زمام المبادرة دوماً آجلاً وليس عاجلاً في قيادة المعركة طبقاً لاستراتيجيتها في نقل الحرب الى ساحة العدو سواء أهاجها جيرانها العرب أم انها هي التي شنت عليهم الهجوم. لقد استند مفهوم إسرائيل للأمن دوماً على أساس (الردع) أي بناء قوة عسكرية كافية لمنع العدو من مهاجمة دولة إسرائيل ومع هذا أثبتت حرب الخليج عدم جدوى هذه النظرية العسكرية الإسرائيلية التقليدية . لقد أجبر مزيج هذه الأسباب السياسية والعسكرية والاستراتيجية والنفسية والعملية رئاسة الوزراء الإسرائيلية على تبني سياسة (ضبط النفس الكلي) فهوجموا من الداخل .

واذا كانت إسرائيل قد كسبت عطف الرأي العام العالمي كثمرة سياسة ضبط النفس هذه فان هذه السياسة ذاتها قد ولدت لاسيما بين العرب وصناع القرار السياسي في واشنطن حالة من عدم الإعتبار لهذه الدولة لم تشهد له نظيراً من قبل هو أقرب الى الازدراء .

لقد أخبرني قادة إسرائيل بعد الحرب ان نظراءهم الاوروبيين قد سألوهم : كيف تحملتم الهجوم؟ كما سمعت ذات التعليق من مسؤولين أمريكيين (لقد أدهشنا رد فعلكم خلال الحرب .. فما كان حرياً بالإسرائيليين أن يقفوا موقفاً كهذا) . وسيكون لهذا القرار في المستقبل القريب عواقب عسكرية وسياسية لها من الأهمية بمكان على

كل من نظرة الفرد الإسرائيلي لـذاته أو في الطريقة التي ستكون فيهـا إسرائيل موضعاً لتقييم واحترام الآخرين لها .

لقد خـرجت وعـائلتي والآخرون من غـرفنا المحصنـة حوالي السـاعة السـادسة صبـاحاً من أول يـوم جمعـة من الحرب وبعد أول هجـوم صـاروخي . لم نصدق أننـا خرجنا الى عالم الحياة الاعتيادية . كان صباحاً مشرقاً زينته زرقة السماء وصفاء الطقس وبدا كأنه يوم صيف هندي . ولم يكن يسيراً تجاهل هذا التناقض الحاد بين هذا الصباح الهادىء وتلك الليلـة الهوجاء التي عـاشهـا سـواسية كل الإسرائيليين الشبـاب منهم والشيـوخ فقيرهم وغنيهم والعربي منهـم أو اليهودي . لقـد تحتم على الإسرائيليين أن يتقبلوا في هذا الصباح وفي الايام التالية أنهم يعيشون واقعاً جديداً .

فإسرائيل اليوم تمثل مجتمعـاً غير الذي عرفـه العالم قبل عشرين أو حتى قبل عشر سنوات خلت . ربما تبقى الشكـوك تحوم حـول احتماليـة أن تنتهج إسرائيل في حكم رابين منحىً سياسياً جديـداً حيال قضاياها الأكثر تأزماً تتصـدرها القضية الفلسطينية وربما سيمضي شوط من الزمن قبل أن يدرك الإسرائيليون كم تغيرت بلادهم ، ولربما بقيت بعض المعتقـدات القديمة ، بيـد أن الهجوم العـراقي قد ألقى الضـوء على قضية كانت بـذورها تنمو داخل دولة إسرائيـل على مدى العقد الماضي من الزمـان وحانت الآن ساعة الحل الشامل والفوري لها .

لقـد شرع الإسرائيليـون الجدد بالمسير فـوق حبل مشـدود يـربط بين العصرانيـة والدنيوية والتعبير الـديني التقليدي . إنهم تركيبة غريبة من الليبراليـة الممزوجة بضيق العقل الرديء .

إن الـرغبة في خلق مجتمع غـربي قـد أوجدت نفسهـا جنبـاً الى جنب مع العرقية الشرق أوسطية . لقـد واجه المطهـرون (Puritanism) الإبـاحة الجنسيـة . كما احتلت

المادية والاستهلاكية مكانـة المثالية والرغبة نحو العدالة الاجتماعية والـرفاهية العامة .
وتحدت التطرفية الفلسفة الذرائعية السياسية القـديمة التي تحلت بالمساومة السياسية .
وإن المسعي الهادف الى المحافظة على مجتمع حر وديموقراطي قد أخذت مصاعبه تزداد
باضطراد طالما أن الحريـة الفردية مقيدة مع بقاء حالة الإحتلال للضفـة الغربية وقطاع
غزة وهي حالة تتطلب أنظمة أمن صارمة .

فدولة إسرائيل عبارة عن مجتمع سياسي مـن رأسه حتى أخمص قدميه وفيه يهيمن
السيـاسيون على قطـاعات الصنـاعة والعمـل والصحة والتعليم والفن والـرياضـة .
وعليك أن تكـون في الإتجاه السيــاسي السليم إذا مـا دعتك الضرورة للتقــديم لأي
منصب إداري عـام أو أن تغدو رجل أعمال . ومع هـذا يمقت الإسرائيليون نظـامهم
السياسي فهم ميـالون نحو التغيير بيد أن الإرادة تنقصهم ليجعلـوا منه تغيراً أفضـل .
لقد أثقلت الحروب كاهلهم إلا انهم يخشون تقـديم أية تنازلات لأجل السلام . وهم
يتضرعـون بكرة وأصيلاً لأجل السلام لكنهم مـا برحـوا يدعمـون أحزاب الجنـاح
اليميني التي ترفض وضع نهاية لاحتلالها العسكري للأراضي العربية المحتلة .

لقـد فقد جيل إسرائيل الجديـد صبره وتحلى بـالمتعية ، وليس عسيراً تعريفهم في
إطار الطبقة الوسطى الملهمة بالقناعات السريعة والعطاء القاصر وبالنتائج الفورية مع
الرغبة نحو حلـول سحرية وسهلة لكل الأعباء السياسيـة والاقتصادية والاجتماعية .
لقد سلخـوا من تفكيرهم مبدأ التضحيـة الفرديـة وأخذوا يشككـون الآن بتضحيات
الإسرائيليين من قبل . إنهم على طـرفي نقيض ليـس مع مـؤسسي الحركـة الصهيـونيـة
الأوائل وأتباعهم بل مع الأجيال التالية الأقـل مثالية من أولئك الأسلاف . ومع هذا
فان هذا المنحى الجديد في التفكير ليس مبهماً بأكمله . فإسرائيل اليوم يتشابك فيها على
نحـو لا يمكن تجنبه الماضي (سـواء أكان سجـلا تـاريخياً أم رمـزاً لدولـة إسرائيل) مع
الحاضر . وإن محاولـة فهم الجيل الجديـد من الإسرائيليين دون سبر أغوار الماضي هـو

كمن يحاول ايجاد تشخيص طبي لحالة ما دون معرفة بظروف المريض أو تاريخه الطبي. وهكذا سنتجه صوب الماضي باديء ذي بدء.

الفصل الأول

حب الهجرة ومقت المهاجرين

يقول روديارد كبلنك (Rudyard Kipling) في إحدى كتاباته النثرية المشهورة :
«إن الشرق والغرب لن يلتقيا بتاتاً» . بيد أنهما التقيا وما دولة إسرائيل إلا مثال حي شاهد لهذا الأمر إذ ينحدر ما يربو على نصف الإسرائيليين اليهود من أصل شرقي ويسمى هؤلاء بـ (السفارديم أي اليهود الشرقيين) وهذه الكلمة تعني في العبرية (الاسبان) . ويرغم أن هؤلاء السفارديم قد قدموا الى إسرائيل مباشرة من شمال أفريقيا والشرق الأوسط ودول البلقان فان عوائلهم بقيت تجوب هذه المناطق بعد أن طردتهم اسبانيا عام ١٤٩٢ . ويسمى النصف الآخر من الإسرائيليين اليهود بـ (الأشكيناز أي اليهود الغربيين) وقد وصلوا إسرائيل من اوربا الغربية والشرقية . وكلمة أشكيناز هي تسمية اليهود لألمانيا خلال القرون الوسطى .

ويقدم هذا الخليط الإنساني دليلاً دامغاً على أن دولة إسرائيل ما هي إلا مجتمع مهاجرين حقيقي وفيه يشكل المهاجرون قرابة ٦٠٪ من أصل أربعة ملايين يهودي يقطنون البلاد وقلما تجد بلداً في العالم لا يمثل الإسرائيليون بعضاً من سكانه فتراهم يعيشون في الهند و الولايات المتحدة الأمريكية و الصين و المغرب و روسيا و كندا و العراق و جنوب أفريقيا و اليمن و بيرو و فرنسا . وصلت هذه المجاميع العرقية باختلاف جذورها إسرائيل وكل منها يحمل على ظهره (وطنه) كأنه الحلزون بما تنطوي عليه كلمة الوطن من تقاليد حضاريه ودينية وسياسية ، لقد آمن مؤسسوا الصهيونية بإمكانية أن يعيش اليهود جميعاً متآخين في هذه الدولة الصغيرة وتلك هي

الـروحية الخاصـة بالمهاجرين التي فـرضـت هيمنتهـا على هذه البـلاد وايديـولوجيـة الصهيونية معاً.

لقد عكست حتى اللغة العبرية الحديثـة وضـع المهاجرين المتميز في إسرائيل فبينما تستخدم اللغة الإنجليزية كلمتين للتعبير عن حالة الهجرة وهي (imigration - الهجرة الى) و (emigration - الهجـرة من) تـرى الإسـرائيلين قد نحتـوا كلمتين أيضـا وهي كلمة (aliyah) وتعني (الذهـاب الى -دولة اليهود-) و(yerida) وتعني (الذهاب من -دولة اليهود-). وتمتلك كلتا الكلمتين التوأم ارتباطاتها السياسية والتاريخية. وكلمة (aliyah) (الهجرة الى) على وجه التحديد تنم على معنى روحي هو أقرب في مضمونه الى المصطلحين الدينيين (الحج) و (يوم الصعود).

طور مـؤسسـوا الحركـة الصهيونية يتـزعمهم (ديفيد بن غـوريون)، (الـذي تبوأ بعـدئذ منصب رئيس الـوزراء) مطلع منتصف الثلاثينـات وقبـل أن تنـال إسرائيل إستقلالها مفهوم القوة الصهيونية. وجد الإسرائيليون في كلمة الهجرة الى او (aliyah) الأداة الفعالـة نحو تعزيـز قوة الأمة بضـمنهـا جيش إسرائيل. وتلك معادلـة بسيطة: ليس بمقدور أمـة صغيرة يحيطها أعداؤهـا من كل صوب أن تنجو بنفسهـا مالم تمتلك قوة دفاعية كافية. وأشار بن غورين في مذكراته: إن كلمة (aliyah) هي عامل الحسم الاول في أمن الامة. وهو موقن تماما ان (الهجـرة الى) إسرائيل ستحفظ للأمة كيانها. ثم حدثت (المذبحة) بعد أن سحقت النازية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية نصف الشعب اليهودي وليذهب معها حلم الصهيونية أدراج الرياح.

وصلت أخبار الحملـة النازية مسامع الغـرب من مصادر متعددة بعـد أسابيع من وقـوعهـا وكان هـذا في صيف عـام ١٩٤٢. بينما نقل الصنـاعي الألماني حي الضمير المسمى (ادوارد شلت) ومقـاتلـو جيش بـولندا السري تلك المعلـومـات الى المنظمات اليهودية في سويسرا المحايدة.

لقد تجاهل الجميع سواء أكان الرئيس فرانكلين روزفلت في واشنطن أو ديفيد بن غورين في تل أبيب أخبار مجزرة اليهود ورفض بعضهم التصديق فيها واستمر الحال هكذا حتى نهاية عام ١٩٤٢ . ولم يحرك الحلفاء ساكناً لوضع حد لهذه الوحشيات حتى بعد أن تجلى الرعب النازي للقاصي والداني منهم حتى الإنجليز الذين حكموا فلسطين من رد الفعل العربي واستمروا بفرض سياسة تقويض الهجرة اليهودية بينما رفضت الولايات المتحدة وباقي الامم المتحررة منح اليهود تأشيرات دخول وتزايدت مناشدات قادة اليهود في بريطانيا والولايات المتحدة وحتى من مخيمات الموت ترجى الحلفاء بقصف هذه المخيمات او في أقل تقدير قصف خطوط سكك الحديد التي تحمل اليهود الى حتفهم هناك . وهنا علق قادة الحلفاء العسكريين ان مخيمات الموت أبعد كثيرا من مديات قاصفاتهم ثم أخذ خط الرفض هذا -بعد أن أصبحت الأرض البولندية مرتعاً لهذه المخيمات- منحىً آخر إستند على (محدودية المصادر العسكرية) . كان هذا واحداً من أكثر فصول الحرب العالمية الثانية المأوجنونا .

لقد توجب على الغرب بعد أن وضعت الحرب أوزارها أن يواجه ذنوباً إقترفها والمتمثلة بسلبيته حيال رعب كان قائماً . واستحال وخز الضمير الذي عاشه قادة الغرب والشارع الأمريكي على وجه الخصوص الى عامل تحفيز مهم في إقامة دولة إسرائيل .

بيد أن اللائمة لا تقع لهذا الأمر على بقية العالمين وندع بن غورين وصحبه بمنأىً عن ساحة الخجل فهم لم يكلفوا أنفسهم وسعاً ويفعلوا لأمرهم شيئا حتى بعد أن وصلتهم معلومات المذبحة . وبينما كانت قطارات النازية تنقل اليهود صوب وجهة الموت ؛ و افران النازية ما انفكت تغظ بيهود اوربا ، كان مزاج النقاشات في فلسطين هادئا ولن يخرج عن نطاق العمل كعادته . وأنت لترى ؛ وواقع الحال هكذا؛ محاضر إجتماعات قادة الصهيونية مليئة بالفقرات الساذجة والنقاشات الفارغة حول الجرائم

التي كانت تحدث في اوربا . وحقيقة ان المجتمع اليهودي في فلسطين كان يعيش تحت الحكم البريطاني وانه لم يملك جيشاً خاصاً به إلا أن قادة الصهيونية تجردوا من كل شعور بما كان يدور هناك .

ومن الصعب تفسير هذه الشكوكية والتجريدية تجاه تلك الأخبار وكذلك تجاه مشكلتهم في إقامة الدنيا وإقعادها في محاولة لإيقاف عملية تصفية أتباعهم اليهود . لقد توصل الراديكاليون من بين ارثوذكس اليهود (وهم ضد فكرة الصهيونية ومع إقامة دولة إسرائيل) الى جواب لا يرقاه جواب في قسوته ووحشيته . لقد اتهموا الصهيونية نفسها بالتواطؤ مع النازية وذهبوا أبعد من هذا ليقولوا ان تصفية اليهود قد ساعدت كثيرا على التعجيل في اقامة دولة إسرائيل . ومن المؤكد أن إدعاءات كهذه هي إدعاءات مضللة ولا تستند على أي دليل من الصحة .

بيد أن تفسيرا آخر ما زال قائماً قد يميط اللثام عن تصرف بن غورين : إنها النظرية الصهيونية الواقعية لحالة الشتات . لقد شد الصهاينة العزم لخلق إنسان جديد من نوعه داخل (ايريتزإسرائيل –أرض إسرائيل–) وهي التسميه اليهودية لفلسطين. لقد تحتم على اليهودي الإسرائيلي وعلى خلاف نظيره (الديسبوري*) أن يكون دوماً قوياً لايهاب الموت أنى يكون ومتهيئاً للدفاع عن نفسه . وكان عليه أيضاً أن يكون (طبيعياً) وهاجس الطبيعية هذا كان الخاصية المبكرة للتفكير الصهيوني . لقد عزز ما يسمى بمصطلح (السلبية) أو (الخضوع) للسلوكية التي تحلى بها يهود الديسبورة إبان الحرب صورة المقت بين اليهود جيعهم تجاه يهود الديسبورة على انهم أناس لا حول لهم ولا قوة . وكان يتراءى يهود الديسبورة في عيني بن غورين وقادة الصهيونية كأنهم (خراف إقتادوهم الى المسلخ) .

لقد عانى بن غورين وقادة الصهيونية من شعور الذنب المخيف بعد أن مزقتهم

*ديسبورة : اليهود المشتتون في أرجاء العالم بعد الأسر البابلي .

الشكوك أعقاب المذبحة وشعورهم انهم وقفوا عاجزين حيالها فوظفوا (ذاكرة المذبحة) لتشدهم خلقياً بيهود الديسبورة. و أعلنوا ان دماراً كهذا لن يحل باليهود ثانية وانهم سيؤمنوا الحماية لليهود أنى كانوا.

لقد أطلقت إسرائيل على نفسها في (إعلان الإستقلال) عام ١٩٤٨ انها وطن اليهود وتعهد الإعلان أن لكل يهودي الحق في التعايش متآخ مع أترابه الآخرين في وطنهم ذي السيادة. لقد أقاموا هذه البلاد لتكون ملجأ لكل اليهود وان هدفها أن تغدو تجمعاً لكل من ينفى ولتوحد شمل اليهود أجمعين في ارضهم القديمة. وان الصيغة القانونية التي احتوت الهجرة الجماعية لليهود هي (قانون العودة) ينص هذا القانون على أن لكل يهودي الحق بالهجرة الى إسرائيل وأن يمنح الجنسية الإسرائيلية حال وصوله دون الحاجة الى عملية التأقلم. ومع هذا وجد بن غوريون وقادة إسرائيل أنفسهم في موقف غريب مع بدايه إقامة دولتهم. لقد نشأت الصهيونية في اوربا وصب قادتها وهم من يهود اوربا جل اهتمامهم لنقل حالة مجتمعاتهم الى ايريتز إسرائيل فبنوا دولة اليهود على أحلامهم المستقاة من نمط حياتهم الاوربي وكان مخاض هذا الأمر أن غدت إسرائيل وفقاً لتخيلاتهم نموذج إمتداد للعالم القديم المعروف... فإسرائيل التي يعتقدون قد أقامت نفسها لتخدم يهود اوربا القادمين من الغيتو (أحياء اليهود). لقد جرح الاضطهاد ومناهضه السامية اليهود ولم يشغل اليهود الشرقيون حيزاً في تفكير قادة الصهيونية. ثم وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وعلم حينها بن غوريون أن إحتياطه البشري الكبير الذي سيعول عليه في القدوم الى دولة إسرائيل هم السفارديم.

إن ما وسع مشكلة هجرة السفارديم الى إسرائيل حجماً هو كيفية إخراجهم من مواطنهم الأم وصعوبة هذا الأمر تكمن في انها تتطلب خرقاً للقوانين المحلية لتلك البلاد. وهكذا استعدت إسرائيل لخوض غمار هذه المخاطرة ولم تألو آنذاك جهداً أو

تدخر مالاً لبلوغ هذه الغاية فجندت جهاز مخابراتها السري (الموساد) أداة لهذه المهمة. لقد نال الإسرائيليون حريتهم بالمال والرشاوي وفي أحايين أخرى بالسلاح بعد أن منعتهم بلدانهم من مغادرتها وقادت الموساد والوكالات السرية الأخرى حملات سرية لحماية اليهود في كافة أرجاء العالم وللمساعدة في عملية الهجرة الى إسرائيل أيضاً. فقد تم نقل قرابة خمسين ألف يهودي من اليمن جواً بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ بعد أن تمت رشوة مسؤوليها المحليين ووضع هذا الأمر سابقة تاريخية لمشاريع أخرى مشابهة وأبقت إسرائيل على تكتيكها هذا كما هو الحال اليوم مع هجرة يهود اثيوبيا (الفلاشا) الجماعية.

وفي العراق، وصف العراقيون بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥١ الرشوة بـ (عمولة وكالة السفر) إلا أن المال في حقيقة الأمر كان يذهب الى جيوب رئيسي وزراء البلد اللذين سمحا مقابل هذا الشيء لحوالي ١٣٠ ألف يهودي بترك البلاد. بينما سمح الحسن الثاني ملك المغرب وكبار مستشاريه لما يربو على ١٥٠ ألف يهودي بالهجرة الى إسرائيل بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٢ مقابل حصولهم على الرشاوي والسلاح وأساليب الحماية التي قدمتها إسرائيل مع الأموال التي قدمتها المؤسسات الخيرية اليهودية.

وباتت إسرائيل في عصرها الأول وكنتيجة لهذا الأمر قلعة بابل الحقيقية. وقد هدفت هذه السلوكية الى التشرب في دواخل أكبر عدد ممكن من الناس في شتى أرجاء المعمورة. كان هدفاً شاقاً وكان المسعى نحوه حماسياً بيد أن التحدي كان كبيراً أيضاً. لقد أخذت هذه السلوكية من الوقت قليلاً لتكشف الفجوة بين حلم الاتيان بكل ضروب هؤلاء الناس صوب هذا البلد الصغير وبين واقعية مثل هذه المهمة. فقد لعنت الكثرة من المهاجرين بعد عملية الهجرة الأولى يوم وصولها إسرائيل ولم تدخر وسعاً في محاولاتها مغادرة البلاد والإستيطان في مكان آخر. كانت أولى خطوات أي مهاجر تتجه صوب مراكز الهجرة المسماة (بوابات الهجرة) التي اعتبرتها السلطات في

واقع الأمر بوابات موصدة لمعسكرات إعتقال. وإذا ما قرأت سجلات (ارشيف دولة إسرائيل) لتأكد لديك الإنطباع أنها قد أعدت هؤلاء القادمين الجدد مجرمين كامنين وليس أخوة وأخوات لمن سبقهم. فقد تحمل هؤلاء المهاجرون جوراً قاسياً أقر فيه بحزن أحد أعضاء الحكومة والمسؤول عن عملية الهجرة بقوله: «إن إسرائيل ترحب بالهجرة وليس بالمهاجرين اليهود». لقد عانيت وعائلتي من هذه اللامبالاة تجاه المهاجرين بعد وصولنا إسرائيل في آذار عام ١٩٥٧ قادمين حفاة من بولندا. فقد أنجز موظفو الحكومة البيروقراطية عند استقبالهم لخمسة منا عملهم ببطء قاتل وكأن بيدهم وقت العالم كله وأدركت ولما يزل عمري ست سنوات غرابة أن يبتسم هؤلاء الموظفين عند الحديث لبعضهم البعض بينما تراهم متجهمين إذا ما استداروا إلينا. أما الموظف الذي وصلت أوراقنا إليه فكان بين الحين والآخر يبارح مكتبه لساعات طوال ثم يعود اليه حيث الأوراق متناثرة على طول طاولته دون أن يكلف نفسه لمجرد عبارة إعتذار بسيطة. إستمر الحال هكذا حوالي عشر ساعات أمضاها والداي جالسين وأمتعتنا بجانبيهما دون أن يجرؤ أحدهما على التفوه بكلمة واحدة وبرغم أن والدي قد تعودا أن يعاملهما الأخرون بطريقة مختلفة فان كليهما كان خائفاً من معاداة البيروقراطية. وبعد أن إنقضت سنوات عدة وتكيفا للحياة الإسرائيلية بات بمقدورهما العودة الى الماضي واستذكار تجربتها الأولى دون غضب وليدركا ان العداء الذي يكنه أتباعهم الإسرائيليين حيال غالبية سكان إسرائيل هو صيغة المفارقة التي تتحلى بها العقلية الإسرائيلية.

كانت الجوانب المكملة لعمليات الهجرة الجماعية مطلع الخمسينات كثيرة وستقول لك السجلات المؤقتة الكثير من القصص المؤلمة كما تصف أحاديث شهود العيان معسكرات الإستيعاب بالمكان الموحش وفيه (تبخرت رائحة الشر العفنه في الهواء). فقد تحتم على الناس قضاء أيام في العراء قبل أن يحصلوا على خيمة تأويهم. كان الشتاء بارداً وممطراً ونوع الغذاء غني عن التعريف به فالعشاء يتألف من خمس

حبات زيتون وقطعة خبز وبعض الجبن . كان بمقدورك سماع عشرات اللغات مرة واحدة وأغلب الناس لا يفهم بعضهم بعضاً في الحديث وقلة منهم كانوا يفهمون موظفي الحكومة البيروقراطيين المتحفظين الذين كانوا يتكلمون العبرية والذين أظهروا بدل المساعدة اللاإكتراث بل وإحتقار الآخرين . وغالباً ما تضارب اللاجئون وتشاجروا حول كل ما يتعلق بضروريات البقاء ، من الفراش والخيمة واللحاف والغذاء . لقد ساد بينهم قانون الغاب .

حصل المهاجرون بعد أسابيع عديدة أمضوها في هذا المركز على بيوت دائمية كانت ظروفها أشد قسوة من سابقها . لقد عاش المهاجرون في خيم وسقائف رثه في مخيمات كانت تسمى بـ (العبور) تقابلها في العبرية كلمة (ma'abarah) التي نالت مضمونا بشعاً وأصبحت تستعمل اليوم لوصف أي مكان مخيف .

تقع (مخيمات العبور) هذه خارج المدن الكبيرة وفي المناطق النائية وهي تفتقر الى الحمامات أو مياه الإسالة وجميع ظروفها الصحية كانت رديئة . كما كانت تخلو من الطرقات وكل ما فيها هو ممرات وحلة . ومات أغلب الناس نتيجة لنقص الدواء والأطباء والمرضين . وقد نقل أحد المفتشين التابعين لوزارة الهجرة الإسرائيلية بعد زيارته لأحد المخيمات الجديدة انه قد شاهد بأم عينه (المهاجرين يرفضون تناوله حساءهم بسبب الديدان التي كانت تدب فيه وسط الخضراوات المطهية) . وتبين وثائق الدولة ان المهاجرين كابدوا عناءاً ليحصلوا على عمل ما بينما عمت البطالة معظمهم وسلخوا معظم وقتهم في لعب الورق أو الطوفان حول مخيماتهم . وكتب مسؤول آخر يقول : «إنما نحن نسحق هؤلاء القوم فنحن لا نقوى على فعل شيء سوى أن نذرف الدموع» .

لقد واجه الجميع ذات المعاملة القاسية سواء أكانوا اليهود الاوربيين الذين نجا معظمهم من المذبحة أو اليهود الشرقيين . وخضع جميع من عبر (بوابات الهجرة) الى

فحص طبي قاصر ثم يطلب اليهم خلع ملابسهم كاملة لغرض تطهيرهم بالـ (دي دي تي). تلك كانت تجربة مذلة سيما ليهود الأشكيناز الذين نجوا من المذبحة.

وعبر أطفال إسرائيل وعلى نحو مقرف عن شعور اللاإكتراث تجاه آلام المهاجرين فأطلقوا على من بقي من يهود اوربا حياً بعد المذبحة اسم (الصابون) وغدا هذا الالماع القاسي والمروع لإستخدام النازية للزيت البشري في صنع الصابون مرادفاً لكلمة (الخارج) ذلك الشخص الضعيف المختلف الطباع الذي لا ينتسب الى مجموعة ما.

واجه المهاجرون داخل إسرائيل موقفاً سلبياً غريباً وهذا في واقع الحال يرتبط مع الأهداف الاصلية للصهيونية. لقد جاهدت الصهيونية أولاً وقبل كل شيء لخلق إنسانها الجديد وكان أحد أكثر رموزها شعبية هو تسميتها للإسرائيلي الاصل بـ (صابرا) وهي التسمية العبرية للتين الشوكي الذي ينمو على نوع عدد من الصبار. هذه الفاكهة تتميز بخشونتها من الخارج ونعومتها وحلاوتها من الداخل. وهذا المصطلح يشير الى كل من ولد على أرض إسرائيل تمييزاً له عن المهاجر. وجندت إسرائيل شعرها وأدبها في مرحلة ما قبل التأسيس ومرحلة التأسيس لتميز صورة الصابرا.

بلغت هذه الصورة المجسمة عن الصابرا ذروة سقط المتاع بعد حرب الإستقلال عام ١٩٤٨ عندما جسدوه بالمثالي ورمزاً للشاب الإسرائيلي الاسطوري الجميل ذي العينين الزرقاوين بشعره البراق والصحي. لقد أحب رجل الصابرا البحر (لأنه ولد من البحر كما قال عليه موشي شامير -أحد أكثر كتاب عصره شعبية-) وكان الصابرا عضواً في الحركة الشبابية ومتطوعاً في صفوف الجيش لايأبه خوفا أو يكل له ساعداً. لقد أحب الحياة بيد أنه آثر عليها التضحية لأجل غايته الأسمى: الدفاع عن أرض الآباء. كان مستعداً لقتل عدوه العربي بيد أنه لا يكن له كرهاً فتراه يطلق عليه النار ثم يجهش بالبكاء. ومن الطبيعي أن يصبح الشاب المهاجر خصم شاب الصابرا فهو كما

وصفته (لي كومبرج) وكانت آنذاك في طليعة شعراء عصرها : «إنه قبيح جداً لن يجد المرء له منفذاً كي يحبه»، وكان وصف الصحافة الإسرائيلية للمهاجرين جارحاً جداً لا يختلف بشيء عن الحملات المناهضة للسامية التي شنتها بقية مناطق العالم. لقد نسبوا الى المهاجر الشاب وعلى نقيض مثالية الصابرا صفة (الأنانية والطفيلية ونقص الأخلاق).

ووصفوا كل مهاجر جديد سواء كان اوربيا أو شرقيا بالتابع العدو وانه يثير الأنانية بين الإسرائيلين، فهم يرتدون ملابس مختلفة ويتحدثون لغة أجنبية ويمارسون عادات مختلفة وأعادوا الى ذاكرة السفارديم سنوات الذل المبكرة وتصرفوا أقل خشونة حيال الأشكيناز. الذين ربما كبتوا حزنهم داخلهم ولم يشاءوا إعادة شريط التجربة المبكرة المرتبطة بنجاتهم من المذبحة.

بيد أن مطب السفارديم كان أعمق إذا ما قورن مع حال مهاجري اوربا. فدولة إسرائيل ولأن غالبيتها من يهود اوربا قد فتحت مصراعيها أوسع أمام المهاجرين الأشكيناز الذين تبوؤا جميع المؤسسات السياسية والمالية والعسكرية والثقافية. فهم يرتبطون بحضارة واحدة وتجمعهم قيم متشابهة وفوق هذا يتكلمون اللغة اليدية*. كما كان لمعظمهم أقرباء في إسرائيل ساعدوهم مادياً والاكثر أهمية من ذلك انهم قدموا لهم العون المادي وأرشدوهم الى الوجهة الصحيحة داخل البيروقراطية الإسرائيلية.

لم يمتلك مهاجر السفارديم أياً من هذه الروابط لتمهد له طريقه لولوج الحياة الجديدة وتميزوا بتراث شعبي وحضارة اختلفتا تماماً عن الحضارة الاوربية الغربية التي تبنتها دولة إسرائيل وكانت النتيجة أن عانى السفارديم التفرقة العنصرية من الإسرائيلي والمهاجر الأشكيناز معاً فقد أوصى المسؤولون الحكوميون على سبيل المثال

---

*اليدية : لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكتب بأحرف عبرية وتكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية ويتكلمها يهود روسيا واوروبا الوسطى.

بتسهيل بعض الأمور لنا نحن المهاجرين البولنديين. لقد فضل معظم السفارديم البقاء طويلاً في مراكز الهجرة ولأن معظمهم قدم من الشرق فان الأمية كانت سائدة بينهم كما وجدوا مشقة أكبر في عملية التكيف الإجتماعي. وأسوأ هذه الأمور جميعها هي انهم قدموا بلا قادة معهم فكانوا كأنهم قطيع خراف بلا راع.

إن الصهيونية بمفهومها الأوسع حركة شعب مسير لا مخير. فاذا ما استثنينا حفنة من الطليعة المثالية الذين انطلقوا يدفعهم ايمانهم القوي بأحقية رحلتهم، لوجدنا أن الغالبية العظمى من المهاجرين الإسرائيليين قد اجبرتهم ظروفهم لمغادرة مواطن نشأتهم. وحتى أولئك الذين نجوا من المذبحة وفقدوا أهليهم وبيوتهم قد قدموا الى إسرائيل بعد أن ضاق بهم السبيل ولم يجدوا لغيرها بديل.

لقد ظن المهاجرون في إسرائيل مركز شفاء لهم. فيهود السفارديم عاشوا ولقرون طوال في بلدانهم سواء أكانت اليمن أو العراق أو المغرب أو مصر أو ليبيا قريري العين بأي حال من الأحوال. بيد أن الوضع تغير منذ اللحظة التي ازدادت فيها حدة التوتر بين العرب واليهود عام ١٩٤٨ واستحال تعايشهما السلمي سابقاً الى عداء سيما بعد أن وفرت هذه التوترات منافع سياسية لبلدان عربية أخرى. والآن قد بدأ يستفحل ضغط البلدان العربية المجاورة لإسرائيل على مواطنيها من اليهود وأخذت تتدخل في جميع حقوقهم الانسانية. وهكذا خلق القدر لليهود الذين تعودوا في صلاتهم الرثاء على صهيون الفرصة والحجة لهجر بلدانهم وتحقيق أحلامهم. ومع هذا لم يتعرض يهود مناطق العالم الأخرى الذين كانوا أيسر حالا لاي ضغط صهيوني ولم يرغب أولئك الذين لم يعانوا من أي خطر بارز وضع إعتبار لعملية الهجرة وكان هؤلاء هم يهود أمريكا وجنوب أفريقيا واوربا الغربية.

وهكذا بدأت منذ اللحظة التي حطت فيها أقدام المهاجرين أرض إسرائيل المشاكل الجلل الإجتماعية منها و السياسية والحضارية.

الفصل الثاني

الصهيونية : حلم الأمس وواقع اليوم

شاع استخدام مصطلح الصهيونية بمفهومه السياسي أول مرة في اجتماع فينا الذي انعقد بتاريخ الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ١٨٩٢ . بيد أن مفهوم جبل صهيون (بيت المقدس) لم يكن جديداً فهو قديم بقدم منفى بابل كما يوضح هذا بجلاء كتاب (سفر مزامير التوراة) : «جلسنا بجانب انهار بابل، تذكرنا جبل صهيون وذرفنا عليه الدموع» . وجبل صهيون أو كما يسمى بالعبرية (tsion) والذي يشير اليه المقطع الشعري أعلاه هو في واقع الأمر التسمية الأخرى لمدينة القدس .

كانت القدس الاسم المعروف بحصن (جيبوسايت) التي احتلها الملك داوود الثالث قبل ثلاثة آلاف سنة . والجيبوسايت هي إحدى القبائل الكنعانية التي هزمها اليهود الغزاة أو الإسرائيليون الذي تحركوا من مصر بعد أن نالوا حريتهم من الرق والذين استقروا في أرض تعرف اليوم بإسرائيل . ثم أطلق الرومان على هؤلاء اليهود الـ (Hebrews) وهم الذين ينتمون الى قبائل بدوية ذات أصل سامي اسم اليهود (Jews) .

يمثل جبل صهيون في الأصل الجزء الجنوبي من تلة على قمتها بنى ابن داوود (سليمان) المعبد اليهودي الأول حوالي (٩٧٠ قبل الميلاد) . ثم امتدت تسمية جبل صهيون لتشمل التل بأكمله فالقدس فـ (الأمة بأكملها) . بل انها باتت رمزاً لنفس الروحية التي نشرت التوحيد وهو الايمان بإله غيبي واحد في عموم أرجاء العالم

الوثني ، إنه الإنجيل الذي مازال حتى يومنا هذا ينشر أفكاراً مستقاة من الديانة اليهودية .

لقد غلب طابع الحزن وغالباً المأساة على التاريخ اليهودي برغم مساهماته الغزيرة في الحضارة . إذ عاد الإسرائيليون أدراجهم الى ديارهم بعد النفي البابلي ونالوا استقلالهم ثانية وأعادوا بناء معبدهم المهدوم في القدس . ثم فقدوها ثانية بأكملها للإمبراطورية الرومانية في أول قرن . وبلغ الاضطهاد الروماني للفرد الإسرائيلي حداً حاولوا فيه مسح حتى العلاقة الرمزية التي تربط الشعب بأرضه وأطلقوا على القدس تسمية (Ilia Capitolia) وعلى (يهودا) اسم فلسطين نسبة الى (Philistines) وهي قبائل عاشت في عهد الملك داوود ونشأت فوق الجزر اليونانية ثم وصلت سواحل كنعان في حوض البحر المتوسط . أرسل تدمير المعبد الثاني حوالي ٧٠ سنة بعد الميلاد باليهود الى منفى آخر دام فترة تناهز الألفي سنة . وتفرق الإسرائيليون أغلبهم في بقاع العالم المتناثرة وظلت حفنه قليله منهم تعيش في إسرائيل .

كان من المنطقي أن يخيل للمرء ان النفي سيكون بداية النهاية للشعب اليهودي إذا ما نظر الى أمم وحضارات أخرى سكنت الشرق الأوسط ولم تكن أقل ازدهاراً من الحضارة اليهودية ثم اختفت تماما من على وجه الأرض وتلك الحضارات هي السومرية والأكدية والآشورية والبابلية .

لقد رفض التاريخ اليهودي برغم ذلك أن يقولب نفسه وتحدى النظريات التي وصفت بزوغ وأفول الحضارات . وهاهو الفيلسوف الألماني سيجلر قد سلم بأن طبيعة الحضارات هي التي تولد أو تموت بينما يؤمن المؤرخ البريطاني (ارنولد توينبي) أن الحضارات قد تطورت نحو أشكال عليا . وكلا الأمرين لا ينطبق على الحضارة اليهودية .

يمكن تفسير هذا اللغز المبهم جزئيا باللجوء الى الشعائر الدينية الصارمة وانعزالية أوائل اليهود، حيث لعب هذان العاملان دوراً ساعد في المحافظة على لغتهم وتقاليدهم وموروثهم عبر القرون.

بيد أن العزلة والديانة المتميزتين كان لها جانباً سلبيا جلب لليهود كره جيرانهم بعد أن حملوهم قبل هذا وذاك مسؤولية دم المسيح. كانت مناهضة السامية باديء الأمر ذات جذور دينية فقط ثم تشعبت لتأخذ إطارات سياسية واقتصادية واجتماعية وعنصرية وجلبت معها الكارثة والفاجعة اللتين تسببتا بعدئذ في التخلف والاضطهاد. سكن اليهود الديسبورة في اوربا الشرقية في مدن صغيرة إقتصرت عليهم حصراً (Shtetls) وفي مقاطعات باتت تعرف بـ(أحياء اليهود -الغيتو-). واختلف يهود اوربا عن جيرانهم فأسماؤهم كانت غريبة وتميز لباسهم بالمعطف الأسود الطويل والرداء وغطاء الرأس. وتكلموا لغة أجنبية هي اليدية. لم يستخدم يهود الديسبورة وعلى مدى ألفي سنة من تاريخهم اللغة العبرية إلا في صلاتهم، فهي لغة مقدسة وهي لغة التوراة المقدسة، وباستطاعة المرء أن يصلي أو يتأمل أو يحلم في اللغة العبرية بيد أنه يلجأ الى اللغة اليدية في حديثه اليومي العام.

لم يتوسم اليهود سيما يهود اوربا الشرقية بحرفة أو مهنة محددتين واعتادوا جميعاً عيشة الكفاف كما أطلقت عليهم اللغة اليدية كلمة (Luftmenschen) أو (الناس الاثيريون) ومع هذا فقد اقترنت بهم بعض الحرف مثل أصحاب الخانات أو أصحاب المتاجر أو الربا بالمال.

لقد قصدت الصهيونية الحديثة أعتاق اليهود من مجتمعاتهم المعزولة ومن عزلتهم وتخلفهم وأن تعيد لهم كرامتهم. كما أرادت لأنها حركة تحرير وطنية أن ينال اليهود حريتهم وأن يكون لهم كيانهم في أرضهم القديمة. أما رغبتها الجامحة فكانت تنشد السواء أي حق الشعب اليهودي أن يكون لهم أمتهم كباقي الأمم.

يرغب المؤرخـون في تعريف الربط بين الـزمان والمكان لواقع يستطيعـون تحديده بأنه بداية الإنعطافة التاريخية بيد أنهم يدركون تماماً أن الأحـداث التاريخية الكبرى لم تكن أحداثاً ثـابتة وهي حتى وإن كانت ذات بعـد واحد فانها تركيبة من عـوامل عدة تمثل عملية مـا . فبات ينظر الى حزب (تي . بوستـن) بأنه انعطافة في الثـورة الأمريكية واقترنت الثـورة الفرنسية بهدم أسـوار الباستيل . ومن الصعـب تحديد مكان وتـاريخ ولادة الثـورة الصهيونيـة لأنها لم تولـد في مكـان واحد وزمـان معين بل ترعـرعت في أماكن شتى عبر زمـانات متعـددة . ومع هذا يمكن القول أن أحـداثاً معينـة في روسيا (أعمال العنف ضـد السـاميـة والمعـروفـة باسـم المذبحة المنظمـة) قـد ولـدت الثـورة الصهيونية . إشتقت كلمة (Pogroms) من الكلمة الروسية (Pogromi) التي تعني (تدمير) وقد استخدموها لوصف المجازر التي حلت باليهود وتدمير ممتلكاتهم ، تلك العملية التي انتشرت داخل الإمبراطورية الـروسية كالنار في الهشيم في فترة الثمانينات من القـرن التـاسع عشر . ومن بين أنقـاض هـذه المذبحـة نهضت الحركـة السيـاسيـة الصهيونيـة . لقد خـاض معظم قادة الصهيـونية الكبـار غمار تجربة المذبحـة هذه التي أنبتت في روحهم ونفسيتهم جذور خـوف عميقة . فتراهم يخطون في مـذكراتهم حتى بعد سنوات طوال من انقضائهـا كيف اختبأوا تحت الأسرة والمناضد وداخل خزانات الملابس سيما بعد أن عاث المشاغبون قتـلا لا يردعهم رادع . وكنتيجة لهذا الأمر اجتاز أوائل اليهـود التواقين الى جيـل صهيون عمليـة مسح جـذريـة وأعادوا النهـوض بها كفكرة سيـاسية حديثـة . وبزغ من بين هـؤلاء الناجين من غدا بعـدئذ المخطط البارع والحالم والكبير .

أما الرجل الذي عقد العزم أكثر من غيره ليحيل الحلم حقيقة فهو ثيودور هرتزل (بنيـامين زيف) وقد ولـد في بودابسـت (العاصمـة الثانيـة لـلإمبراطوريـة الهنغاريـة النمساويـة) عام ١٨٦٠ . كـان قائد الصهيونيـة وبطلها بـلا منازع حتى كنـاه الكاتب النمساوي المتجـدد (ستيفن زوغ) بـ (ملك اليهـود) . إنه مـوسى عصره الذي سيحط

بشعبه في أرض الميعاد. لقد أخرج هرتزل (الدعاء) الوطني اليهودي من قبور أحيائهم وأنصبه ثابتاً في محافل السياسات الدولية واستحالت القومية اليهودية بفضله الى قوة سياسية.

ولد هرتزل بين أحضان عائلة يهودية برجوازية نموذجية وكان الإستيعاب هو جو العائلة السائد برغم أن أطفالها مازالت تنهل بعض الثقافة اليهودية. كانت اللغة التي تعلم بها هرتزل ثقافته هي الألمانية برغم أنه من أصل هنغاري وقد كتب في مذكراته انهم لو منحوه الخيار ليغدو شخصاً ما آخر لاختار أن يكون نبيلاً المانياً. ثم تخلى بعد أن نال شهادة الدكتوراه في القانون عام ١٨٨٤ عن نيته في أن يصبح محامياً متمرساً في فيينا كي يهب نفسه كاملة للكتابة. وهو لم يكن حينئذ مفكراً جاداً أو معلقاً حاذقاً بيد أن كتاباته إتسمت بالذكاء والفظاظة أكسبتاه عاطفة قرائه حتى نال أخيراً عملاً ثابتا في أكثر صحف فيينا سمعة ألا وهي صحيفة (نيو فري بريس). كان جميع محرري هذه الصحيفة من شباب اليهود المدركين آمنوا جميعا أن الرقي الإنساني والتحررية السياسية ستهزم قوى الظلام المناهضة للسامية. وألف هرتزل أيضاً عدداً من المسرحيات الهزلية التي كانت كنتاجات عصرها ساذجة أكثر من أن تكون مضحكة.

جاءت نقطة الفصل في حياة هرتزل بعد تعيينه عام ١٨٩١ مراسلا لصحيفة (نيو فري بريس) في باريس. لقد تميزت مرحلة التسعينات من القرن التاسع عشر بأنها مرحلة مداواة مناهضة السامية في كل من فرنسا وباقي بلدان اوربا الغربية أما الحدث الأجل الذي هز كيانه فكان (ألفريد درايفس). كان ألفريد درايفس ضابطاً في الجيش الفرنسي ومن نسب يهودي. وقد ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه في تشرين الأول عام ١٨٩٤ بحجة بيع أسرار عسكرية الى ألمانيا عدوة فرنسا اللدودة برغم ولاءه المطلق للجيش الفرنسي.

كان بريئاً بيد أن المحكمة العسكرية أعلنته مذنباً فأعدموه علناً في كانون الثاني عام ١٨٩٥ . لقد حضر هرتزل بصفته صحافياً مراسم الذل التي جردوا فيها درايفس من رتبته العسكرية (كان برتبة نقيب) وسمع صيحات الحشد الحاضر تقول : الموت الموت لليهود (A mort! Amort! les Juifs!).

أدرك هرتزل بعد أن خرج من المحاكمة ؛ وكأنه نفس شاردة تبحث عن ذاتها ؛ أن اليهودية لن تجد حلاً لمشكلتها بالإتحاد والإدراك وإنما في أن يكون لليهود أرضهم ووطنهم . وهكذا طلع هرتزل من كائن يهودي يبحث عن جذره وينشد مجرد الإتحاد مع الحضارة الاوروبية الغربية المتناهية الحدود (كما كان يراها هكذا) الى كائن وطني مخلص ليهوديته .

بعد عودته من فيينا ، وظف هرتزل نفسه تماماً ليكتب مناشداته لكافة التجمعات الصهيونية نتج عنها صدور مقالة قصيرة عام ١٨٩٦ والموسومة بـ (Der juden stat) التي تعني (دولة اليهود) ، محاولة لإيجاد حل عصري لقضية اليهود . كان جوهر الموضوع أن اليهود ليسوا وحدهم من يحتاج الى دولة لهم بل جميع العالم ايضا . واستند مفهوم ذلك في أن (يتجمع) اليهود لأجل دولتهم المستقلة وأن ميثاقاً بهذا الأمر سيصدر ليؤكد هذا القرار ، ومن أن المجتمعات اليهودية في شتى أنحاء العالم ستنظم نفسها لإجراء حوارات مع القوى الخارجية ، وأن تدير عملية الهجرة اليهودية من الديسبورة الى منطقة أخرى جديدة وسيقع على كاهل أثرياء اليهود مهمة دعم هذه العملية مادياً .

أثارت المقالة بعد نشرها أول مرة مزيجاً من ردود فعل تراوح بين الحماس لها الى الحقد أو اللعنة عليها . ثم بدأ مشروع هرتزل يكسب زخماً تدريجياً له ومضى هو دون كلل يكتب الرسائل ويسافر في رحاب اوربا ليلتقي بقية تجمعات اليهود في محاولته الشروع بتكوين دولة اليهود حتى توجت جهوده نهاية المطاف بعد عام ونصف العام

من العمل المدؤوب في القرار القاضي بعقد مؤتمر خاص هو المؤتمر الأول لـ (الكونغرس الصهيوني).

وهكذا، التقى في التاسع والعشرين من آب عام ١٨٩٧ مائتان وخمسون وفداً يمثلون أربعاً وعشرين دولة من شرق اوربا وغربها في قاعة المؤتمرات في كازينو بازل بسويسرا. تراوحت هذه الوفود بين أن تكون ممثلاً لتجمعاتها أو مدعوة من لجنة المؤتمر أو من جاء منها نيابة عن نفسه ومن محض إرادته. وكان هناك طلاباً ورجال أعمال أثرياء وعباقرة وعمال.

إستمرت أحداث المؤتمر ثلاثة أيام تم خلالها تبني فكرة هرتزل بإقامة دولة اليهود في فلسطين، كما قرر المؤتمرون إقامة الإتحاد الفيدرالي الصهيوني ليكسب الدعم العالمي لمفهوم دولة اليهود في فلسطين. وقد انتخب المؤتمر هرتزل أول رئيس لإتحاد المنظمات الصهيونية.

كان هدف هرتزل المعلن في أول مؤتمر هو وضع خطة ستكون بعدئذ جني المستقبل للحاضر في (الدولة السوية) واستحالت الرغبة في أن يكون لليهود (أمة كباقي الأمم) هاجس مؤسسي الصهيونية، فيهودي المدن القديمة بات كما يراه مؤسسو الصهيونية إنساناً ضعيفاً شاحباً وملابسه سوداء مشؤومة. وأرادوا أن ينشلوه من ذاك الرداء المقيد ليرتدي ملابس قصيرة خفيفة ورياضية تمكنه من ممارسة رياضة الجمباز أو العدو أو الملاكمة أو رفع الأثقال. كان حلمهم هو بناء (اليهودي المفتول العضلات) فأسسوا لهذا الغرض منظمات رياضية ونوادي تحمل أسماء تأملية (Hakoach) أو (قوة) أو (مكابي) تمجيداً لأبطال اليهود القدامى الذين تحدوا المحتلين الاغريق قبل حوالي ألفي سنة.

وفوق هذا اشترطت الصهيونية الاولى أن الأمة لن تكون سوية مالم يكون لها

عالمها الإجرامي التحتي فتطلعوا أماماً بتلك العاطفة الرومانسية صوب لحظات اللذة التي ستعم المجتمع اليهودي الحديث فوق أرض إسرائيل عندما يكون له (عاهراته ولصوصه اليهود). أما واقعية المجتمع الإسرائيلي اليوم وضمن هذا السياق فقد تجاوزت حتى تخيلات الآباء الأوائل. وتسع سجون إسرائيل الأربعة عشر لستة آلاف مجرم بعضهم ينتسب لأبشع صنف بشري وحشي وبمقدوره أن يتبوأ أعلى مقام بين عوائل إجرام نيويورك المنظمة. وارتفع عدد زوار السجون الإسرائيلية من اليهود في العقد الأخير الى الضعف كما أن القانون الإسرائيلي يمنع الدعارة بيد أن العاهرات يجبن كل مدينة ولم يبق من صناعة الجنس شيء لم يدخل إسرائيل.

دخل السرور قلب هرتزل بعد مؤتمر الصهيونية عام ١٨٩٧ وكتب في مذكراته أنهم لو طلبوا إليه أن يصف المؤتمر بعبارة موجزة لقال: «لقد أسست دولة اليهود في بازل».

ويتجلى أمامنا بون واسع بين دولة اليهود كما أرادوها بالأمس وبين حالها اليوم. لقد أسهب هرتزل عام ١٩٠٢ في وصفه في كتابه (الأرض القديمة الجديدة) (Altenuland) والمسمى في اللغة العبرية باسم (تل أبيب Tel Aviv) الذي يعني (تل الربيع). فكلمة (تل) تشير كما وردت هكذا في التوراة الى طبقات الأرض القديمة التي انطمرت فيها المدن القديمة وتحتل كلمة (الربيع) رمزاً للأمل بمستقبل مشرق وأرض جديدة.

إن دولة اليهود التي تخيلها هرتزل هي دولة العامة والحرية والتحرر من الاكليروسية وفيها ينفصل الدين تماماً عن الدولة. أما واقع دولة إسرائيل الحديثة فهو برغم هذا واقع مختلف تماماً. وربما تغص إسرائيل أكثر من أي بلد اوربي غربي آخر بالجماعات والأحزاب الدينية والاكليروسية التي يمتد تأثيرها على كل مجريات الحياة اليومية في البلاد. كان حلم هرتزل أن تحدد تجمعات الإصلاح طريقة الممارسات

الدينية غير أن المؤسسات الدينية في إسرائيل تحكمها بيد من حديد الطائفة الارثوذكسية التي رفضت بعناد أن تمنح تفويضاً لأي تجمع آخر بضمنها جماعات الإصلاح. كان ذروة الهدف الديني الذي أراد هرتزل تحقيقه هو بناء كنيسة جديدة لن يكون موقعها في (جبل الكنيسة) في القدس الذي تشغله من قبل الجوامع الإسلامية. ومع ذلك نجد في إسرائيل اليوم كثير من الجماعات الراديكالية والمتعصبة التي جاهدت لنسف كل هذه الجوامع لفسح المجال أمام بناء المعبد اليهودي الثالث.

كتب هرتزل يقول: «ستتميز دولة اليهود بقدرتها على التحمل وبالتوافق بين جميع طوائفها الدينية» ليصف بهذه الروحية مأدبة عيد الفصح الذي ستحضر احتفالاته جميع الجماعات الدينية داخل الأمة. بيد أن التناحرات الدينية ولسوء الطالع ما برحت قائمة في إسرائيل اليوم ولا أرى أي توافق بين طوائفها الدينية سواء أكانت يهودية أو مسيحية أو مسلمة ويكفي أن أقول ان شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩٠ شهد أكبر مواجهة دموية بين الشرطة الإسرائيلية والشباب المسلمين حول مسألة من سيضع يده على (جبل الكنيسة) راح ضحيتها تسعة عشر من المصلين المسلمين قتلوا بعد أن أنهوا صلاة الجمعة وجرح ما يزيد على مائة شخص. هذه الأحداث التي سببها سوء الفهم المتبادل والمتسببة هي في عدم ثقة متواصل إنما هي ذكرى مأساوية أخرى لافتقار إسرائيل اليوم لقدرة التحمل.

أيقن هرتزل أيضاً أن غالبية شعب اليهود سيهاجر ليستقر في دولته بيد أنه يفضل في واقع الحال العيش خارجها وتقدم الولايات المتحدة مثالاً حياً لهذا الأمر. إذ يقطن فيها قرابة خمسة ملايين ونصف مليون يهودي وهو عدد يفوق عدد سكان دولة إسرائيل وتعج نيويورك بثلاثة ملايين يهودي ليشكلوا بهذا الرقم نسبة تفوق نسبة وجودهم في تل أبيب أو القدس. ولم يتطرق هرتزل في كتابه (الأرض القديمة الجديدة) الى اللغة العبرية فلغة الحياة اليومية هي (اليدية) مع بعض الحروف الألمانية.

تقترن هذه اللغة لمعظم الصهاينة بأحيائهم القديمة (الغيتو) التي يسعون جاهدين لطي ماضيها وعليه باتت العبرية لغة الصهيونية وان إحياءها مجدداً كان أكثر نجاحات الطموح الصهيوني بريقاً.

هذا الإحياء الجديد للغة العبرية يمثل إنجازاً لا يقل شأناً عن إعادة بعث القومية اليهودية . لقد ظلت العبرية لغة غير منطوقة لحوالي ألف وثمانمائة عام إذا ما استثنينا استخدامها في الصلاة أو في الوقائع المتغيرة الشديدة الارتباط بالسحر . وعند مقارنتها مع اللغتين الإغريقية واللاتينية القديمتين اللتين سادتا لأكثر من ألفي سنة لوجدنا انهما وعلى خلاف العبرية غائبتان عن ساحة الحديث ، واقتصر تعليمهما على المدارس والجامعات والمعاهد اللاهوتية . كانت العبرية وحتى القرن التاسع عشر لغة مطمورة ثم اختارها اليهود بعد أقل من مائة سنة لتكون لغة حديثهم .

ويتكلم العبرية اليوم قراءة وكتابة زهاء أربعة ملايين يهودي إسرائيلي وما يربو على مئات الآلاف من اليهود الموزعين في شتى بقاع العالم ، وغدت لغة الأحلام والحب . ولولا رابطة اللغة المشتركة هذه بين أوائل المستوطنين الإسرائيليين لاستحال تحقيق الحلم بإقامة دولة إسرائيل وإعادة بعث القومية الصهيونية .

لما يزل أمامنا في أقل تقدير عاملا تناقض بين إسرائيل هرتزل وإسرائيل الواقع . وكلاهما يرتبط بعلاقة إسرائيل مع جيرانها العرب وبمشاكلها الأمنية .

لم يحاول هرتزل النظر بجدية لمسألة شعور العرب المحليين حيال المهاجرين والمستوطنين اليهود بل تجلى من خلال برنامجه الأصلي أنه لم يبد اعتباراً لنصف مليون عربي كانوا يسكنون فلسطين كما تجنب في روايته (الارض القديمة الجديدة) مشكلة التعايش العربي - الإسرائيلي بأمله في أن تتحمل دولة إسرائيل اليهود والعرب معا وهكذا وضع بهذا الخط في التفكير حجر الأساس الروحي لطريقة التقارب الصهيوني

حيال جيرانهم العرب في الشرق الأوسط . لقد تجاهلت إسرائيل كأنها نعامة طمرت رأسها في الرمال الواقع المحيط بها ، وساد الإسرائيليون شعور أو أمل عميق ان القضية الفلسطينية ستنتهي بمعجزة ما . وإذا ما سألت معظم الإسرائيلين عن أحلى حلم يتمنوه لكان جوابهم أن يروا إسرائيل تنشل حالها من هيولية الشرق الأوسط ، وحرارة البحر المتوسط ، وأن تقيم نفسها فوق مروج اوربا الغربية الريفية والباردة . ولشاء معظمهم دون أدنى شك وبسبب حالة العداء المستمرة مع جيرانهم العرب الى المتاجرة بحدودهم مع سوريا والأردن ولبنان ومصر بحدود أخرى مع سويسرا أو ايطاليا . لقد أراد هرتزل من مدينته الفاضلة أن تكون دولة يهود غربيين لتعمل كجسر يعزز المصالح الغربية . لقد كان الصهاينة والإسرائيليون وما زالوا سذجاً إن لم يكونوا مسؤولين عن تجاهل وجود جيرانهم العرب .

وهكذا نأى هرتزل بنفسه وكنتيجة لتجاهله الصراع العربي - الإسرائيلي أن تواجه مسألة أمن إسرائيل المستقبلي فهو لم يخصص في صفحات روايته الطوبائية الثمانين إلا سطرين عبرا عن وجهة نظر قاصرة حيال هذا الأمر : «ستحاول دولة إسرائيل أن تحافظ على حيادها وعليه فانها بحاجة الى جيش نظامي صغير الحجم» . أما حقيقة إسرائيل فهي العكس تماماً . فهي ليست حيادية أولاً وانها نصير للغرب عن بكسرة أبيها ، وتحتفظ بجيش كبير يضم المجندين والنظاميين والإحتياط . وأصبحت اليوم (اسبارطة) الشرق الأوسط وهي القوة العسكرية الأقوى في المنطقة . ولو حدث أن أخبر شخص ما هرتزل قبل مائة سنة ان دولته ستكون إحدى أكثر الدول المتقدمة تكنولوجياً لضحك في وجهه كثيراً .

لقد شد هرتزل الرحال بين عواصم العالم في محاولته الاجتماع بكبار قادتها وكسب تأييدهم الدولي لمشروعه ولم يكل له ساعد في الكتابة الى رؤساء الحكومات والرؤساء والملوك والأمراء والكتاب والفنانين فكتب الى مستشار المانيا القومي (اوتفون

بسمارك) الذي وحد المانيا عام ١٨٧٠ والى (فيتوريا ايمانويل) ملك ايطاليا وكذلك الى البابا. وقد نجح في أعقاب التطويق الالماني لكامل اوربا في الالتقاء بـ (وليم الثاني) في القدس في الثاني من تشرين الثاني عام ١٨٩٨ وأيقن أن إمبراطور المانيا سيتدخل بالنيابة عن الحركة الصهيونية لدى سلطات تركيا لدعم فكرته في أن ينال اليهود استقلالهم في فلسطين تحت الحماية الالمانية. بيد أن الفكرة لم ترق لإمبراطور المانيا.

ثم نجح عام ١٩٠١ في أن يلتقي سلطان تركيا (عبدالحميد) وذلك بفضل الرشاوي التي قدمتها المصادر المالية المحدودة لإتحاد المنظمات الصهيونية والذي تم توزيعه بسخاء على البلاد التي يعمها الفساد. قدم هرتزل في هذا اللقاء عرضاً جاء فيه: ستتولى الحركة الصهيونية مهمة ترتيب دعم أثرياء اليهود الإقتصادي لتطوير الإمبراطورية الهرمة مقابل موافقة السلطان بحق اليهود في إقامة دولتهم.

وتتبع اليوم حكومة إسرائيل نفس هذا الاسلوب الدبلوماسي في محاولاتها إقناع قادة دول العالم الثالث إعادة علاقتهم الدبلوماسية مع إسرائيل. وتقدم نيجيريا مثالاً حياً في هذا الجانب. لقد اعترفت علناً في آب عام ١٩٩١ ان قرارها بإعادة العلاقات مع إسرائيل كان الصورة القديمة لأثرياء اليهود. وأعلن قادتها بوضوح وكأنهم قرأوا مذكرات هرتزل (نأمل أن تساعدنا إسرائيل واليهود الذين لهم نفوذ في المؤسسات المالية الدولية على جذب إستثمارات أكثر). لقد وعدت إسرائيل بالتدخل لدى واشنطن لمصلحة نيجيريا وأن تحفز الإستثمار اليهودي للنهوض باقتصاد نيجيريا المتردي. وقد فعلت ما وعدت به إذ يوجد اليوم ما يربو على ألف رجل أعمال يهودي داخل نيجيريا.

عاد هرتزل من تركيا بخفي حنين إذا ما استثنينا دبوس ربطة العنق المصنوع من الماس الذي أهداه إياه السلطان عبد الحميد. فقد وضعت تركيا شروطاً مالية وسياسية صارمتين ضيقت الخناق على هرتزل وأجبرته أن يسحب عرضه.

وبرغم أن مناشدات هرتزل قد رفضها كبار قادة العالم نهاية المطاف فإن مفاهيمه الأساسية ما زالت قائمة في إسرائيل اليوم . كانت وصيته الكبرى ان السبيل الوحيد لبناء دولة اليهود وتطويرها هو باستجماع أكثر من قوة عالمية ، ثم بات هذا الإعتماد على القوى الاجنبية المفهوم المتكرر في التاريخ الصهيوني والإسرائيلي .

وهبت بريطانيا عام ١٩١٧ (وكانت أول دولة) الشعب اليهودي حقهم في إقامة دولتهم المستقلة ثم اعترفت بذلك الحق عصبة الأمم (التي سبقت الأمم المتحدة) ثم أقرت به هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ . لقد حمل الإسرائيليون مفهوم الدعم الأجنبي في جميع حروبهم عدا حرب الإستقلال عام ١٩٤٨ . وتحدد مصير المعارك الإسرائيلية العسكرية من حملة (سيناء) عام ١٩٥٦ الى حرب الخليج عام ١٩٩١ بالرغبة في كسب موافقة ودعم القوى الأجنبية الدبلوماسي ، وترى قادة إسرائيل يغطون في مشاكل عميقة لضمان حصول موافقة القوى الخارجية والصديقة قبل أن يطلقوا رصاصة واحدة سواء أكانت هذه القوى بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٥٧ أو الولايات المتحدة منذ ذلك التاريخ حتى اليوم . إلا أن إسرائيل -إذا ما استثنينا حرب الخليج- لم تطلب قط أن تطأ ترابها أقدام جيش أجنبي ، بل كانت تنشد الدعم المعنوي والإقتصادي والدبلوماسي على مر تاريخها .

توفي هرتزل في الثالث من تموز عام ١٩٠٤ في النمسا (ربما بمرض الزهري) يأسره شعور بخيبة الأمل . لقد توفي وعمره أربع واربعين سنة ، أرهقت المشاكل الشخصية والعائلية والمادية والسياسية السنوات السبع الأخيرة منها ، كما تردت صحته الجسدية والعقلية كثيراً . لقد تصور هرتزل برغم خيبة الأمل التي تلقاها والبون الشاسع بين الحلم والحقيقة بوضوح لم يسبق له مثيل كيفية إقامة دولة إسرائيل . فقد كتب في مقدمة روايته (الارض القديمة الجديدة) يقول : «إذا رغبت بها فلن تكون فائقة الرقة والجمال» . وتبلورت مثلاً على مدى خمسين عاماً كثير من الأمور

التي تصورها، وغدت أفكاره منهلاً للكثيرين من بعده والذين مضوا قدماً في صياغة وبناء وتأطير أمة الصهيونية.

الفصل الثالث

بناء الأمة

بينما وجدت إسرائيل في هرتزل الحالم ورسول السياسة الصهيونية، فإنها قد رأت في بن غوريون مؤسس أركانها. كان صغير الحجم وحازماً، أما خطواته فكانت ماضية وسريعة. لقد جسد روح الدولة الجديدة كما رآه هكذا الإسرائيليون والأجانب على حد سواء.

لقد تعلم بن غوريون الصهيونية في بيت أبيه في بولندا حيث ولد هناك عام ١٨٨٦ باسم (ديفيد كروين). وجاءت نقطة التحول في حياته أثناء الزيارة الى مدينته الصغيرة جالباً معه نظرته لوطن اليهود. كان حينها في الحادية عشرة من عمره فسقط في شراك حب الصهيونية حتى أنه غير اسمه لما بلغ العشرين من عمره الى اسم عبري. ثم تعمقت جذور هذا الحب بعدئذ لتشمل الإشتراكية أيضاً والتي غدت الوسيلة الكبرى لبناء الأمة الصهيونية، بعد أن كانت أثناء مناقشات مؤتمر الصهيونية الأول في بازل - سويسرا - عام ١٨٩٧ مجرد أمر هامشي. وتوسعت الكتلة الإشتراكية لتصبح في غضون عقدين من الزمان الكتلة الأقوى في البلاد، وبات بن غوريون فارسها المقدام. وتحرر معظم قادة الصهيونية الإشتراكيين من أوهام مناهضة السامية التي تحلى بها رفاقهم من غير اليهود. فقرر هذا الإشتراكي اليهودي المزج بين مثاليتهم في العدالة الإجتماعية (توزيع متساو للثروات) وبين الحركة الوطنية لإعادة بعث دولة اليهود. واقترح بعضهم متأثراً بأفكار الطوبائية الإشتراكية والراديكالية الروسية ان الشعب هو من يملك أرض دولة اليهود المستقبلية وأن تقام على هذه الأرض

المجتمعات الصناعية والزراعية. واتكأ بعضهم على التوراة وآمن أن بإستطاعة الإشتراكية الصهيونية أن تستلهم بعضاً من أنبياء اليهود الذين حاربوا الظلم الإجتماعي والفساد كي تسمو بدلاً عنهما المبادىء الروحية والأخلاقية.

لقد وصل رواد الصهيونية الى فلسطين وفي جعبتهم معظم هذه الأفكار الإشتراكية فالجماعات القومية اليهودية كانت قد انتشرت في رحاب الإمبراطورية الروسية حتى قبل أن يرى هرتزل أضواء الصهيونية. وبينما شرع معظم اليهود في التفكير بالهجرة الى أمريكا أو اوروبا الغربية، أيقنت هذه الجماعات أن الهجرة الى هذه الأماكن لا تمثل إلا حلاً محتملاً لمشاكل فردية، فقد واجه الفرد اليهودي مسألة العداء ومناهضة السامية حتى في المانيا وفرنسا وأمريكا وبريطانيا التي شهدت مرحلة التحرر الرسمي وحيث نال فيها قسطاً من حقوقه وحرياته وعليه أصرت هذه التجمعات على وجوب وضع مسألة الظلم ضد اليهودية في إطار الحل الشامل كعلاج شاف لا بديل عنه. هذا الدواء هو فلسطين أو كما أحبوا أن ينادوها بجبل صهيون. وبناءً على هذا الأمر أطلقت هذه التجمعات على نفسها اسم (عشاق جبل صهيون) وكان معظمها عبارة عن منظمات صغيرة الحجم تطوع لإنشاءها جمع من الشباب والطلاب المتحمسين بيد أن عضوية الإنتساب اليها شملت كل شرائح اليهود الدينية وغير الدينية، الأغنياء والفقراء، الأميين والمثقفين.

شرعت في الثلاثين من حزيران عام ١٨٨٢ مجموعة تتألف من أربعة عشر شابا بينهم شابة واحدة رحلتها صوب إسرائيل عبر البحر على ظهر قارب صغير مصنوع عبروا به البحر الاسود حتى وصلوا (اسطنبول) عاصمة الامبراطورية العثمانية التركية، ومن هناك عبروا البحر المتوسط الى ميناء يافا (Jaffa) في فلسطين (إسرائيل). كانت هذه الهجرة مقدمة لفصل الإستيطان الحديث في فلسطين وهي تسمى باللغة العبرية (Alyah Rishona) أو الهجرة الأولى وباتت منذ ذلك الحين

نقطة الرجوع عند إحصاء موجات الهجرة اليهودية المتعاقبة .

أطلقت العبرية على هذه المجموعة من المهاجرين الاوائل اسم (Halutism) أو (الرواد) وكن لهم الصهاينة إعجاباً كبيراً وقلدوهم منزلة سامية منهم كما يظن بهم اليهود حجر الأساس الذي نشأت عليه دولة اليهود ، وجعلت منهم كتب التاريخ الإسرائيلي وبفضل حملات دعائية أجزلوا فيها رشوة للآخرين أبطالاً ذوي منازل اسطورية كما أطلقوا على الشوارع والمستوطنات جميعها مسميات تحمل اسماءهم ومجد لهم الشعراء والكتاب كثيراً وترددت اسماؤهم على ألسنة طلاب المدارس وفي رياض الأطفال كنموذج يستحق الثناء .

لقد تعلمت في المدرسة كم هي قاحلة وجرداء تلك البلاد التي حط بها أول الرواد رحالهم ، وكنا نصدق كل ما نسمع حتى أدركت اليوم أن هذا مجرد محاولة تلقين الصهيونية بمثل هذه المبادىء وليست سرداً أميناً لحقائق التاريخ . فأقدام المهاجرين اليهود لم تطأ أرضاً جرداء فقد استوطنها العرب منذ قرون عديدة خلت .

فقد تجاوز عدد سكان فلسطين مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر النصف مليون نسمة بلغت منه نسبة العرب الذين استقروا في قرى صغيرة وعاشوا على زراعة أرضهم حوالي ٩٥٪ وشكل اليهود الذين عملوا مزارعين لدى مالكي الأراضي العرب النسبة المتبقية البالغة ٥٪ فقط .

عامل العرب برباطة جأش المجموعة الأولى التي وصلت من اليهود وهو ما زرع فيهم شعور الغربة مجدداً وبأنهم سياح اوروبيون غرباء . وتقول الحقيقة ان من أجج التناحر والعداء وولد حالة الشكوكية المتبادلة هو -ويا للسخرية - تلك المواجهة التي حدثت بين هؤلاء الرواد الجدد و (إخوانهم) الذين هم مجموعة صغيرة من اليهود الارثوذكس عاشوا في هذه الارض منذ قرون عديدة مضت .

وليس من العسير أن تتلمس ذلك الشعور الذي خالج الرواد الأوائل بعد وصولهم عام ١٨٨٢ متفائلين مبتهجين ثم يصدمهم ذلك الواقع الخشن لفلسطين. فعلى الجانب الأول يقف العرب الذين وصفهم الرواد بـ (الشرقيين) وجسدوا فيهم صورة التخلف والتعصب والخداع. وهناك أيضاً الفظاظة والغرابة والروائح النتنة التي تحل بها سوق (يافا) بجانب المراهنة وممارسات التجارة البالية، التي تعتمد على الليونة والمفهوم المتشابك لمصطلح الوقت (غداً)، الذي قد يعني (اليوم التالي أو الأسبوع التالي)، كما تحمل كلمة (نعم) معنىً غامضاً أيضاً يتراوح بين (من المحتمل) و (لا). ويقف على الجانب الآخر اليهود المتدينون المحليون القدامى. لقد أعاد هؤلاء الى ذاكرة الرواد شريط حياة الجور التي هجروها تواً وأضحوا الصورة المستنسخة لعوائلهم في أحياء اوربا الشرقية.

لقد شد هؤلاء الرواد عزمهم صوب فلسطين يحدوهم هدفهم ببناء المجتمع الجديد الذي سيمنح الشعب اليهودي بيئة إجتماعية جديدة، وكان هدفهم بناء مجتمع يستند على البناء الهندسي للأهرام. فقد تألف البناء الإقتصادي الإجتماعي لمجتمعات اليهود الديسبورة من التجار والمرابين والباعة المتجولين والسماسرة ومن يعيش على الصدقة وحتى من المتسولين المفلسين. هذا الجمع من الناس وكما صوره الرواد بالإستناد الى مفهوم البناء الهرمي لا يعدو أن يكون بالطفيليين والـ (المستهلكين) بينما يقف على قمة الهرم اليهودي المنتجين والأساتذة والصناعيين وحتى المزارعين. وهنا قرر رواد أرض إسرائيل ومن ساعدهم من الصهاينة الذين عادوا الى وطنهم تغيير بنية الهرم اليهودي وأرادوا بعد أن ظنوا بأنفسهم الطليعة الإجتماعية ان يخلقوا مثالاً ستحتذي به جميع الجماعات الصهيونية لاحقاً، وكانوا تواقين أن يكون واحدهم النقيض الكامل لليهودي القديم المحلي.

لم يأخذ الرواد إلا قليلاً من الوقت ليتكيفوا مع ظروف الحياة الجديدة القاسية،

وانتشر معظم المستوطنين اليهود في عرض البلاد وطولها بحثاً عن فرص عمل وعملوا في أحايين كثيرة كعمال تنقصهم المهارة في مدرسة زراعية أنشأها مؤخراً إتحاد خيري فرنسي. بيد أنهم سرعان ما أدركوا مشقة العيش هكذا. فعمل الزراعة شاق لا سيما في فصل الصيف حيث تلهب الشمس الأرض بحرارتها ثم ان معظمهم طلاب لا يقوون حالاً أو تقبلاً لهذا العمل الوضيع، فتشاجروا مع جيرانهم العرب وأكثر منهم مع اليهود الآخرين الذين ظنوا في هؤلاء القادمين الجدد -لأنهم غير متدينين- بالشيء البغيض المزعج. لقد أيد الرواد الإنفصال عن عائلة بطريرك الزواج الأحادي ووعظوا بالعدالة الإجتماعية بروحية الإشتراكية التي تشربت فيهم في مدن روسيا الأم.

مكثت المجموعة الأولى من المهاجرين الروس زهاء العامين ونصف العام قبل أن تنحل تماماً، فعاد بعضهم أدراجه الى وطنه ودياره والتحق البعض الآخر بمجاميع أخرى من الرواد. ويتعلم أطفال إسرائيل اليوم في مدارسهم الكثير عن شجاعة وحماس هؤلاء الرواد (المهاجرين الأوائل) وعن معاناتهم واستعدادهم للتضحية. بيد أن التاريخ لم يذكر الا نادراً ان غالبية هؤلاء المهاجرين الاوائل منهم واللاحقين قد هزمتهم الصعاب وأعادوا الاعتاب وتناثروا بين من عاد من حيث أتى ومن آثر الذهاب الى مكان غير الذي جاء منه كان لغالبيتهم هو الولايات المتحدة، ومع هذا تعاقبت موجات وصول الرواد المهاجرين لتدعم كثيراً الحركة الصهيونية في بناء مزارع جديدة أكثر في فلسطين.

إن تأجير المستوطنات الصهيونية المستند على المساعدة الخيرية والمفتقر للدعم الكبير أو الأساس السليم قد شكل أكثر المخاوف سوءاً لكاتب متميز اسمه (احد حاعام) المولود في روسيا باسم (اشير تستبرغ). فقد تم اختياره عامي ١٨٨٩ و ١٨٩٣ لأن يكتب كشاهد عيان سرداً عن ظروف المستوطنين فأطلق على تقاريره اسم

(حقائق من أرض إسرائيل) ووقع عليها باسم مستعار (احد حاخام) يهودي (من هذا الشعب).

لقد عصرت هذا الكاتب حالات (الكسل واللامبالاة والخديعة والهذالة وضياع الكرامة التي تتشرب في أعماق كل المستوطنات)، وهنا كتب احد حاخام ان الجماعات الصهيونية لم تعد متحمسة للهجرة وانها وإن فعلت هذا فلن تجد لها حيزاً في أرض إسرائيل وأضاف ان على الصهيونية أن تنهج سبيلاً آخر لا يلتقي مع سابقه في نقطة ما ألا وهو أن تستثمر الصهيونية طاقات اليهود ومصادرهم لتحقيق منجزات ذهنية وروحية بدلاً من الإنجازات المادية وأن تشرع بادىء ذي بدأ في بناء المدارس والجامعات ومؤسسات التعليم بدلاً من المستوطنات والمزارع.

نجم عن هذا الرأي جدلاً ساخناً بين قادة الصهيونية واليهودية وتساءلوا أي شكل ومنحى ذاك الذي يتحتم على الحركة الحديثة العهد أن تنهجه لإعادة بعث الأمة اليهودية؟ أيتوجب علينا أن نكتفي باستقلال ثقافي ضيق النطاق كالذي نصح به (احد حاخام)؟ أو أن نتعقب الهدف الاشمل صوب إستقلال كامل عن طريق الإستيطان الفعلي كالذي نصح به محبو جبل صهيون؟.

هذا هو النقاش القديم والأكثر تردداً بين يهود الديسبورة وبين قادة إسرائيل فقد أعادت في بداية عام ١٩٧٤ إفتراضات كل من (الإستقلاليين) و (الذرائعيين) الى الأذهان صدى المناقشة التي جرت بين وزير الخارجية الأمريكي آنذاك (هنري كيسنجر) والملحق العسكري الإسرائيلي لدى واشنطن (بول بن بورات) التي ظن فيها كيسنجر بنفسه باعتباره يهودياً لاجئاً واستاذاً في جامعة هارفرد ممثلاً لموروث العقلية اليهودية. لقد رأى كيسنجر في الرجل الإسرائيلي العام تجسيداً لما جلبته الحركة الصهيونية للثقافة اليهودية وهنا سأل: بأي شيء ساهمت إسرائيل في الحضارة؟ أهم المزارعون والجنود؟ وما الذي قدمتموه لقيمنا القديمة؟ وهنا صعقت هذه التساؤلات

بن بارون فتجربة معارك إسرائيل الدموية المرعبة مع سوريا ومصر في حرب ١٩٧٣ ما زالت تحفر في ذاكرته حتى جعلت منه كباقي معظم الإسرائيليين يؤمن بحتمية الجنود والمزارعين لبقاء إسرائيل وبشكل غير مباشر لديمومة الشعب اليهودي. ثم أدرك بعد حين أن هذه المناقشة مع كيسنجر هي انعكاس غير مقصود للحوار القديم المعهد بين منهج احد حاخام في التعليم وبين مسار الصهيونية الرئيس آنذاك.

إستضاف الكنيست الإسرائيلي في مارس عام ١٩٩١ عازف الكمان الموهوب (يهودي مناص) الذي عبر عن قلقه حيال عدم الإكتراث الإسرائيلي للعقلية اليهودية وأضاف يقول: أن التعنت السياسي الإسرائيلي وعدم الرغبة نحو تقديم تنازلات للفلسطينيين سيطمس أكثر من قيم اليهودية التي ساعدت كثيراً مع أخلاقياتها في صنع مفكرين أمثال (كارل ماركس) و (فرويد) و (البرت آينشتاين) بالإضافة الى أفضل لاعبي الشطرنج وألمع الموسيقيين ومن فاز بجائزة نوبل.

لقد تنبأ احد حاخام بهذه التطورات الخطيرة قبل عقد من الزمان مضى عندما نفس عن مخاوفه بقوله ان الحركة الصهيونية ربما ستحيد عن طريقها المنشود بيد أن جدالاته افتقرت الى (الذرائعية) التي اختطها مجرى الحركة الصهيونية الرئيس. فإذا ما أوشك مشروع الإستيطان على الإنهيار هبت الإتحادات الخيرية اليهودية لتحقن عروق المستوطنات بدماء مادية جديدة فالأرض قد إبتاعوها من مالكيها العرب وبنى اليهود في غضون عشرين عام بعد الهجرة الاولى عشرين مزرعة وتجمعات ريفية خاصتين بهم.

واليوم ونحن على خطوات من ولوج الألف الثاني بعد الميلاد تحتفل العديد من المستوطنات بالذكرى المائة لتأسيسها وتقدم كثير من المستوطنات القديمة النموذج المثالي للنجاح الإسرائيلي فقد إزدهر معظمها ليصبح مدناً تابعة لتل أبيب وبعضها لم يزل يحتفظ ببعض خصائصه القديمة مثل الحقول الواقعة في ضواحي المستوطنات

والتي يزرعها القلة المتعلقين بالأرض. إلا أن هذا لا يعني أنها بقيت مجتمعات ريفية بل هي إزدهرت بأسواق التبضع التجارية والبنايات الرسمية والمجمعات الصناعية وحتى المراكز والمؤسسات العلمية والتقنية.

كما تم تشييد العقارات الشاهقة ولم يبق سوى بعض المقاطعات الصغيرة والبيوت التي تسع عائلة واحدة والتي قد تذكر الزوار بالمدينة الأصلية. ومن المؤكد أن هذه البيوت قد تغيرت واجهاتها كثيراً عما كانت عليه فتحولت من مزارع وسقائف وضيعة للسكن الى فلل فاخرة وقصور مخيفة.

تمثل الطبقة الإسرائيلية المتوسطة الميسورة الحال اليوم غالبية سكان هذه المستوطنات وهم في أغلبهم الجيل الثاني من السفارديم الشرقيين أي أنهم أبناء وبنات المهاجرين الذين حققوا حلم إسرائيل الجديد. وباتوا يمتهنون حرفاً ويدخرون مالاً ويقتنون ملابس من محلات أزياء فاخرة وينال أطفالهم قسطاً طيباً من التعليم وظلوا رابضين في مستعمراتهم القديمة التي استحالت مدناً اليوم ليس لأسباب تاريخية أو من باب الحنين الى الوطن بل لإعتبارات مادية لا غيرها.

بغضت مجموعة الرواد التي ضمت بين أعضائها بن غوريون مدينة يافا بغضاً شديداً حتى غادروها في نفس المساء الذي وصلوها فيه الى مستعمرة يهودية مجاورة، وهنا وجد بن غوريون كسائر الآخرين عناءً في الحصول على فرصة عمل وأخذ يجوب المستوطنة بعد الأخرى لهذا الغرض حتى استقر به الحال أخيراً مزارعاً في الخليل. ومن هناك إنطلقت أولى مفاهيمه الرومانسية عن العمل اليدوي وزراعة الأرض اللتين تفوق طعم مشقتهما في صراعه من أجل البقاء. ثم بزغ نجمه سريعاً في الكتابة والخطابة العاطفية والنشاط السياسي.

إن أول وأكبر تعبير رمزي حضره هو ونظراته بعد وصولهم فلسطين هو تغيير

أسمائهم الى أسماء عبرية ليعيدوا بهذه التسمية الجديدة ماحدث في زمن مضى حين غير أجدادهم أسماؤهم بعد هجرتهم الى وسط وشرق اوربا . فقد تبنى يهود اوربا الشرقيين مكرهين تحت ضغط الموظفين المحليين الجهلة أسماء جديدة لعائلاتهم اشتق بعضها من مكان ولادتهم أو من الأحجار الثمينة أو الـزهـور أو الحرف التي يمتهنـون بل ان بعضهم قبل ليبدل بها أسماء وضيعة ومزرية مثل (Schmaltz) التي تعني (الصوف أو الشحم) و (Eselkopf) التي تعني (رأس الحمار) . وأطلقـوا في أحايين كثيرة على العائلات اليهودية أسماء مشتقة من أوصاف بسيطة أو عـلامات فارقة وبالطريقة التي يراها موظف الهجرة الأعلى مكانه منهم مثل : -

(كروس Gross) التـي تعنـي (كبير) و (كلين Klein) التـي تعنـي (صغير) و (شيفارت Schwart) وتعني أسود و (ويش Weiss) وتعني (أبيض) . أما اليوم فقد أمسى أحفادهم أسياداً لأسمائهم وليقلبوا صفحة التاريخ غير العادل في مسعاهم عبور الفي سنة من التاريخ القاسي . رأى هذا الجمـع من الرواد بأنفسهم أحفاد الآن لرموز التوراة واستلهمـوا تلاميحهم من رسومـات شعب التوراة وأحداثه فلبسـوا الصندل وارتدوا رداءات طويلة وقمصان بلا ياقة وهو تقليد إقترب في حقيقة الأمر الى الملابس التي كان يرتديها الثوار الروس من أن يكـون رداء قدماء اليهود . لقد تبنى المهاجرون مضمـوناً رومانسياً للبطـولة وتحدثوا عن حروب (الاكابيين) المنسوبة كـرمز للاحيائية اليهوديـة الجديدة . كانت نجواهـم بكاءاً على الماضي ، وأسطورية ، وكـانت تفتقر الى المنطق البتة فاختاروا أسماء جديدة جد رمزية منها (اون On) التي تعني (قوة) و (اوز Oz) التي تعني شجاعـة و (بن غوريون Ben Gurion) ويعني (شبل الأسـد) بينما فضل البعض الآخر ترجمة أكثر أدبيـة الى أسمائهم القديمة فتحول اسم (ستين Stein) مثلاً الى (Avni) ويعني (حجـرة) و (Silverstein) الى (Kaspi) ويعني (حجر الفضة) وتحول اسم (Rosen) الى (Shoshani) ويعني (وردة) .

غير أنهم كانوا وفي مواضع أخرى غير الرومانسية عقيديين وإشتراكيين متحمسين فقد رفعت المستوطنات الصهيونية الأعلام الحمر في الأول من ايار يوم العمال العالمي واختتموا الإجتماعات الإشتراكية بـ (الدولية) وهي تشيد حركة العمال الدولية . كان واحدهم يتراءى ظاهريا كأنه الاشتراكي المتكامل إلا أن بن غوريون وأتباعه أضافوا الى الإشتراكية فرعاً خاصاً من المسيحية اليهودية فهو قد أدرك أكثر من غيره ان الصهيونية السياسية لن تنال مكسباً دون الدعم العملي ، وبهذه النظرة للأمور إحتل الشعب وطنه بافعاله بأن أقام الحقائق .

إنتقل توكيد الصهيونية مع مطلع العشرينات من هذا القرن تدريجيا من إعتماد هرتزل على الدبلوماسية الدولية الى عقيدية (برغماتية) بن غوريون فأنشأت وفق هذه المنهجية مزيداً من المستوطنات والمستعمرات وحفزت الهجرة وأقامت مؤسسات إقتصادية إحتلت (الهجرة الى) الأولوية الأولى لتأتي بما تستطيع من اليهود الى الأرض ولتجعل من الأقلية المهملة كياناً له حيزه . وقد اجتاح الصهاينة الأرض ليقيموا عليها مجتمعاً زراعياً ولينقلوا الشعب اليهودي من مجتمع تجار الى آخر منتج وكان السبيل لتحقيق هذه الغاية هو شراء قطع أراض من مالكيها العرب واطلقت (صهاينة الهجرة الثانية) الذين تعاطوا ما أسماه الآخرون بـ (أعمال شراء الاراضي) على هذه الغاية اسم (إسترداد الأرض) وكان صنيعاً ما انفك صهاينة اليوم يكنونه بالفعل الحاسم والنبيل .

إن إستيعابنا لبعض من الميثولوجيا (الاسطورية) الصهيونية سيمهد السبيل لنا أمام فهم حقيقة لم ترفض حكومات إسرائيل المتعاقبة منذ عام ١٩٦٧ التخلي عن المناطق التي احتلتها في الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان . فنحن نعلم ان قضية الإرتباط بالارض ليس مفهوماً أوجدته الصهيونية بل ان لكل حركة قومية معنىً مقدساً للأرض وهو بالنسبة للصهيونية ان الأرض يجب أن تنتزع وأن تتمسك بها ولا تتخلى عنها فهي رمز الوجود والحياة القومية .

ويتحدث منهاج التاريخ في المدارس الإسرائيلية كيف (أعتق) هؤلاء الرواد هذه التربة القاحلة الزراعية الأصل من مستنقعاتها الموبوءة بالحشرات التي أصابت عدد منهم بالملاريا وماتوا مبكرين. ثم زرعوا حبوب أشجار الكاليبتوز التي استوردوها من استراليا لغرض تجفيف هذه المستنقعات على أساس أن هذه الأشجار عميقة الجذور في الأرض ومعروفة بامتصاصها للمياه. لقد صورت هذه الكتب الرواد بـ (الرجال الخوارق) بيد أنها تجاهلت الجانب القبيح في عملية إكتساب الأرض. فهؤلاء الصهاينة قد أقنعوا بالرشوة مالكي الأراضي لبيع ممتلكاتهم، وأولئك من نسميهم بـ (محرري) الأرض لم يكونوا أفضل من سماسرة ممتلكات فاحشين ودجالين بشعين وخدعوا ليس العرب الذين ابتاعوا الأرض منهم فحسب وإنما حتى اخوانهم من اليهود الذين سبقوهم في الشراء وترى السماسرة مثلهم كمثل المضاربين في إزدهار أراضي فلوريدا المشبوهين عام ١٩٢٥ قد باعوا أرضاً ليست ملكهم أو رفعوا من أسعارها وانها أرض مستنقعات لا طائلة منها.

وقد لجأت الحكومات الإسرائيلية التي استعمرت المناطق المحتلة الى ذات المنهجية، الرشاوي والخديعة وإخافة العرب المالكين وهكذا هي اليوم كما كانت بالأمس في عيون أغلب الصهاينة: الغاية تبرر الوسيلة.

إحتل التنظيم في صهيونية بن غوريون البراغماتية مكانةً لا تقل أهمية عن مفهومي الإستيطان والهجرة، وطرق بن غوريون وصحبة متأثرين بالبلاشفة الروس باب المركزية والتنظيم في كل جوانب الحياة اليهودية في فلسطين فالثقافة السياسية الروسية بشكل عام والثقافة البلشفية بشكل خاص قد أطرتا نظرتهم للعالم وكذلك مواقفهم السياسية.

لقد أراد بن غوريون ومؤيدوه أن تلم الراية شعث المجتمع الإسرائيلي ليستنفر بعدها لبناء الأمة من ركامها، وهم أرادوا هذا وصراعهم القومي مع العرب لما يزل

قائماً. وفي خضم هذه المجريات أقاموا منظمات تشربت في دواخل المجتمع الإسرائيلي بأسره وغدت بعدئذ الركن الأساسي للتدخل البيروقراطي في حياة الفرد الإسرائيلي وتلك هي جوانب إشتراكية بن غوريون التي مازالت تنهش داخل أعماق أغلب الإسرائيليين. وانك لترى الوطن الإسرائيلي بسبب تعقيدات واضطهادات هذه البيروقراطية مثقلاً بأعباء قائمة طويلة من الإجراءات الصارمة. فهو لا يستطيع كباقي أعضاء المجتمع الغربي الديموقراطي أن يسافر خارج البلاد بمجرد حصوله على جواز سفر. إذ يتطلب منه دفع ضريبة سفر وحصوله على موافقة وحدته العسكرية وأن يملأ ما لا يقل عن ست استمارات معلومات مختلفة. وعسير عليك في إسرائيل أن تنجز عملاً يخصك بواسطة الهاتف حتى وإن تطلب الأمر معلومات جد بسيطة مثل تحديد الوقت أو تأكيد معلومة ما. وإذا ما اتصلت بأي موظف حكومي (إن حالفك الحظ وتكلمت اليه لأن الخطوط دوماً مشغولة أو أن الموظف المسؤول قد غادر تواً مكتبه) لأجابك أن تحضر شخصياً. أما العبارة الأكثر تردداً في موقف خاسر كهذا فهي(Telech -Tavo) أي (إذهب - تعال).

إن الفارق الكبير بين الولايات المتحدة وإسرائيل وقد تعلق الأمر بإجراءات السلطات المحلية في التعامل هو أن الولايات المتحدة لا تفرق بين حضورك شخصياً أو إتصالك بالهاتف أما إسرائيل فتولي للحضور الشخصي أهمية خاصة لأنك قد تشكل ضغطاً على الموظف المسؤول بنقاشك أو اسلوبك أو دقة حديثك فيوظف القوانين لصالحك.

إن نظام المركزية الذي تتدخل بموجبه الدولة في شؤون حياة الفرد قد أوجدوه في إسرائيل بالإعتماد على النظام السوفيتي فيما إلتزم الغرب كثيراً في القرن العشرين بحرية الفرد وعمله بقيت روسيا محافظة على نظرتها الجماعية الصارمة التي تسمح للسلطات بالتدخل أنى شاءت في حياة العامة والخاصة وهكذا نقل مؤسسوا إسرائيل

الإشتراكية هذا المفهوم الجماعي الى إسرائيل .

أسست حركة بن غوريون العاملة عام ١٩٢٠ منظمة ربما كانت الأهم بين المنظمات اليهودية ألا وهي ال (هيستدروت Histadrut) أو (الإتحاد العام لعمال أرض إسرائيل) . كانت الهيستدروت في بعض جوانبها إتحاداً عاماً للنقابات العمالية وقد استندت الفكرة على تاريخ النقابة العمالية الاوروبية، لتنظيم العمل وخلق فيلق عمال، (كما يقول المقطع الشعري من (الدولية)) . لقد أراد بن غوريون وزملاؤه بتأسيسهم الهيستدروت حماية العمال اليهود الذين كانوا في تنافس مع القوى العاملة العربية وهي حالة تسببت في خلق كثير من الصعوبات أمامهم لإيجاد فرص عمل . أما العرب فكانوا أكثر تقارباً للعمل مع اليهود وهم يعملون بسعر أقل ومبالين أكثر للمساعدة وأفضل مهارة .

إلا أن الهيستدروت لم تكن مجرد إتحاد للنقابات العمالية فحسب بل ان قادتها أدركوا ان من بين مهامها الإعتراف بالإشتراكية الماركسية : على البروليتاري (من طبقة العمال) أن يكون مالكاً لوسائل الإنتاج . وهكذا افتتحت الهيستدروت لحسابها الخاص وشغلت المصانع والشركات التجارية وشركات الشحن والمصارف وشركات التأمين وعيادات الرعاية الصحية ومؤسسات البناء ومنازل لكبار السن والصحف وحتى خدمات الحماية التي تؤمن الحماية الشخصية للافراد وافتتحت كذلك رياض الاطفال والمدارس والجامعات . وعلم الأباء انهم اذا ما أرسلوا أبناءهم لمدارس الهيستدروت والحركة العمالية إنما يتخذون قراراً خطيراً فهم قد صهروا بنية أبناءهم في قالب سياسي . لقد تلقن أطفال إسرائيل في عصر مبكر أفكار حزب سياسي معين .

ينبغي القول هنا ان هدف الهيستدروت أول الأمر كان شرعياً . فهي قد ساهمت من الناحية العملية كثيراً في تطوير ونمو المجتمع اليهودي إقتصاديا وبالتالي تطوير دولة إسرائيل ومنحت الشعب شعوراً عميقاً بالإستقرار والأمان الإجتماعي ولم تخل

من وجودها ساحة جاءتها لتقدم العون لأفرادها من المهد الى اللحد فرد لها أعضاؤها صنيعها هـذا بالوفاء والطـاعة، بيد أن ثمن هذا كـان غالياً. لقد حصلت المحسوبية السياسية بفضل الهيستدروت على موطيء قدم لها، يستطيع الأعضاء الموالون الإعتماد على أعمال تقع تحت مظلة نظام أطلقوا عليه تسمية (Proteksia) التي تعني في اللغة اليدية (الحماية) ثم ضمنتها اللغة العبرية معنى آخر بديل هو (المحسوبية أو المحاباة). ويتمتع في إسرائيل اليـوم ذوي القربى والسلطـة بإمتيـازات عديـدة حتى أمست لهذه الممارسة جـذوراً في الإستنبات اليومي لـدولة إسرائيل ويكفي أن أقـول هنا على سبيل الـذكـر لا الحصر ان عليك الإنتظـار بين ستين الى خمس سنـوات لتحصل على خط هاتف من شركـة الهواتف، فإذا ما كنت على صلـة بشخص مؤثر داخل هـذه الشركة لاختصر لك طريق التأخير هذا كثيراً، وقد يتطلب منك الأمر الإنتظار مدة سنة كاملة لإجراء عملية فتح القلب ولو كنت على معرفة بالطبيب الجراح لأجرى لك العملية في الحال.

هذه الجماعيـة التي فرضتها الهستـدروت والحكومات العماليـة والتي جعلت منها علاماتها التكافلية أنظمة قوية ومتلازمة قد عبدت الطريق أمام تسييس هائل للمجتمع الإسرائيلي. فلم يبق جـانب مـن الحيـاة الإسرائيليـة لم تتسرب اليـه السيـاسـة وحتى النوادي الـرياضيـة التحقت بالسيـاسـة وحملت أسماء سيـاسية مثل (Hapoel) وهي الكلمة العبريـة لـ (عـامل) و (المكابي Maccabee) نسبة الى السـلالة الحاكمـة التي حملت السـلاح ضد المحتلين الإغـريق و (Beytar) تيمناً بـاسم أحد أبطـال الليكود وآخر الحصون اليهودية في ثورتها ضد الرومان.

لقد تسللت السيـاسة الى مبـاريـات كرة القـدم ويرتبط مدراء النـوادي الريـاضية بروابط قويـة مع أولياء أمورهم من رجال السياسـة المحترمين، وبرغم أن لاعبي كرة القـدم لاتربطهم والسيـاسة صلـة ما فهم يلعبـون من أجل المال إلا أن المباراة نفسهـا

عبارة عن حدث سياسي حتى لتراني كل مرة أذهب فيها لمباراة كرة قدم (انني مازلت أشجع فريق عمال تل أبيب لاسباب عاطفية) أفقد صوابي من صيحات البغض السياسي ويتلقى لاعبو فريق العمال لمجرد دخولهم أرض الملعب وابلاً من الشتائم بضمنها صيحات (الحمر) و (الشيوعيين) وكأنهم عملاء للهستدروت أو حزب العمال وهذه المباريات توحي برغم ان لمعظم العامة الإسرائيلين مفهوماً مبهماً للتاريخ ان الزمان لم يبارح عجلته منذ المناوشات السياسية القديمة بين بن غوريون وخصومه اليهود من الجناح اليميني.

حاولت الهستدروت منذ أول نشأتها أن تنتهز أية فرصة سياسية حيثما استطاعت اليها سبيلا فتراها تنقل أعضاءها بالحافلات الى المظاهرات والإضرابات وتوجب على منتسبي الحزب شراء ملابسهم من محلات الهستدروت وأن عليهم الإشتراك شاءوا أم أبوا بصحيفة الهستدروت اليومية (دافار) والتي يرغب معظم العمال الإسرائيلين تسميتها بازدراء بـ (بارافادا) نسبة الى صحيفة برافدا الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفيتي.

لقد خضت بنفسي قبل بضع سنوات خلت تجربة نظام العمل المفروض هذا وكيف تغزو يد الهستدروت الطويلة خصوصية أعضائها. فبعد أن عملت مراسلاً دبلوماسياً لصحيفة دافار أجبرتني إدارة تحرير الجريدة على أن أفتح حساباً مصرفياً خاصاً بي في مصرف تملكه الهستدروت فهذا هو السبيل الوحيد الذي سأتلقى بموجبه راتبي الشهري وتوجب علي أيضاً أن أنقل ضماني الصحي من مؤسسة الضمان السابقة الى مؤسسة تملكها الهستدروت. كل هذه الترتيبات كانت قانونية وممارسات مقبولة قطعت دابر التظلم الفردي ضدها.

تمثل الهستدروت اليوم المستخدم الوحيد والأكبر داخل إسرائيل والإمبراطورية الاقتصادية الأكبر للبلاد. ومفارقة هذه الهستدروت انها منظمة ترتدي رداءين في آن

واحـد فهي إشتراكيـة من جـانب ورأسماليـة في الجانب الآخـر وهي تمثل العمال وتستخدمهم معاً وهكـذا تـراهـا تارة تستقتل لـرفع الأجـور وتـارة ترغب بتجميـد المدفوعات بسبب الخسائر.

وهكذا باتت الهستدروت على هاوية الإنهيار فقد أوشكت كثير من مصانعها على الإفلاس وفي سبيلها لبيع أسهمها وتفشى فيها الفسـاد الواسع النطاق وأضحت كلمة (مساواة) مجرد وعاء خـاو فبينما تدفع للعامل في مصنع الحلويات راتباً شهـرياً يقارب خمسمائة دولار أمريكي تراهـا تدفع لـرئيسه عشرة أضعـاف هذا الرقـم بالإضـافة الى الإمتيـازات التي يتمتع بها من حسـاب مصرفي كبير وسيارة نقل خـاصـة به وهـاتف وبطاقـات إئتمان مجانية لأغـراضه الشخصيـة. لقد عـانت الهستدروت الأمـرين فهي تصارع أمراض التعفن الإشتراكي وترتدي في ذات الوقت الوجه البشع للرأسمالية.

وليس بغريب اذا أن لا يضع الإسرائيليـون للهستدروت شأناً كبيراً وقـد توصل الجناح اليميني الإسرائيلي الى إستنتـاج خطوه مفـاده أن بن غوريـون كان يكـافح بجد لبناء مجتمع إشتراكي يوازي في مبادئه الشيوعيـة السوفيتية وظنوا ان الإشتراكية كانت أولوية بن غوريون غير مدركين ان القومية اليهودية كانت أكثر ما ينشد بها وان ما تبناه من رمـوز عديدة لـلإشتراكية كـانت بالنسبـة له مجرد ظـواهر لـلأمور. لقـد وجد في الهستدروت والحركة العمالية مجرد أدوات لتحقيق هذه الغايات التي هي تعبئة المجتمع وبناء الأمة وتعزيز قاعدة قوتها. لقـد قال بن غوريون في خطاب له أمام الحزب مطلع عام ١٩٢٣: «كـان قلقنا الشاغل دومـا هو إحتلال الأرض وبنـاءها بواسطـة الهجرة الجماعية وكل ما يقال غير هذا الأمر هو لغة طنانة وأناقة مفرطة».

ربما توضح هـذه الكلمات المشاكل البيئية والاحيـائية المزرية التي تـواجه إسرائيل فساحل البحر جد ملوث والوضع البيئي لكـامل حوض البحر المتوسط سيء للغاية بيد أن الوضع لإسرائيل على وجه التحديد مخيف بسبب نقص الوعي البيئي من جانب

الحكومة وتحولت معظم أنهار إسرائيل بضمنها جزء من نهر الأردن الى مجارير مياه وتحول (نهر ياركون) لعقود من الزمان كثيرة الى مكان لنفايات المصانع ومنازل تل أبيب .

لقد استحالت الغاية أن تكون (عمليا) لتبني أي مكان بأي ثمن هاجس الإسرائيلي المعاصر فشعار دولة إسرائيل يجب أن يكون جرافة ستشق النهر وتكسر الحجر لتبني أية مستوطنة جديدة. وهيأ الإسرائيليون الجدد أنفسهم لهدم المنازل أنى كانت، بيت هرتسل الذي مكث فيه عشية زيارته للقدس أو انه بيت (يرتيز) المؤلف الشهير الذي قدم مع وجبة المهاجرين الثانية . ويتجلى اليوم هذا اللاإكتراث بتهديم الإسرائيلين لبيوت الفلسطنيين الذين يشكون بهم إرهابيين . وهكذا يصح أن نطلق على الإسرائيلي الجديد لقب الجرافة السعيدة كما يصح أن نطلق على غيره لقب ماسك الزناد السعيد .

ثم أصبحت الحركة الشبابية والحديث هنا للتاريخ الأداة الفعالة لجعل المجتمع اليهودي يتكيف ليتقبل المفاهيم السائدة للصهيونية العملية ، وهنا أخذ كل حزب سياسي داخل إسرائيل على عاتقه مهمة قيادة المنظمة الشبابية . لقد استوعبت الحركة الشبابية الإسرائيلية مزيجاً من مفاهيم جاءت من خارج البلاد بعضها من رومانسية (فوندر فوجيل المانيا) ، وتناول بعضها جرعة طيبة من إنجليزية (بادن باول) ومن الكشافة الأمريكية وكذلك التأثير الروسي . إلا ان هذه الحركة برغم عدم أصالتها قد تطورت وغدت العلامة الإسرائيلية الفارقة .

قال الفيلسوف اليهودي (مارتن بوبر) بعد أن إنتهت الحرب العالمية الأولى وقبل أن يهجر المانيا الى إسرائيل ان الشباب هم حسن الطالع الكامن في البشرية وبمعنى آخر ان الصهيونية هي شعائر ينبوعية وان شبابية الشعب اليهودي والصهيونية تبجل الشبابية وترى فيها قيمة بحد ذاتها، الشباب أحرار من عبودية الماضي سواء تعلق

الأمر بيا في العائلة أم في الوضع الاجتماعي وانهم أفضل إستثمار للمستقبل .

لقد أضحى القاسم المشترك لكل المنظمات الشبابية الصهيونية في رحاب المعمورة هو حمل رسالة الصهيونية الى شباب يهود الديسبورة لإقناعهم بالهجرة الى فلسطين وأصبحت بحق هذه المنظمات الأداة الأمثل لاهتداء اليهود الى الصهيونية وأصبح لكل منظمة بجانب هذا المسمى أهدافها ومصالحها الداخلية لتثقيف اعضائها بالإستناد الى المفاهيم الشمولية للأحزاب السياسية التي ينتسبون اليها .

ضمت الحركة الشبابية أطفالاً تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثامنة عشر وهي توزع على أعضائها الزي الموحد والشارات وتحدد لهم مكان الإجتماع حيث يلتقون مرة أو مرتين في الأسبوع بعد إنتهاء دوام المدرسة . وقد التحقت أنا بأحد هذه المنظمات أو على وجه الدقة ان والدي أرسلاني لما بلغت عمر الثامنة الى (هاشومير هاتزاير) أو (يونغ وتشمان) وهي منظمة يسارية تابعة لحركة العمال الإسرائيلية . لقد نما عداء والدي للايديولوجية الشيوعية أو الإشتراكية بعد هجرتنا الى إسرائيل عام ١٩٥٧ ومع هذا فانهما أرسلاني لأسباب عملية الى هذه الجماعة اليسارية . لقد كانت المنظمة الأولى التي تقربت هي لوالدي وعرضت عليهما مخيماً صيفياً مجاناً لولدهما وكان كلاهما يأمل ان مشاركتي ستخفف عني عبء التكيف مع المجتمع الإسرائيلي .

نشأت هاشومير هاتزاير في الإمبراطورية الهنغارية النمساوية وقد أوجدها طلاب عوائل الطبقة المتوسطة ثم أقامت الحركة موطيء قدم قوى لها في بولندا . كان هدفها الأول هو جذب الرواد الشباب الى أرض إسرائيل غير أن مؤسسيها قد تأثروا كثير بالماركسية والثورية البلشفية التي حاولوا ضم أفكارها الى الصهيونية . وهنا لم يكن لهذه الحركة من نظير وسيلحق الشباب اليهودي الإشتراكي وعلى نحو أكيد بأحزاب اوربا الشرقية الثورية غير اليهودية . ثم وهبتهم هاشومير هاتزاير فرصة المزج بينهما فكان غاض هذا الأمر فرعاً نادراً من الماركسية الصهيونية بيد أنهم سعوا في ذات

الوقت صوب التكامل الروحي والثقافي فأصبح رموزهم العقلانيين مع لينين وماركس كل من فرويد ونيتشه.

هيمن على إجتماعات (شومرم) (وهو الاسم الذي اختارته هاشومير هاتزاير لأعضائها) قادة أهم التعبد الجماهيري شخصياتهم الحادة. لقد أطاعوهم كأنهم الحاخام أو ديكتاتور سياسي. وتحدث الشومرم الأول عن (الإعتراف) و (البهجة بتحقيق الذات) و (إعتاق الروح) و (نيران عذراء فيستا) و (التأمل). وقد كشف (ديفيد هوروتس) الذي كان محافظ ضفة إسرائيل السابق في مذكراته النقاب عن مثل هذه الوقائع عندما وصف الجو السائد المتوتر ليس من وجهتي النظر الايدولوجية والسياسية فحسب بل الجنسية منها أيضاً. فقد كانت غالبية أعضاء المجموعة من الذكور ويبلغ عدد الأعضاء من النساء إثنين الى ثلاثة لكل عشرة أعضاء من الذكور أو اكثر (عاش الرجال والنساء سوية في خيم) و (كانوا ينامون في أحايين أخرى في العراء). كما حاولت الشومرم غالباً نقل المحليين صوب الجو القاسي والعمل المضني في الزراعة أو بناء الطرق مع وجبات من غذاء فقير لا يسد رمقهم. ثم تغط المجموعة بعد يوم عمل شاق في إجتماع حتى يرخي الليل سدوله. لقد جعلت منهم عزلتهم كيانات رهبانية وأنظمة دينية يرأسها زعيم مشعوذ له نظامه الخاص من الرموز. كانت شعائرهم الإعتراف العلني وهو نوع من الإعتراف يستدعي محاولات المرء الصوفية لتواجه الحب والشيطان معاً في آن واحد.

لقد عشت بعض هذا الجو حين التحقت بالحركة بعد أربعين سنة من رحيل هوروتز. كنا نقيم هذه الفعاليات في فرع هاشومير هاتزاير المحلي في منطقة (رمت أبيب) المجاورة وانك لتميز هذه الفروع منتشرة في عرض إسرائيل وطولها. كان لنا نحن الشومرم تعليمات مفصلة حول ما يجب علينا فعله أو تجنبه. بل ان وصايا المنظمة العشرة كانت تمثل جانباً آخر من الدينية الدنيوية فجماعة الشرمرم يجب أن يكونوا وفقاً

لهذه المبادىء أبناء النفس شرفاء ومستقيمين أخلاقياً . وتوجب علينا كي نبلغ تحقيق الذات الإمتناع تماماً عن التدخين وأن نصون طهارتنا الجنسية .

تناولت نقاشاتنا الطويلة التي كان يديرها قائد المجموعة الأقدم منا بثلاث سنوات معنى الحياة والأدب العالمي ونظرية فرويد في التحليل النفسي وكذلك السياسة وكنا نتعلم فيها بعضاً من الثقافة الجنسية ، إشترطت هذه المعلومات أن تحقق جزءاً من هدف هاشومير هاتزاير نحو التقدم بيد أنها كانت تفسيرات عقيمة و(علمية) وحرم علينا أيضاً التطرق في حوارنا حول جوانب المتعة في الجنس أو الحب .

كانت هاشومير هاتزاير واقعية بالإضافة الى تلكم الروحية والعقلانية فجاهدت لتجديد الشباب اليهودي الإسرائيلي عن طريق العودة الرومانسية الى الطبيعة والتربة . لقد كانت إجتماعاتنا مؤثرة حقاً وفيها ترافق المراسيم المسيرات وإضرام النيران ورفع الأعلام تحت ضوء الشعلة وتألفت الإجتماعات المنتظمة من الأغاني والرقص الشعبي وحفلات السمر والنزهات .

هدفت هاشومير من وراء التلقين السياسي أن توجه خطواتنا صوب الماركسية فبعد أن تنتهي من تناول جرعات كبيرة من البلاغة الايدولوجية (الفكرية) ضد أحزاب الجناح اليميني الإسرائيلية ترانا نختم المراسم برفع علم إسرائيل ذي اللونين الأزرق والأبيض بالإضافة الى علم الإشتراكية الأحمر وخلال مراسم رفع العلم هذه نكون قد أنشدنا نشيد إسرائيل (هاتيكفا) ونشيد (الدولية) .

وقد يقول قائل قد أدرك الأمر متأخراً ان الإشتراكية الصهيونية بضمنها الهستدروت والحركة الشبابية كانت وفي نواحي عديدة أداة للتضليل الجماعي . إن إشتراكية بن غوريون لم تبغ البتة إنكار الرأسمالية بل أن توظف هذه الرأسمالية لخدمة قضية إسرائيل القومية .

لقد نجح حـزب العمال بفضل قوته الإقتصـادية والتنظيمية وعلى مـدى أكثر من أربعين عاماً ان يفرض نفسه حزباً سياسياً مهيمنـاً على المجتمع اليهودي وإسرائيل. فقد مكنهم تنظيمهم أن يجعلوا من المجتمع اليهودي عام ١٩٤٨ دولة عصرية مستقرة نسبيـاً: حصلت إسرائيل على استقلالها بـرغم انها في حـالة صراع مستمـر مع جيرانها العرب وكان حزب العمال يوجه دولة اليهود بين ضفتي الشرق الأوسط الضيقتين ألا وهما الحرب والسلام.

الفصل الرابع

بين الحرب والسلام

لم يحاول أغلب الصهاينة إدراك حقيقة ان العرب يمثلون مشكلة أمامهم برغم أنهم أطلقوا على قضية الحرب والسلام تسمية (مشكلة العرب). لقد استهل هرتزل هذا المنحى حيال هذه العلاقة عندما جرد عرب فلسطين والشرق الأوسط من تفكيره ووقته وآثر أن يفترض كمن جاء من بعده من قادة الصهيونية ان فلسطين مجرد أرض عراء، وهي حالة تقودنا الى الإفتراض انه لم يواجه في رحلاته داخل البلاد عام ١٨٩٨ قوماً غير اليهود.

لقد عاش معظم قادة الصهيونية تحت وهم ان العرب الذين يشكلون غالبية سكان فلسطين سيهللوا بعودة اليهود ثانية وان الغبطة ستملأ قلوبهم بـ(إحياء الصحراء) ونمط الحياة الغربية المتقدم الذي وعدهم به المهاجرون اليهود. وهنا وقف الصهاينة قاصرين في إدراكهم ان للعرب طموحهم القومي وانها لخيبة ظن أن نعلم أن الصهاينة الذين وضعوا هذا الوعد في إطار قوة الأفكار لإحداث تغيير إنساني وتاريخي تجاهلوا هذا الطموح العربي الموازي لطموحهم.

فقد تأسست بين عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ جمعيات عربية سرية في بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد كانت تسعى لإعادة بعث الوجود القومي العربي أي بنفس الفترة التي كان فيها محبو جبل صهيون منهمكين في اولى اجتماعاتهم السرية.

إن جوهر الموضوع أو لنقل جوهر مأساة الصراع العربي الإسرائيلي هو الظهور

المتزامن معاً لحركتين قوميتين على خارطة التاريخ وكل منها تقصد أن تغلبَ الأخرى بعد أن تكون قد استلهمت مفاهيم قومية القرن التاسع .

إن ما قيل أعلاه لم يكن مجرد رطانة بل هو ما حدث فعلا . فقد فشل قادة المجتمع العربي في فلسطين حتى بعد أن بدأت أساسات المشروع الصهيوني بالنمو في إستيعاب عزم الصهيونية ومثابرتها لإنجاز هذا المشروع فهم ما برحوا يتسلون بأمل ان ما يشاهدوه إنما هو مجرد زيارة حج يهودية أو ربما سياحية . وبقوا يراوحون في تفكيرهم هكذا حتى صدر إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ الذي اعترفت بموجبه بريطانيا بحق اليهود في (وطنهم) في فلسطين فادركت غالبيتهم معنى الهجرة اليهودية . ولم يظهر المجتمع الفلسطيني معارضته العلنية لإقامة المستوطنات اليهودية إلا بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ صدور وعد بلفور .

إندلعت في أيار عام ١٩٢١ في مدينة يافا أعمال شغب بعد أن إستشاط العرب غضباً لإستمرار تدفق موجات الهجرة اليهودية ثم ترجموا غضبهم هذا الى مسيرات إحتجاج ومظاهرات إنتهت بأن أفرط العرب طوال اسبوع نهباً وقتلاً في اليهود المتواجدين في المراكز الريفية والمزارع . صعق رد الفعل العربي هذا السلطات البريطانية والمجتمع اليهودي الذي ظل مخيأ في أوهامه ان أعمال العنف هذه مجرد (أحداث) أو (إضطرابات) وربما (أعمال تخريب) أكثر من أن يراها صيحات غضب قومية . ثم أعادت هذه الأحداث كرتها في عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٩ وعلى نطاق أكثر تنظيماً وأخطر تهديداً ومع هذا لم يحرك رد الفعل اليهودي ساكناً وكانت نهاية المطاف فشلاً ذريعاً لمواجهة الحقائق .

لقد لازم اللاإكتراث هذا الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة الواحدة بعد الاخرى وشرعت تعمل سواء اكانت من (العمال) أو من (الليكود) لاغية وجود منظمة التحرير الفلسطينية تماماً لا لشيء سوى أن هذه الحكومات رفضت الإعتراف

بالطموح القومي الأصيل وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. ليس هذا فحسب بل ان كلا الحزبين تجنب أن ينطق اسم منظمة التحرير الفلسطينية حرفياً وأشار اليها بدلاً عن ذلك باسم (بي أل او P.L.O) وأشد قسوة منها تسميتهم لها باسم (عصابة الإرهابيين) أو (Terrorist Gang) أما المصطلح الاسرائيلي الرسمي الذي نحتته اللغة العبرانية كبديل لكلمة (إرهابي) فهو (Mechablim) وتعني (الأشخاص المصطلحين بالنشاطات التخريبية).

هذه الممارسات في اللاإعتراف قد تجذرت عن سابق إصرار كمسعى يصبو للحط من شأن العرب وليخلق إنطباعاً ان النضال ليس بين أمتين بل هو بيننا نحن أمة اليهود وبين العرب الذين هم قطيع حيوانات. وتجشموا عناءاً دائماً لتوظيف أدوات لغوية وبلاغية تدعم هذا النضال القومي وهذا يفسر لم يتحدثون عن الحرب والمعارك بمصطلحات تجريدية: تسولي الإسرائيليون دوماً (تنظيف) أرض العرب و (تطهيرها). إن اللغة باستخدامها هذه الدعوات المقرفة لتخليص إسرائيل من سكانها الفلسطينين إنما تعيد إلينا الذكرى المشؤومة للحركة الأمريكية لمسح (مواطنيها الأصليين).

وضعت المعارضة العربية العميقة للمشروع الصهيوني الحكومة البريطانية في زاوية ضيقة فقد وجدوا أنفسهم كأنهم حكم مباراة كرة القدم يركض بين الأعضاء الخصوم لحركتين قوميتين. غير أنهم وعلى نقيض الصهاينة إستوعبوا لنفسهم خطورة وعمق المقاومة العربية وتوجب عليهم لانهم حكام معظم بلدان الشرق الأوسط ألا يتناسوا مصالحهم الأوسع سيما إكتشاف النفط في العالم العربي. وعليه غير الإنجليز سياسة الدعم الأحادية الجانب لصالح القضية الصهيونية الى سياسة أكثر توازناً ومساواة حملت في ثناياها ضرراً جسيما للمجتمع اليهودي في فلسطين والحركة الصهيونية معاً.

لقد تراوحت الإستجابة البريطانية مع كل موجة احتجاج عربية بين تعليق الهجرة اليهودية لحين من الزمن وبين تحديد أو إيقاف شراء اليهود لقطع الأراضي العربية وظلت هكذا حتى توصلت نهاية المطاف الى قرار بدا منطقياً: إذا ما تخاصم طرفان على نفس القطعة من الأراضي؛ فليتقاسماها. وعليه شكلت بريطانيا في تشرين الأول عام ١٩٣٦ (لجنة التحقيقات الملكية) برئاسة اللورد (روبرت بيل) أصدرت خطة بتقسيم فلسطين - أرض إسرائيل الى دولة عرب - يهود مع (دولة إنتداب) على أن تبقى تحت الحكم البريطاني، أما المنطقة التي ستستعيدها بريطانيا لصالح الامبريالية والمسيحية فهي الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة.

طفق مفهوم التقسيم لأول مرة في مجرى الصراع الدموي العربي - الإسرائيلي كحل مناسب وما زال حتى اليوم وإن مضت عليه سبع وخمسون عاما الحل الوحيد القابل للتطبيق والراسخ والمعقول والبعيد عن دائرة العنف. إلا أن كلا الجانبين لم يأخذ به لأنه مساومة ولأن قدر المساومة دوما هو الفشل. فقد أخذ جانب الرفض لدى الجانب الفلسطيني طابع (الرفض الجماعي) بين العرب والمتطرفين والمغتصبين أما الإستجابة اليهودية فكانت أشد تعقيداً حيث رفض المقترح الجناح اليميني بعد أن شم في السلوكية البريطانية بعضاً من الترتيبية أي الإنسحاب المتالي من وعدها الأصلي والتزامها اللذين عبرت عنهما في إعلان بلفور. إلا ان الإتجاه السائد لصهيونية بن غوريون قد قبل على مضض فكرة التقسيم وفرضت القرار عنوة على المجتمع اليهودي لما تتمتع به من سيطرة مطلقة على الهستدروت وعلى المؤسسات السياسية والإقتصادية وشبه العسكرية.

توصل بن غوريون في فترة مبكرة تماماً الى قناعة مفادها ان اتفاقاً مع العرب لن يكون ممكناً ليس لأنه كان راغباً عن هذا الأمر وإنما هي القومية العربية التي لا تريد هذا حسب ظنه وتوافق منذ عام ١٩٣٦ مع الحركة العمالية في موقفهم المتبسط هذا

للحق الصهيوني برغم انهما لم يعترفا بذلك قط حتى شاعت حينئذ (النكتة) الشعبية (ومازالت حتى اليوم) (كيف ترى المشكلة العربية من سدادة البندقية).

تهيأ بن غوريون وكذلك المجتمع اليهودي عام ١٩٣٦ لاستقبال تحد كبير أيقنوا فيه هذه المرة أن يكون ذا طبيعة عسكرية ساعدت بن غوريون أن يطور حينها مفهوم (القوة الصهيونية) الذي اشترط ان الهجرة والاستيطان والقوة العسكرية الجبارة ستكفل ضمان بقاء المجتمع اليهودي وتوفير الأداة الضرورية لنيل الاستقلال.

وقد ظن بن غوريون بخلاف الجناح اليميني ان الخلاف مع بريطانيا يجب أن يتقوض لأدنى حد ممكن أي الى القضايا الجوهرية المتعلقة بالصهيونية وبناء الأمة والهجرة وشراء الأرض بهدف جني الفوائد الهدائية (ميزات مضافة للأجور). لقد ساعد الضباط الإنجليز في سنوات الشغب العربي الثلاثة التي بدأت عام ١٩٣٦ في تنظيم وحدات الكوماندوز اليهودية التي شاركت (تحت القيادة البريطانية) في هجومات ضد القوى العربية لقمع الإنتفاضة وبالتالي زودت القوة الصهيونية غير الشرعية بالتجربة التي كانت تحتاجها في الحرب الليلية وما القوات الخاصة الإسرائيلية اليوم إلا ثمار هذه الوحدات الصغيرة.

لقد نهضت دولة إسرائيل من رماد الحرب العالمية الثانية ومن المذبحة ولولاهما لما كان لها اليوم في الوجود حيز حتى غدت اول وأهم حصاد للنظام الجديد بعد الحرب الكونية الثانية. فالمذبحة التي اوخزت ضمير العالم الغربي المسيحي قد أفضت بمعظم الأمم والقوتين العظيمتين الولايات المتحدة وروسيا الى الإعتراف بحق الشعب اليهودي بإقامة دولته الخاصة به. وكانت بريطانيا بين سبع وأربعين دولة أعضاء في الأمم المتحدة أيدت تقسيم فلسطين الى دولتين. غير أن القادة الفلسطينين تمسكوا بسياسة الكل أو اللاشيء ورفضوا مشروع التقسيم بينما قبله بن غوريون وأتباعه للمرة الثانية في غضون إثني عشر عاماً والذي حاول لما تحلى به من حرفة صنع المخاطر

وجرأة لخوض حرب اهلية أن يفرض سلطته وإرادته على هذا الحق اليهودي الصغير في حجمه الكبير في تهديده . رفض اليمينيون قرار الامم المتحدة فهم ما زالوا أوفياء لايديولوجيتهم بـ (إسرائيل العظيمة) وهنا لم يتردد بن غوريون باستخدام الوحدات العسكرية الموالية له لسحق المعارضة اليمينية ويفرض إرادته بالقوة .

تم نقل قرار الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ الى فلسطين على الهواء مباشرة وخرج أغلب المواطنين اليهود الى شوارع تل ابيب مبتهجين محتفلين فنتائج هذا القرار التاريخي ستتحقق بيد أن ليلة التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٧ كانت ليلة غبراء لبن غوريون فهو يعلم ان الهيولية قادمة في الطريق .

بدأت الحرب الفعلية بعد ستة أشهر من صدور القرار وبالتحديد في ١٥ آيار عام ١٩٤٨ وكان آخر يوم للانتداب البريطاني الذي استمر قرابة ثلاثين سنة وفيه أعلن بن غوريون ولادة دولة إسرائيل . في ذلك اليوم وما ان إنتهى من إعلان إستقلال إسرائيل أعلنت الدول العربية (كما توقعها) الحرب على دولة اليهود الجديدة وغزو فلسطين .

وحاك العرب والصهاينة كلاهما الأساطير والخرافات عن حرب ١٩٤٨ ونتائجها معظمها لا يمت للحقيقة إلا ببعض الصدق فترى كتاب التاريخ الإسرائيلي الرسمي يقارنون بين هذه الحرب وبين النصر التوراتي الذي حققه (ديفيد) الصغير على (غوليان) بينما نرى المؤرخين العرب يشيرون اليها بـ (الفاجعة) وأوقعوا لوم النتائج على العالم بأسره بدلاً من أن يكون عليهم .

أما الحقيقة فتمكن في ان هذه الحرب لم تكن حملة عسكرية عادية وليست بمناوشات حقيقية تبادل فيها طرفي القتال وابلاً من النيران حتى يتقرر من الفائز بينهما . لقد وقعت الحرب على عدة جبهات سياسية وتوقف القتال لمرات عديدة

بقرارات صدرت من جهات أجنبية لاسيا الأمم المتحدة . إستمرت الحرب رسمياً ثمانية أشهر بدأت بالغزو العربي لدولة فتية ، وإنتهت بتوقيع هدنة بين الإسرائيليين والعرب . أما القتال الحقيقي فقد إستمر لشهرين فقط . كان التفوق العددي يقف بجانب الجيوش العربية التي قدمت وخلفها نحوا من أربعين مليون نسمة وكانوا أيضاً أفضل تسليحاً من الإسرائيليين . ووقف بجانب القوة الإسرائيلية الممثلة لقرابة ستمائة الف يهودي فقط وحدتها وتماسكها وقوة الإرادة وكذلك التقنية الحديثة وكان قادتها العسكريين اكثر إبداعا وجرأة فنشروا قواتهم الصغيرة العدد بطريقة أفضل من خصمهم ليس هذا فحسب بل ان الحظ رافقهم حين وضعهم تحت قيادة قائد عسكري واحد برغم خلافاتهم وإنقساماتهم السياسية والايدولوجية . بينما انقسم العرب الى قوى وطنية متعددة تحت قيادات ملأتها الغيرة والشكوكية أبعدتهم عن التوصل الى إستراتيجية واحدة برغم اللغة التي كانوا جميعهم يشتركون بها . وهنا إنتهز الإسرائيليون فرصة هذا الموقف ووظفوا الاسلوب الروماني القديم (فرق تسد) .

إن أهم وأكثر أساطير ما بعد الحرب هي تلك التي تتعلق باللاجئين الفلسطينين الذين هم الخاسر الحقيقي في هذه الحرب . إذ فقد خلال الفترة الممتدة بين كانون الاول عام ١٩٤٧ و ايلول عام ١٩٤٩ ما يربو على سبعمائة ألف فلسطيني منازلهم وباتت قضية اللاجئين القضية الأكثر أذىً في علاقة إسرائيل بجيرانها العرب وأسكنت الشرق الأوسط لخمس عقود مضت في جو من التوتر .

تستند وجهة النظر العربية في هذا السياق على أساس ان اليهود قد طردوا الفلسطينين وجعلوهم لاجئين بلا مأوى وبأن هذه السلوكية كانت ميتة احسن في اليهود اداءاً . إن مثل هذا الموقف اليهودي لم يكن مقبولاً على المستوى الرسمي إطلاقا برغم حقيقة ان إسرائيل قد احتوت بين عناصرها دوماً أولئك المؤمنين بوجوبية الإبعاد الفلسطيني المنظم وأيدت الأحزاب السياسية في إسرائيل اليوم ؛ سواء من

تشغل مقاعد في الكنيست الصهيوني أو من لها من يمثلها بمستوى وزير داخل مجلس الوزراء؛ هذا الموقف البائس وأعلنت جهاراً ضرورة طرد الفلسطينيين. لقد إستثمر العرب هذه الحجة التي تصف الصهيونية بالحركة التوسعية في مسعاهم إنكار الحق الإسرائيلي في الوجود بينما أخذت الدعاية الإسرائيلية من جانبها طابع التهليل والتصفيق لذلك اليوم الذي هجر فيه الفلسطينيون بمحض إرادتهم ديارهم بعد أن أمرهم قادتهم العرب أن يتركوها لحين من الزمن.

وهدفت الدعاية الإسرائيلية الى المحافظة على صورة إسرائيل كمجتمع عادل وأخلاقي لا تشوبه شائبة فهي (إسرائيل) قد أدركت ان الدعاية والعاطفة لهما اليوم حكم السيف وان أبواب الارشيفات ستبقى موصدة وعليه سيكون من العسير الوصول الى جذور مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. وما برح الحال هكذا حتى السنوات الأخيرة حين نفضت هذه الارشيفات عن بعض غبارها وكشفت للرأي العام الإسرائيلي بعضاً من محتويات طياتها وأصبح من الممكن لنا أن نميط اللثام عن تلك الحقيقة التاريخية التي تقف وراء ذلك الحدث الموجع.

انني أدرك تماماً ان مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي الحصاد المباشر لحرب ١٩٤٨ بيد أنه لم يكن حصاداً خطط له عن سابق إصرار صناع القرار سواء اكانوا يهوداً أم عرب. كما ان إجابة للسؤال المتعلق بكيفية نشوء هذه المشكلة الخطيرة يتطلب الجمع بين القولين المتناقضين كليهما.

لقد ناشد القادة العرب في حالات معينة شعبهم أن يهجر قراه ومدنه بعد أن قطعوا لهم وعداً أن يعيدوهم عاجلاً الى ديارهم بنصر صاعق يترقبوه. تلك حقيقة قائمة. بيد أن معظم العرب المحليين قد تركوا منازلهم طواعية بعد أن هجسوا الخوف القادم من الحكم اليهودي. فالبلاد بأسرها كانت أيام حرب ١٩٤٨ جبهة طويلة واستحالت كل قرية ومدينة عربية ويهودية الى حصن عسكري وهنا غادر

الفلسطينيـون ديارهم تحت لهيب الحرب وضغط الجيش الإسرائيلي عليهم وكـان أول من هرب من الفلسطينين في المدن الكبيرة مثل (يافا وحيفا) أصحاب المال والمثقفون. وقد كـان لرحيلهم صـدى نفسياً بليغاً على من مكث في دياره فهم قـد فقدوا نخبتهم الحاكمة وعلى هذا المنـوال تطورت الهجرة الإسرائيلية وانتشرت كـالنار في الهشيم من بيت لآخر ومن عائلة لأخرى ومن شارع لشارع.

إن هـذا لا يلغي حقيقـة ان بعض الفلسطينين قـد طـردهم الجيش الإسـرائيلي من منازلهم بعـد أن إستولى على قراهم ومدنهم بأمـر صادرمن ضابط الوحـدة الإسرائيلية نفسه أو ممن هم أعلى منه رتبة. إلا اننا نفتقـر الى إثبات وجود سياسة متعمدة وصريحة بصدد هذا الأمر وهذا قد يفسر لم يتخذ احيـاناً ضابطان من موقعهما قرارين متناقضين فبينما يصدر احـدهما أمراً للقرويين أن يتركـوا منازلهم تـرى الآخر يتقدم ليمـد لهم يد المسـاعـدة ويعيدهـم الى ديارهم. كما يتيسر لـدينـا بعض نماذج الحرب النفسيـة التي استخـدمهـا الإسرائيليون، عنـدمـا أشـاع الإسرائيليـون إن من يبقى من الفلسطينين سيقتل وستغتصب زوجته وبناته.

لقد إقترف الجنود الإسـرائيليون وحشيات كثيرة تضمنـت المجازر الجماعية والقتل والإغتصـاب والتخريـب وقـد أخبرني بعضـاً عن هـذا (ايريك بتشـامكن) العضـو في حزب العمال والذي شغل منصب وزير الزراعة الإسرائيلي سابقاً. كان ايريك مزارعاً مثالياً إتسمت فيه الحدة والبساطة والصراحة والمباشرة وخدم اثناء حرب ١٩٤٨ قائداً لإحدى الـوحدات الخاصـة وشاهـد بأم عينه أعمال القتـل لعشرات المواطنين العرب الذين احتلت القـوات الإسرائيلية قريتهم الـواقعة في (صحراء النقب) بعـد أن شـدوا أيديهم وأطلقوا عليهم النار بوحشية ورموا بجثثهم الى أحد الآبار المحلية.

وسيشاهـد من يسافـر اليوم من تـل ابيب والقدس بنـايات شاهقة تشكـل ستارة خلفيـة لمنطقة سكنيـة راقيـة كـانت ذاتها عام ١٩٤٨ أرضـاً لقـرية عـربيـة تسمى ب

(ديرياسين) التي دخلها المقاتلون الإسرائيليون في نيسان عام ١٩٤٨ أي قبل شهر من غزو القوات العربية المتحالفة وفي قمة المناوشات بين الميليشيات الفلسطينية واليهودية. لقد قتل هؤلاء الإسرائيليون المئات من سكان القرية بضمنهم حتى النساء والاطفال.

تمثل مجزرة دير ياسين الحدث الأكثر تجسيداً لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وهي الحدث الذي يوجز هذا الصراع في أكثر جوانبه مرارة وهي الصفحة السوداء في تاريخ الصهيونية وإسرائيل. وما برح الجدال حول ظروفها سواء اكان بين المؤرخين العرب والإسرائيليين أو بين الجناحين الإسرائيلين اليسارى واليمينى جدلاً منهكاً فليست عواقب المجزرة هي التي كانت مثار شك ونقاش، بل ان حتى الحقائق الحماسية المتعلقة بصدد القتلى، ومن أصدر الاوامر لمن؟ ولماذا؟ قد بقيت ألغازاً مستعصية، ولما يزل عرب اليوم يتذرعون بمجزرة دير ياسين لدعم حججهم بوجود شرطة إسرائيلية سرية أجبرتهم وفق ترتيب معين على هجر أرضهم. أما المحاججة الإسرائيلية فهي انهم قد حذروا المستوطنين سلفاً من مغبة البقاء في قريتهم بيد أنهم (العرب) رفضوا الخروج وماتوا بنيران المعركة التي وقعت بعدئذ.

بقي بن غوريون وحكومة إسرائيل لسنين طوال خجل لما حدث في دير ياسين إلا انهم لم يأسفوا على نتائج المجزرة التي أصبح ضحاياها الحد الفاصل في المعركة بين اليهود والفلسطينين وغدت هي فيما بعد مسؤولة عن (هوس الرحيل) أو هجرة الفلسطينين الجماعية.

لقد فقد الفلسطينيون بين عامي ١٩٤٧و ١٩٤٩ بلادهم التي تقاسمت أرضها ثلاثة جيوش مختلفة هي الجيش المصري الذي أخذ قطاع غزة والجيش الأردني الذي سيطر على الضفة الغربية والجيش الإسرائيلي على بقية البلاد. وقد تنفست إسرائيل الصعداء بعد هذا النجاح ونتائجه التي تمثلت بضمها للأراضي التي احتلتها كما منحها

الثقة بالنفس وشعور بالتفوق .

وقد تغير حكام مباراة الشرق الأوسط مرات عديدة منذ عام ١٩٤٨ دون أن يحاول فيها العرب ان يتحملوا مسؤولية النتائج التالية للحرب جزاء رفضهم القاطع لحق دولة إسرائيل في الوجود وحق الشعب اليهودي في تقرير المصير. ها هنا تطور نموذج متكرر من التفاعل العربي الإسرائيلي إذ بينما رفض العرب حلول التسوية التي عرضها المفاوضون الدوليون، قبل الإسرائيليون هذه الحلول برغم ان موافقتهم تلك كانت اسلوباً تكتيكياً تماماً. وهكذا فقد العرب الفرصة الاولى التي إذا ما تداركوها نهاية المطاف وأعلنوا إستعدادهم لقبولها حتى كانت جولة إسرائيل في الرفض وقالوا: «جاءت موافقتكم متأخرة جداً» فحكام المباراة قد تغيروا والإسرائيليون برفضهم هذا أنما يعبرون عن رغبتهم عن اللعب مع العرب، وبرفضهم لأية محاولة لقلب الموقف أنما هم يؤاثرون البقاء في شراك نفس المشكلة. لقد اختاروا العيش في الليمبوس والبقاء بين الحرب والسلام.

هنا حافظت وعلى مدى السنين حملات الدعاية الإسرائيلية على منهجيتها في ان العرب هم من يكره السلام وانهم رفضوا يد إسرائيل التي امتدت تصافحهم ومع هذا فان بعض الوثائق التي خرجت الى الأضواء من أرشيفات إسرائيل وأمريكا قد كشفت صورة أكثر تعقيداً. فقد عقد الزعماء العرب والإسرائيليون خلال السنوات الاولى بعد حرب الإستقلال عدة إجتماعات سرية ولم يبق زعيم عربي واحد لم تصله سراً يد إسرائيل وهذا أمر يتناقض والمفهوم الشائع بيننا ان الجانبين لم يلتقيا بالمرة. وقد عبر القادة العرب عن إهتمام عام واستعداد أولي للتوصل الى صلح مع الإسرائيليين وطالب الفلسطينيون إسرائيل بتقديم تنازلات مقابل توقيعهم على اتفاقيات علنية وعرض القائد السوري، العقيد (الزعيم)، عقد إجتماع مباشر مع بن غوريون للتوصل الى معاهدة سلام وطلب مقابل هذا موافقة إسرائيل على منحه سيادة على

نصف بحيرة طبرية . وعبر بن غوريون في مذكراته ليوم ١٦ نيسان عام ١٩٤٩ عن هـذا المقترح (عرض السوريون معاهدة سلام منفصلة مع إسرائيل وأقامة تعاون وتشكيل جيش موحد مقابل تغير رسم الحدود) . إلا أن بن غوريون رفض المقترح ثم ألح الزعماء الفلسطينيون عام ١٩٤٩ بتسوية للنزاع اذا ما أعادت إسرائيل مائة ألف لاجيء الى ديارهم التي تحتلها الآن . لقد حظي الموقف العربي بدعم الأمم المتحدة وحكومتي بريطانيا والولايات المتحدة .

انشطرت إسرائيل بالأمس كما هي اليوم الى معسكرين أولهما معسكر (الحمائم) أو المعتدلين وثانيهما معسكر (الصقور) أو المتطرفين . وظن المعتدلون ان على إسرائيل أن تتوصل الى تسويات حتى وان كانت لمجرد تقليص مساحة الخلاف مع العالم العربي بيد أن اليد العليا في شؤون إسرائيل الداخلية كانت لبن غوريون ومعارضته المتطرفة والذي آمن بصفته رئيس وزراء إسرائيل الاول ان العرب يطلبون ثمنا غاليا فهم ما زالوا يضعون الشروط ويجددون الطلبات برغم خسارتهم للحرب ولم يشأ أن يتخلى عن أية منطقة ورأى ان على إسرائيل ومهما تكالبت عليها الظروف ألا تتخلى عن سيادتها فوق بحيرة طبرية لأنه مصدرها المائي الرئيس وهو أمر لا بديل له في منطقة الشرق الأوسط الجدباء . وأكثر من هـذا وذلك ان بن غوريون يكره أن يسمع شيئا يتعلق بعودة اللاجئين الى ديارهم فهو يرى بقلق كبير ان عودة لاجيء واحد ستشكل سابقة لغيرها وسيطلب المزيد من اللاجئين العودة الى منازلهم .

وجاء في دراسة أجرتها جامعة (بيرزيت) في الضفة الغربية ان القوة الإسرائيلية قد استولت ايام حرب ١٩٤٨ على (٤٥٠) قرية ومدينة عربية وان بعض هذه القرى قد زالت عن بكرة أبيها . كما نهب الجنود الإسرائيليون في منتصف أيام الحرب منازل الفلسطينيين وممتلكاتهم وتحولت ملكية القرى والمدن الى الحكومة الإسرائيلية التي شرعت حالاً بالتنقل بين هذه القرية وتلك لاستطلاعها ثم غيرت اسماءها الى اسماء

عبرية ذات أصوات مشابهة للاصوات العربية وهي دلالة على انها قد صادرت هذه القرى واستملكتها وقد وجدوا ان بعض الاسماء العربية لهذه القرى تستند على الاسماء التوراتية القديمة وكان امرأ زرع في الإسرائيلي الشعور ان ما يفعلوه مجرد إعادة حق مستلب لصاحبه الشرعي.

أعاد الإسرائيليون إسكان هذه القرى؛ المهجورة من العرب والمحتلة منهم؛ بالمهاجرين اليهود حتى ليتعذر على الناظر اليوم ان يتميز بصمات لقرى عربية بعد ان هدمتها الجرافات الإسرائيلية وأعادت بناءها قرى نموذجية شبيهة بالمناطق المجاورة الريفية الإسرائيلية، او المجتمعات الإسرائيلية القروية. ويكفي أن اقول ان المنطقة المجاورة لنا (رمات أبيب) قد أنشأت على حطام قرية عربية تسمى (شيخ مونس) وعلى بساتين برتقالها.

كان منطق بن غوريون والدوائر الإسرائيلية الحاكمة واضحاً جداً. لقد خسر العرب الحرب التي بدأوها وعليه يجب أن يتحملوا عواقب أفعالهم وجرائمهم. ان العقوبة التي يستحقون هي مصادرة ممتلكاتهم من الحقول والمنازل وحتى الأرض التي كانت أصلا مخصصة لهم. هذه الارض المغتصبة سيكون أحق بها اليهود المهاجرون الذين هم ضحايا مناهضة السامية والإعدامات وضحايا المذبحة والذين عادوا الآن بعد ما يربو على ألفي سنة من النفي والتشريد الى وطنهم القديم.

لقد منح إعلان الإستقلال الأقلية العربية التي بقيت في إسرائيل ولم يجرفها تيار الهجرة اثناء وبعد الحرب حقوقاً وحريات مساوية للتي منحها لليهود وكان لهم وما زال حق التصويت والترشيح للكنيست الإسرائيلي. بيد أن الإدارة العسكرية مازالت مفروضة على قراهم ومدنهم وان حرية التعبير والحركة مقيدتين. إنه لم يكن بالإحتلال الوحشي الذي عرفه الفلسطينيون بعد احتلال اليهود للضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧ برغم تشابه الإسلوب. فالإدارة العسكرية تعمل وفق نظام من

الترغيب والترهيب القائم على شبكة كبيرة من المخبرين والمتعاونين معها ولا يحق على سبيل المثال للعربي الإسرائيلي أن يدخل سلك التعليم ما لم يكن هو وعائلته متعاونين مع الجهاز الامني الإسرائيلي المحلي المتطفل.

لقد صادرت إسرائيل الأرض العربية وأبطأت سلطاتها عن سابق إصرار عجلة التقدم التقني لهدف غير مباح وهو إبقاء السكان العرب على حالهم مزارعين غير صناعيين، وبقي العرب حتى بعد رفع الحكم العسكري عام ١٩٦٦ مواطنين درجة ثالثة بعد الاشكيناز والسيفاردم. ولم يكن الفلسطينيون المتواجدون عبر الحدود بأفضل حال فقد أبقتهم الأقطار العربية في مخيمات اللاجئين التي تحولت الى مدن اكواخ واستخدموهم أداة في حملتهم الدعائية للحرب ضد إسرائيل وما حركت حكومات سوريا ومصر ولبنان ساكناً لتحسين مستوى معيشة اخوتهم الفلسطينيين إلا الأردن الذي أحسن في معاملتهم.

ورفضت الحكومات العربية والمنظمات الفلسطينية التوصل الى إتفاق مع الوجود الإسرائيلي ولوحت بين الحين والآخر بإزالة (الكيان الصهيوني) وحذفوا متجاهلين بسذاجة الواقع التاريخي اسم إسرائيل من خارطاتهم وطبعوا بدلا عنه اسماء احتقار سياسية مثل (عصابة تل أبيب) و (الصهاينة الفاشيون). وصور الكاريكاتير العربي اليهودي الإسرائيلي بمخلوق بملابس سوداء طويل الأنف جشع مادياً ونهم جنسياً وهي أقرب الى صورة النازية عن اليهود.

شن الفلسطينيون مبادرين هجمات عسكرية ضد المواقع العسكرية على طول حدودها مع سوريا ولبنان والأردن ومصر. هذه البلدان الأربعة المحيطة بإسرائيل دربت الفلسطينيين المحليين على أعمال التسلل وحرب العصابات وأرسلتهم عبر الحدود لسرقة المزارع والمصانع ولتعكير صفو الحياة اليومية ومهاجمة تحصينات الجيش الإسرائيلي العسكرية وكذلك الدوريات. وردت إسرائيل بما ملكت من قوة على كل

حادثة من هذه الحوادث وحلت الحكومات العربية المحترمة مسؤولية كل عمل تسللي وعن كل بقرة أو دجاجة سرقت وردت عليها بعنف كان في أغلبه عقوبات غير متكافئة. لم تفعل سياسة الرد بالمثل هذه شيئاً سوى انها أضافت للنار حطباً داخل الشرق الأوسط وصعدت من حدة التوتر.

قدم بن غوريون في حزيران عام ١٩٦٣ إستقالته بعد أن إستشاط غضباً في نقاش تعلق بالسياسات المحلية وجاءت الإستقالة التي لو نظرت اليها اليوم لبدت تافهة في ظرف كان أشبه بقضية موت أو حياة.

ترك بن غوريون في غضون سنتين من إستقالته حزب العمال وشكل جماعته المنشقة. كان آنذاك قد قطع العقد السابع من عمره وبات التزامه السياسي برغم كثرة أتباعه محل تساؤل كبير، إذ ادرك معظم الإسرائيلين ان سلوكيته الأخيرة ستشوه كثيراً من نشاطه أيام الصبا. وقدر تعلق الأمر بحزب العمال فقد نجح برغم الجرح الذي أصابه بعد أن تجرد من (الأب الكبير) في أن يستعيد عافيته حين أناط منصب بن غوريون الى خليفته (ليفي اشكول) الذي ينتمي الى الجيل الثاني من الزعماء اليهود وهم أولئك الذين عاشوا حياتهم السياسية في ظلال بن غوريون.

كان اشكول رجلاً معتدلاً كره الجدال والنقاش وتحكمت فيه سياسات التنازل وقد أضحى لهذه الأسباب موضوعاً لكثير من السخرية التي تعكس طبيعته. لو سأل هل تفضل الشاي أو القهوة لتردد كثيراً وفكر ملياً ثم يجيب أخيراً: «أتعرف ماأريد. إجعلها نصف شاي ونصف قهوة». غير أن جميع السمات التي تحلى بها وقت السلم من المذهب العملي والصوت الإسترضائي والسياسة الواقعية والتي جعلت منه رئيس وزراء محبوب قد انقلبت عليه في الوقت العصيب. فقد أدرك القاصي والداني ان العد التنازلي للحرب قد بدأ بحلول عام ١٩٦٣. إلا ان الجميع في إسرائيل أخذوا على حين غرة حين اندلعت الحرب عام ١٩٦٧. لقد بدأ زعماء إسرائيل بتوجيه كلام ينطوي

على تهديد جدي للسوريين رداً على هجومات الكر والفر وتسللات الفلسطينيين لأرضهم. هنا علم السوريون ان إسرائيل لا تعني الخديعة بهذا التهديد فقصدوا ظهيرهم الدائم الاتحاد السوفيتي الذي استيقظ لأجل ان يعيق الإسرائيلي (المعتدي) همة المصريين الذين ساروا في وضح النهار بجيشهم الجرار الى شبه جزيرة سيناء المجردة من العسكر. لم يكن دافع المصريين الحقيقي إعلان الحرب ضد إسرائيل بل انهم ارادوا مجرد إخافة عدوهم متناسين أنهم بمسيرهم هذا قد خرقوا اتفاقاً تعهدوا به وانهم قد تركوا إسرائيل بلا خيار غير إعلان حالة النفير في صفوف جيشها التي ما ان أعلنته حتى حذا الأردنيون حذو المصريين تحت شعار التضامن والأخوة العربيتين.

وهكذا وجدت الجيوش العربية في أيار عام ١٩٦٧ نفسها تشكل جبهة ضد إسرائيل وضد إرادتهم أنفسهم. لقد ظن العرب ان الفرصة الآن مواتية للإنتقام وسحق إسرائيل بينما جرفت قادتهم حملات الدعاية التي أداروها بأنفسهم وخرجت الجموع العربية الى الشوارع بشعارها القومي (بالدم والنار سنعيدك فلسطين) وأعلن القادة العرب والمعلقين عبر المذياع ونشرات الأخبار ان فلسطين المحتلة ستتحرر وسيدفع باليهود الى البحر المتوسط. (سيغتصب المنتصرون العرب النساء وينهبوا ممتلكات الإسرائيليين) هكذا شاهد الإسرائيليون فلماً إخبارياً سينمائياً يصور الحشود العربية المغتصبة وهي تصرخ وتبكي وقد أطبقت بأيديها حول اعناقهم وهي ايماءة أدرك الإسرائيليون مغزاها.

كان شعور الإسرائيلي بالأمان والثقة بالنفس جد هش، وان الوجود الإسرائيلي خلال الأسابيع الثلاثة التي سبقت الحرب قد بدا جد متداع. هنا أعاد الإسرائيليون الى ذاكرتهم شريط (اوستويج) فقد هجسوا في العرب النازيون الجدد الذي يسعون الى إبادة الشعب اليهودي وأن يكملوا ما بدأه الالمان ورأى معظم الإسرائيلين في أنفسهم الصورة المستنسخة ليهود (الغيتو) في أحياء اوربا الشرقية يحيطهم أعداءاً متعطشون

للدماء.

سلم اشكول في حزيران من تلك السنة وفي محاولة منه لدفع الروح المعنوية وتعزيز الشعور بالوحدة القومية وزارة الدفاع الى الجنرال (موشي ديان) وضم في رئاسة وزارته ممثلين من الجناح اليميني المعارض الذي شغل زعيمه (مناحيم بيغن) منصب وزير في الحكومة الإسرائيلية بعد خمسة عشر عاماً من العزلة عن الدائرة السياسية. وهكذا يكون اشكول وحزب العمال قد وضعا سابقة بأن ساعدا في تطهير وتشريع ارشيفهما السياسي. وبهذا القرار الذي استثمره بيغن وحزبه كبرهان لقدرتهما على الحكم نجح بيغن بعد عقد من الزمان في إقناع العامة الإسرائيليين بالسماح له وحزبه في إدارة البلاد.

بعد ثلاثة أيام من تشكيل الحكومة الوطنية الموحدة وبالتحديد في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ تحرك الجيش الإسرائيلي صوب حرب الأيام الستة التي انتهت بفوز ظافر للإسرائيليين الذين احتلوا من مصر قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء وحتى الضفة الشرقية من قناة السويس ومن الأردن الضفة الغربية والقدس الشرقية ومن سوريا مرتفعات الجولان. وان إسرائيل آنذاك لمدينة مقابل هذا النصر بالكثير الكثير لرئيس وزرائها ووزير لدفاعها السابق ليفي ايشكول، بيد أن مجد النصر ذهب لصالح وزير الدفاع الجنرال موشي دايان.

أحدثت حرب الأيام الستة تغيراً جذرياً في النفسية الإسرائيلية التي غدت مطمئنة نشطة بعد أن كانت قلقة مضطربة وتنفس الإسرائيليون الصعداء فالنصر من عمل السماء وهي ايماءة ان (رب اليهود) يحمي دولة اليهود.

لقد رافق التمجيد الإسرائيلي لجيشهم قدراً مساوياً لهم من الإزدراء حيال العرب الذين صورتهم الصحافة الإسرائيلية بالبدائيين علمياً والمتخلفين حضارياً والتعساء

حالاً ولفقوا على عجزهم كل اضحوكة ممكنة بل ان بعض النكات التي كانت تقال عن اشكول قد حولوها لتجعل من الزعماء والقادة العرب (الاغبياء) موضع سخرية وكررت دور السينما (لم تكن إسرائيل تملك آنذاك محطة تلفاز) عرضها لأفلام تصور آلاف العرب المذلولين جالسين في الصحراء بجوار دباباتهم وعرباتهم المحترمة وأيديهم مشدودة خلف رؤوسهم. وأضافت الحرب لإسرائيل بالإضافة الى النشاط الوطني وشعور الإسرائيلي بالتبجح والتفوق على العربي أبعاداً جديدة تتمثل بالتصوفية الدينية والتعصب.

فقد احتل الإسرائيليون أرض إسرائيل بأسرها وسقطت بين أيديهم الأراضي التي كان لها مقرراً عام ١٩٤٧ أن تكون دولة فلسطين وكذلك الأراضي التي تقاسمها بعد حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل كل من مصر والاردن وتدفق الإسرائيليون صوب قرى ومدن وقطاع غزة والضفة الغربية يدفعهم فضولهم حول عدوهم ورغبتهم لإكتشاف أماكن جديدة.

الحق مجلس الوزراء الإسرائيلي برئاسة اشكول وبعد شهر من إنقضاء الحرب القدس الشرقية بدولة إسرائيل برغم المعارضة الدولية وشرع متحدياً القانون الدولي ببناء مستوطنات مكثفة في الأجزاء العَربية من المدينة غير أن إسرائيل لم تكن في يوم من الأيام غير ملتزمة بحقيقة ان أمم الأرض قاطبة بضمنها حليفتها الأكبر الولايات المتحدة لم تعترف بضم إسرائيل للقدس العربية. فالقدس قد استحالت أكثر من أي مكان آخر وقضية أخرى البقرة المقدسة لساسة إسرائيل فهي ليست مدينة فحسب، إنها جميلة وجذابة ولها خصوصيتها التاريخية وهي إذا ما نظر الإسرائيلي الى أحجار بنائها لوجدها أهم حتى من السلام وحياة الانسان.

لقد أفزع هذا الحدث الفلسطينيين في الأراضي المحتلة بعد أن تسلل إليهم الرعب خشية أن تلحق بهم قوات الإحتلال ما توعد به قادة العرب قبل الحرب لليهود. ونظر

الإسرائيليون للعرب كأنهم (حيوانات) في حديقة الحيوان يستحسن على السائح الفلسطيني زيارتها، ثم تحول هذا الفضول الى مبدأي الدعاية والفاشستية. وقبل هذا وذاك إن هذه الأراضي ليست غريبة على الإسرائيلي، فقد زارها قبل الحرب بتسعة عشر عاماً وهي لما تزل تحت الإحتلال البريطاني •• وعاش بعضهم فيها •• كما درسوا عنها في مدارسهم •• وتعلموا أسماءها التوراتية، إذ تطلق اللغة العبرانية على الضفة الغربية لنهر الأردن اسم (Judea and samari) التي نشأت منهما المملكتين الإسرائيليتن القديمتين قبل نحو من ثلاثة آلاف سنة.

أهدرت أحداث الأسابيع والأشهر التالية للحرب مباشرةً فرصاً جديدة للسلام ووضع حد للصراع العربي الإسرائيلي. فقد شكل أشكول بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها فريق خبراء أوكل له مهمة تحديد المزاج العربي داخل الأراضي المحتلة. وقد طاف الفريق في رحاب الضفة الغربية وقطاع غزة حتى انتهى الى نتيجة مفادها أن الفلسطينيين ما برحوا يتشافون من الصدمة، انهم تكشفوا من جديد للإسرائيليين بعد استراحة دامت خمسة عشر عاما، الا أنهم يملكون الرغبة للنظر في اتفاق مع إسرائيل. واقترح الفريق أن على إسرائيل أن تبادر بمنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً (ليس بعيداً جداً عن حال دولة مستقلة) بالإضافة الى إعادة توطين لاجئي المخيمات الفلسطينيين.

لم يتوصل أشكول كعادته الى قرار حيال هذا المقترح، بينما رأى موشي ديان أن الوقت الآن لصالح إسرائيل، وعليه فمن الأفضل الجلوس دون حراك. وحول مسؤولية الأمر الى العرب حين أخبر مسؤوليهم انه بانتظار مكالمتهم الهاتفية للتحدث في السلام. أما الحل الذي عرضته حكومة إسرائيل فكان (مساومة الأرض). أي ان إسرائيل ستنسحب من معظم الأراضي باستثناء القدس وبعض المناطق الحيوية لأمنها مقابل التعهد بالسلام الشامل. بيد أن العرب رفضوا الحديث الى إسرائيل وشرعوا بدلاً عن هذا في سباق تسلح بدعم من الإتحاد السوفييتي الذي أعاد تجهيزهم بسلاح

أكثر مما فقدوه أثناء الحرب وأكثر منه تطوراً أيضاً. وأعلنت الدول العربية في اجتماعات قمة الخرطوم الذي عقد في آب عام ١٩٦٧ لاءاتها الثلاثة: لا سلام مع إسرائيل، لا اعتراف بإسرائيل، ولا مفاوضات.

أما حقيقة السياسة الإسرائيلية الرسمية أن هذه الأراضي ما عدا القدس ستبقى بأيديهم كسند ضمان•• فإذا تم توقيع معاهدة سلام انسحبت منها إسرائيل وأعادتها ليد العرب. وكالعادة نشأت من هذا الركود السياسي ديناميكيات جديدة كانت تهدف الى خلق واقع حال داخل إسرائيل (لصالح الإتجاه السائد للصهيونية سابقاً) سينهش هذا الموقف الرسمي. وعليه شرع الإسرائيليون ؛ في منتصف الليل خلسة ؛ ببناء مستوطنات وهو عمل يبدو ظاهرياً معارضاً لسياسة الحكومة، وتحرك المستوطنون اليهود صوب مرتفعات الجولان بينما راح المغامرون منهم ينقبون عن النفط او عن مصادر أخرى جديدة في صحراء سيناء، وبنى المتعصبون السياسيون منهم مستوطنات في الضفة الغربية تحت ذرائع موهمة.

لم يكن مسعى حكومة أشكول لطرد هؤلاء المستوطنين غير الشرعيين جدياً، فقد تجاهلوا هذه النشاطات باديء الأمر ثم وبعد وقت لم يكن طويلاً شرعوا بتقديم دعم مالي لهم أخذ شكل (الدعم الإنساني)•• ووفروا لهم الماء•• والكهرباء•• وافتتحوا الطرقات••وبنوا المنازل•• وشيدوا رياض الأطفال، ولم تمض سوى شهور حتى طفقت اليهودية تملأ الأراضي المحتلة وكان هذا أمراً صدع مصداقية الحكومة. فهي بينما رفضت فكرة ضم المناطق المحتلة وتحدثت بمفهوم الأرض مقابل السلام قد شرعت عملياً بمد يد العون لعملية الضم التدريجي لتلك الأراضي.

وعارض اليساريون والليبراليون هذه الإتجاهات الوطنية النشطة، واتصفت معارضتهم بالأخلاقية والواقعية وكان الفيلسوف (يشاياهو ليبوفتش) الأستاذ في الجامعة العبرية في القدس أكثر اولئك المتشددين ضد هذا التيار السائد. لم يكن

ليبوفتش مجرد يسارياً مثالياً ودنيوياً فقد ارتدى القلنسوة الضيقة وأنسب لنفسه صفة رجل الدين، وهو لهذه السمة بالتحديد عارض وما زال يعارض الوجود الإسرائيلي في الأراضي المحتلة. لقد شاهد فورة الإندفاع صوب حائط المبكى مباشرة بعد حرب عام ١٩٦٧، فوصفه على غير تردد بالإعجابية الوثنية وهي ظاهرة تمثل تناقضاً أثيماً للروحية اليهودية، وأشار إليها بـ(مرقص حائط المبكى). وأكد في رأيه أن إسرائيل ستعود في نهاية المطاف قوة محتلة وحشية والى دولة شرطية ستتضافر فيها الشرطة مع الأمن لقمع الفلسطينيين. وعليه رأى ان على إسرائيل أن تنسحب طواعيةً من الأراضي المحتلة وأن تطلق للسكان المحلين حريتهم ليقرروا مصيرهم بأنفسهم. وقد خرجت المظاهرات التي تنادي (بوضع نهاية للإحتلال)، بيد أن نشوة النشاط السائد قد جعل منها ومن عبارات ليبوفتش ومن الكتابات على الجدران مجرد أصوات مهرطق في منفاه.

واليوم أدركت إسرائيل متأخرة أن أصوات ليبوفتش والأقلية معه كانت صائبة، وتحولت حلاوة نصر ١٩٦٧ الى مرارة، فإسرائيل قد أصبحت كشبكة لا منفذ فيها وشطرت قضية الأراضي المحتلة المجتمع الإسرائيلي الى قسمين.

تصاعدت في إسرائيل في اليوم التالي لحرب الأيام الستة مباشرة حمى النقاشات حول كيفية تسمية هذه الأراضي. فهي كانت بالنسبة لـ(ليبوفتش) وأنصاره أرضاً محتلة وأطلقت عليها حكومة العمال رسمياً اسم (الأراضي الإدارية)، بينما شعر معظم الإسرائيليين أنها أراضٍ محررة وأنها كانت دوماً ملك للشعب اليهودي (الأراضي التوراتية للأب المؤسس). كان واضحاً لمعظم الإسرائيليين حتى عام ١٩٦٩ أنهم يعيشون كمواطنين في دولة إسرائيل، أما اليوم فإن معظمهم؛ وحتى اولئك الذين عارضوا الوجود الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ يستخدم مصطلح (إسرائيل ايريتز)، وإنك لو أشرت رسمياً انهم يعيشون في دولة إسرائيل وأن الإسم

لم يتغير لما عرفوا عن أي شيء تتحدث. لقد أصبحت هذه الأراضي وعلى مدى ربع قرن مضى جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الواقعة واللغة والضمير الإسرائيلي برغم أنها لم تضم هذه الأراضي رسمياً. ومن الصعب الأيمان أن العمى قد أصاب الأمة بأسرها، وأن جنون عبادة الأراضي قد هاجم الأمة كلها، فالإسرائيليون قد وجدوا مرة ثانية عجلاً ذهبياً ولم يترددوا بالرقص حوله.

يقول بعض القادة العرب (وأحدهم صدام حسين) أن الإسرائيليين قد رسموا على أحد جدران الكنيست خارطة تعبر عن طموح إسرائيل الحقيقي وأنها تمثل إسرائيل العظيمة والتي تمتد حدودها من الفرات في العراق الى النيل في مصر. بيد أن أياً من هذه الجدران لا يحوي مثل هذه الخارطة الا واحدة تمثل صورة هرتزل، كما أن كثيراً من العرب يؤمن أن هذه الخارطة التي تمثل النوايا التوسعية الطويلة الأمد لإسرائيل موجودة حقاً، وأن تمسك إسرائيل بهذه الأراضي هو جزء من برنامج توسعي سري قديم، وهذا يرتبط مع الإصرار العربي المستمر أن عملية طرد الفلسطينيين بعد حرب ١٩٤٨ كان أمراً مدروساً. لم يكن لهذا الإدعاء أساساً من الصحة بالأمس واليوم، لأن سياسة إسرائيل عام ١٩٦٧ وكما كانت عليه عام ١٩٤٨ قد تحددت بوضع واستثمار الفرص كما هي عليه، وتلك هي خبرة الصهيونية على مدى المائة سنة الماضية من وجودها أكثر من أن تكون دلائل مشؤومة.

إن ما يستحق الذكر هنا أن إسرائيل قد انطلقت في أعقاب عبادة الأرض تحت الحكم الإشتراكي وليس تحت حكم جناح الليكود اليميني، وربما شعر أشكول وزملاؤه بالذنب من عقود السنين الخالية التي فرضوا فيها اليهودية الدنيوية كشكل من أشكال الدين في محاولتهم بناء الدولة. إن عبادة الأرض قد ساعد عاطفياً في إعادة ذكرى الحنين الى الحياة الدينية في وطنهم الديسبورة الذي حاولوا طويلاً طمسه.

لقد أصبحت إسرائيل مجتمعاً ذا بعد واحد تداعت فيه إبتداءاً من عام ١٩٦٧

جميع القضايا الوطنية الأخرى وغدت هامشية لتفسح المجال أمام القضية الأهم وهي قضية الأراضي التي ابتلعت جميع هموم إسرائيل الناجمة عن مشاكلها الأخرى مثل الإقتصاد والمشاكل الإجتماعية والصحية والثقافية وقضية الهجرة التي باتت الهاجس الشاغل للإسرائيليين، وهو تحول يعني أن حرب الأيام الستة قد شكل حداً فاصلاً بين سنوات إسرائيل التسع عشرة الاولى من تاريخها وبين السنوات الخمسة وعشرين التالية والمختلفة عنها تماماً.

الفصل الخامس

إستبدال الحرس

بحلول الساعة الحادية عشرة من ليلة السابع عشر من أيار عام ١٩٧٧ ، بث التلفزيون الإسرائيلي نتائج الإنتخابات . معلناً أن كتلة الليكود المعارضة قد فازت بالإنتخابات ، وان مناحيم بيغن زعيمها الذي لا يختلف عليه اثنان سيكون رئيس الحكومة المقبل . في تلك الليلة أمطرت دموع السكان كل عتبة داره : انها دموع المفاجأة التي مسحت معها تسعة وعشرين عاماً من هيمنة حزب العمال . وذرفت جموع أخرى دموع الخوف . لم يكن خوفاً من المجهول بل من الذي في جعبة الليكود . كان ينبوع قلقهم وهو حصيلة عقود من التشرب الفكري هو أن إنتخاب بيغن يعني الحرب . فما انفك خصومه يكنونه بداعية الحرب . انني لما أزل أتذكر رد فعل أسرتي التي جلست قبال جهاز التلفاز . فما أن أعلنت نتائج الإنتخابات حتى أطبق علينا الصمت العمي على التصديق ، الصدمه الاولى أعقبها الغضب فالخوف فالقلق .

ونفر عدد من رجال الدولة من حزب العمال الإنصياع الى قواعد اللعبة الديموقراطية . وأعلنوا عبر التلفاز انه لا ينبغي على عامة الشعب أن يقبلوا النتائج : اي أن هذه النتائج لا تعني وجوبية تغيير الحكومة بل أن الشعب قد فقد أحاسيسه . إن قيادة حزب العمال بغطرستها النموذجية لم تتمكن حتى بعد أن رأت سلطانها يتهاوى

أمام ناظريها من الإنعتاق من اعتقادها انها فوق الشعب والدولة. لقد خال لها انها هي الدولة.

غير أن هـاجس العمال الأكبر كـان أن الليكـود سيسعى ليحط من شأن الإمبراطورية الإقتصادية لحزب العمال: المصانع والمزارع الجماعية اليهودية والمصارف وشركات البناء والمؤسسات التجارية، انه سيسعى لهدم كل مـا بناه الحزب واتحاده التجاري العملاق والهستدروت على مدى خمسين عاماً. وسرت همهمات داخل أروقة الحزب عن خطط لنقل الأموال والثروات الى مكـان خفي بعيـداً عن عيون الليكـود المتلصصة.

ليس عسيراً فهم هـذا الخوف وذاك القلق: كـان الليكـود ويغن حليفين وكـان غالبية المجتمع الإسرائيلي شعر بالطمأنينـة في ظل حكم العمال، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون ارتقـاء الليكود السلطـة مفاجـأةً تامة؛ إنـه نمو طبيعـي على مر مـا يقارب عشرة اعوام.

وجد حزب العمال نفسـه بعد وفاة أشكول في شبـاط من عام ١٩٦٩ يتخبط في شجارات داخلية أعـادت اليه أيـامـه في حقبة الستينـات. فكيف له أن يعين خليفـة لأشكول. كـان موشي ديان المرشح الأقـوى الذي يتمتع بأفضل الفرص لتـولي قيادة الحزب وبالتـالي رئاسة الوزراء. بيـد أن حارس الحزب الأقـدم لم يجد به بديـلاً. لقد أخـافهم جهلهم بـه. انهم لا يأنسـون بعشرتـه. وهم قـد انحـدروا من أكـواخ المدن اليهوديـة في اوروبا الشرقيـة، وموشي ديـان يهودياً صبـارياً نشأ وتـرعرع في إسرائيل ايرتز. لقد أطلق عليه أشكول يوماً ما وكـان مازحاً: «قاطع طريق». كان ديان سيداً لنفسـه ومقـت الإلتـزام لحزبـه، فتسلـل لأعضـاء الحزب الأقـدمين الخوف مـن انـه سيتصرف بمحض مبـادراته غير عـابىء بالـروحية البلشفيـة التي ما بـرحـوا منقـادين وراءها. وكتسوية للأمر وقع الاختيار على(غولدا مائير).

وما كان بوسعهم أن يتخذوا قراراً أغرب من هذا. كانت مائير حينئذ امرأة عليلة تقاسي الشيخوخة وفي أواخر ستينات عمرها. لقد سكنها السرطان فواصلت إجراء العمليات الإشعاعية. انها لممارسة متفق عليها في الولايات المتحدة وكذلك في باقي البلدان الديموقراطية الغربية أن يعرف العامة السجل الطبي لزعيم بلادهم. اما في إسرائيل واستناداً الى تقليد بال وسياسي وتآمري تبقى حقيقة مثل هذا الامر محجوبة عن الشعب، وتلك هي غولدا مائير تقدم مثالاً حياً لهذا الأمر. لقد حجبوا بستار السرية مرضها فكانت تهرّب الى المستشفى بسيارة قديمة صغيرة تعود لأحد مساعديها. ولغولدا مائير تاريخ شخصي وسياسي طويل وهام طغت عليه خدمتها في حركة العمال وجنوحها نحو الإشتراكية. فهي قد حافظت بعناد على قانون طاعة المنظمة وعليه قطعت خطوات مسيرتها الى الأمام. كانت أول سفير إسرائيلي لدى الإتحاد السوفيتي وشغلت عدة مناصب في عدة حكومات رأسها بن غوريون كان بينها منصب وزير الخارجية. كانت برغم عاطفيتها التي دوماً ما ذرفت فيها الدموع عنيدة ومعتدة بنفسها.

كان الافتراض السائد عندما أناط الحزب عام ١٩٦٩ مهمة زعامته بغولدامائير برغم انها قد بارحت السياسة بسبب كبرها ومرضها أنها لن تمكث لأكثر من فترة قصيرة تتولى فيها مهمة الوكيل حتى يجد الحزب له زعيماً تقبله العامة. لقد حصلت غولدامائير قبيل استدعائها من سباتها السياسي على ثلاثة بالمائة من الأصوات في استفتاء للرأي العام حول الشخص الذي يرغبونه أن يغدو رئيس حكومتهم المقبل. بيد أن العامة قد أحبوها حتى انها لسحرت لبهم. ست سنوات قد مرت على استقالة بن غوريون من رئاسة الوزراء وسيجد الإسرائيليون المتيتمون عزاءهم في غولدا مائير، انها (الأم القومية) وخليفة (الأب الكبير). لقد ذاب في وجودها الجميع واستحال حتى صانع المشاكل القبيح موشي ديان أمامها قطاً وديعاً، وغدت لمعظم الإسرائيليين ويهود الديسبورزة الأم من الطراز البدائي.

ماكانت غولدا مائير ذكيـة وإذا حكمنا عليها من خطبها فمفرداتها محدودة وجملها بسيطة وقصيرة واستعاراتها وصورها كانت شفـافة، وكانت تعرج في أغلب ظهورها للعامة الى الحديث عن (الغيتو) أو أحياء اليهود كنقطـة رجوع لها. لقد أطالت متمالية في ذكر اللقاء الذي جمعها مع البابا في الفاتيكان عام ١٩٧٣ وكيف انها حدقت في عينيه مباشرة طوال ساعة الإجتماع وهي تسـرد عليه تجربـة طفولتها مع المذبحة الجماعية التي تعرض لها اليهـود. وهي قد ذهبت أبعد من هـذا لتقول بغطرسة حـزب العمال حيال السفارديم أن اولئك الذين لم يعيشوا تجربة غيتو اوروبا الشرقية لايمكن لهم أن يكونوا يهوداً صالحين. وقد تجلى ضيقهـا ذرعاً باليهود الشرقيين في مناسبة أخرى حين أطلق جمع من شباب السفارديم في محاولتهم سرقـة الأبصار اليهم على أنفسهم اسم (النمور السود) حيث ردت عليهم وهي تعلم انهم لايبغون سوى حقـوقاً متساوية مع غيرهم بقولها: «انهم ليسوا لطفاء».

لقد اقتربت غولـدا الى العرب بنفس مفهومها انها أقوم خلقـا من الآخرين بقولها عـام ١٩٧٠ : «لايوجـد شعـب فلسطيني». وغـدت فترة حكمها الـواصلة بين نهايـة الستينـات ومطلع السبعينات واضحـة لما تميزت بـه من رضى الـذات. وبدا أن خفـة ونشاط مابعد حرب الأيام الستة مازالت تحكم البلاد.

تسلم زعامة مصر في صيف عـام ١٩٧٠ رئيساً جديداً هو أنـور السادات والذي أعلن انه مستعد أن يعمل سـلاماً مع إسرائيل اذا أعادت اليه شبه جزيرة سيناء، وإلا فلن يتردد ليذهب الى حـرب ضدها حتى لـو كلفت (مليون جندي مصري). هـاهنا افتقدت غـولدا مائير الى حســاسية الفهم أن هذه تمثل وجهـة نظر جديـدة. ليس ثمة مزيـد من كلام طنـان حول تحطيم إسرائيل والقاء اليهـود في البحر، بل هـو استعداد حقيقي لبلوغ التسوية من جانب زعيم أقـوى أعداء إسرائيل، الا أن غولدا في نظرتها الضيقة للعـالم التي لاتميز فرق لون بين الأبيض والأسـود لم تجد في العرب شأنهم شأن

الناس من غير اليهـود سوى كارهين لليهود يبغـون ايذاءهم ، فقصدت وزير دفاعها موشي ديان وقبلت افتراضه (اننا اليوم أفضل حالاً من سابقه) . وعليه وتماشياً مع هذا النهج رفضت غـولدا مـاثير ومعها ديـان وكـامل حكومـة العمال عدداً من مبـادرات السلام التي قدمها بعض الزعماء العرب والمبعوثين الدوليين ، ولم يتزحزحوا قيد أنملة عن الوضع الراهن الذي هـم فيه . إن ما كانوا ينشدون هو سلام تام مقابل انسحاب جزئي .

ان كل ما أراده الإسرائيليـون في خضم هذا الجو الـذي أطبقه عليهم قـادتهم هو (الخبز والمدرج اليوناني) . فامبراطوريـة إسرائيل قد اقتربت كثيراً في شبهها بعد حرب عام ١٩٦٧ مع الإمبراطـورية الرومانيـة العتيقة المتداعية ، بينما توفر الخبز بكثـرة بعد الإرتفاع المطرد في مستـوى المعيشة بفضل الدعم السخي من طرف الـولايات المتحدة ورخص الأيدي العاملة العربية المستـوردة من الأراضي المحتلة . وبالنسبة للمباريات فما زالت أحزاب المجتمع موجودة .

وتلك هي الفترة التي شرع فيهـا الإسرائيليـون يحتفلـون بـرأس السنة الجديـدة ولاأقصـد هنـا السنة التقويميـة اليهودية (روش هوشـانا) ، بل السنة الجديـدة للتقويم الغريغـوري البابـوي . وربما حدث هـذا لان التقويم اليهـودي يضم في أغلبـه وقائع مظلمـة من التاريخ اليهـودي ، وربما كذلك لان هـذا التصرف يخلع على الإسرائيليين مسحة من الإنتساب للعـالم الغربي . ومن المثير للتناقض الظاهري أن الدولـة اليهودية لما تزل واحدة من الأماكن النادرة التي تشير الى السنة المسيحية الجديدة باسمها الاصلي (ليلـة سلفستر) تيمناً بـاسم قـديس مسيحي . كما استحـوذ هاجس استعراض نكتـة السـادات على أغلب الأحـزاب اللامعة في تل أبيب مطلع السبعينـات ، وربما أفـرط الشعب بأسره ضحكاً على تصريحات السـادات . كـانـوا مـؤمنين انـه كـان يخادع ، وسرعان مـا أراهم انـه يقصد القول ويبغـي منه الفعل وهـذا ما أدركـه الإسرائيليون

ولكن بعد أن سبق السيف العذل ودفعوا ضريبة مرهقة ثمنها آلاف القتلى ومثلهم جرحى من الشباب اليهودي .

قرر السادات وبعد أن استوعب أن الإسرائيليين لم يقيموا وزناً لمحاولاته في بلوغ اتفاقية سلام أن ينخرط في واحد من أعظم أعمال الخداع في التاريخ ، في عمل يرتقي الى مصاف الهجوم الياباني على ميناء (بيرل هاربر) والغزو النازي للاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية . لقد خطط جنباً الى جنب مع الرئيس السوري حافظ الأسد هجوماً فورياً ومنسقاً ضد الخطوط والمواقع الإسرائيلية على طول قناة السويس ومرتفعات الجولان . كان اليوم الذي اختاروه هو السادس من تشرين الأول عام ١٩٧٣ الذي يصادف (يوم خيبر) أقدس يوم من التقويم اليهودي . وحقيقة أن الإسرائيليين الذين طغى عليهم غرورهم وتبجحهم وظنهم أن العرب ضعاف ومتخلفين ، قد أخذتهم الحرب على حين غرة . بيد أن الأيام الاولى من الهجوم قد أثبتت أن الحرب أسوأ من المفاجأة . لقد اهتزت أركان البلاد من شدة الصدمة وخيمت عليها الهستيريا وغلبها الذعر . وهنا تناثرت ثقة ديان أشلاءً بينما كانت الجيوش العربية تمشي الهوينا وتقطع بالخطوط الإسرائيلية كأن أمامها قالب زبدة . وظن بعد أن أسدلت الحرب يومها الثالث أن نهاية الدولة العبرية قد حانت ، وتكلم بمصطلحات سفر الرؤيا عن (هدم المعبد الثالث) . لقد هدم البابليون المعبدالأول وهدم الرومانيون الثاني ، والآن قد حان دور العرب ليهدموا الثالث . وهنا قد تغير حال البلاد ومعها ديان رأساً على عقب ، فبعد أن غطوا لست سنوات في نشاط ما بعد حرب ١٩٦٧ خرجوا الان ليتذوقوا الهزيمة والإحباط .

كان رد فعل الحكومة الإسرائيلية جد متطرف اذ وضعت الحكومة منظومة سلاحها النووي في حالة إنذار للمرة الاولى . إن المحصلة الثانية للمذبحة التي تعرض لها اليهود على يد النازية الالمانية هي قرار بناء المفاعل النووي وصنع السلاح الذري

الذي بـادر به بن غوريـون في منتصف الخمسينات وكـان بحق الحدث الأكثر والأهم تطوراً في تاريخ إسرائيل الحديث والشعب اليهودي.

جرت مناقشة مشروع السلاح النووي الإسرائيلي في جو من السرية التامة بعد أن قرر بن غوريون وبعض من مستشاريه المقربين تجهيز البلاد بما تحتاجه من سلاح نووي ومذ حينها بقي المشروع سراً لا يعلم به الا حفنة من صناع القرار وأفذاذ العلماء وكبار قادة الجيش، بينما ظل حتى أعضاء في مجلس الوزراء غير عـالمين بحملات البناء الهائلة التي حصلت بين الاعوام ١٩٥٨-١٩٦٣ في قلب صحـراء النقب الواقعه في منتصف المسافه بين بئر السبع ومياه البحر الميت المالحة. ووقع الإختيار على مدينة (ديمـونة) التي يتألف غـالبيـة سكـانها من المهاجـرين السفـارديم لتكـون الموقع الـذري بفضل بعدها.

ظهـرت بـذور هـذا المشروع السري في الثـاني والعشرين من تشرين الأول عـام ١٩٥٦ في فيلا خاصة في ضـاحية (سيفرس) الباريسية. فقد اجتمـع في إحدى غرفها الفـارهة أنفـار من ثلاث دول هم: رئيس وزراء فـرنسا وبعض كبـار إدارييه ووزيـر خارجية بريطانيا ورئيس وزراء إسرائيل بن غوريـون وبعضاً من كبار مساعديه. لقد خططوا سـوياً لحرب ستعـرفها إسرائيل باسم (حملة سيناء) وسيعلمهـا العالم على انها (ازمة السـويس). نزلت القوات البريـة الإسرائيلية والمظليون بعد أسبوع من الإجتماع في صحراء سيناء المصريـه وشرعوا بالتحرك نحـو قناة السويس. هنا أعلنـت بـريطانيا وفرنسـا تماشياً مع مؤامرة سيفـرس إنذارا يفرض على إسرائيل ومصر تجميـد حركتهما عند بضعة أميـال من القنال. قبلـت إسرائيل الإنذار وفق ما خطط لـه مسبقا ورفضته مصر التي لم تكن تعلم مـا كان يـدور خلف ظهـرها فأعطت بـذلك ذريعـة لبريطانيـا وفرنسـا لإسقاط مظليين في منطقة القنـاة والسيطرة على الممر المائي الحيـوي. في هذه الأثناء كانت القوات الإسرائيلية قد أكملت غـزوها لجزيرة سيناء في أربعة أيام فقط.

هنا بدا أن هدف مؤتمر سيفرس قد تحقق وان الشهور الطويلة من التخطيط العسكري والاستخباري والتنسيق السياسي قد آتى ثماره.

تمثل الهدف الفرنسي-البريطاني بإعادة السيطرة على قناة السويس التي أممتها مصر قبيل اندلاع الأزمة ببضعة شهور. لقد اقلقتهم روح التأميم العربية الجديدة التي نهضت بها القيادة المصرية وان مصالحهم في الشرق الاوسط- سيما النفط- قد أفضت بهم الى قرار حل في ثناياه الإطاحة بنظام القاهرة الحاكم.

اما أهداف إسرائيل الصريحة وكما أعلنها جهاراً بن غوريون فكانت تحطيم الجيش المصري، تلك القوة التي أخذت تعد نفسها(لجولة ثانية) ضد الدولة اليهودية بهدف الثأر ولتستعيد الشرف الذي فقدته في حرب ١٩٤٨. كانت حملة سيناء كحملة عسكرية نجاحاً وفشلاً اذا ما نظرنا اليها كمناورة سياسية. لقد توجب على إسرائيل في غضون أسابيع وجيشها لما يزل يعيش غرة الإنتصار أن تعيد جزيرة سيناء الى المصريين بتأثير كبير من الولايات المتحدة الأمريكية. تلك كانت صفعة مؤذية لإسرائيل كدولة تقدمية تنشد السلام، فالحرب قد أعدوها حرباً إمبريالية عتيقة الطراز، واستنتج العالم أن إسرائيل قد غمست أصابعها في مؤامرة امبرياليـة أخطأت فيها الحساب. ان الحقيقه المخفيه أن بن غوريون انضم الى مؤامرة السويس الثلاثية استجابة لرغبته الجامحه في الحصول على قدرة نووية وهو ما أنجزته الحكومة الفرنسية بعد عام وبالتحديد في تشرين الأول عام ١٩٥٧ حين تطوعت بتزويد إسرائيل بمفاعل نووي كبير وبالمعونة التقنية والمواد والأيدي العاملة وهو ما مكن إسرائيل نهاية المطاف أن تنتج قنابل نوويه لتغدو بذلك الدولة السادسة بعد الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا والصين العضو في النادي النووي ذي الهيبة. لقد استحال حلم بن غوريون واقعاً فهو قد آمن أن السلاح النوي سيجعل من إسرائيل قوة لا تجاريها قوة في الشرق الأوسط، وسيكون بمثابة فرس الرهان الأبدي الذي سيحفظ

لدولة اليهود وجودها. وهو لكي يمنح رغبته في أن يملك سلاحاً نووياً تبريراً شرع هو وأتباعه يستحضرون دوماً مأساة المذبحة اليهودية المعاصرة كذريعة وتفسير ومصطلح يعينهم في ديمومة مشروعهم النووي حتى وان أثقل الضغط الدولي كاهلهم.

ويتشكل تاريخ ديمونة ومكانها عند جماعة علماء إسرائيل من رقاقة هشة من الأسطورة والتحريم. انه يمس أشد القلق وأعتى الخوف ويصل بنا الى جنون العظمة، بينما أسدل العهد الوطني تعززه الرقابة العسكرية على المشروع النووي بستارة سميكة من الصمت. بيد أن قادة إسرائيل قد وجدوا برغم هذه السرية سبيلاً ليخبروا شعبهم والعرب وبقية العالم - بمثل غمزة عالم بالأمور- أن وجود إسرائيل مؤمن عليه (بطريقة ما).

ثم جاءت حرب ١٩٧٣ مع مصر وجلبت معهـا أول تحد لسياسة إسرائيل النووية. لقد هيأت دولة اليهود نفسها لتستخدم السلاح النووي الذي صنعته سراً وأخفته في مفاعل ديمونة وجعلت منه سلاح يوم القيامة وفعلاً أخيراً للإنتحارية الدفاعية، ثم استخلصت القيادة الإسرائيلية في الوقت العصيب أن إسرائيل برغم خطورة الموقف لقادرة أن تهزم أعداءها بوسائل الحرب التقليدية.

أظهرت غولدا مائير ونفر من الجنرالات هدوءاً ملحوظاً في خضم هذه الأزمة سيما عند مقارنتهم بموشي ديان الذي أضل سبيل نفسه. فجأة سار ثبات غولدا المشكوك فيه وإرادتها القوية لصالحها. فإذا كانت هذه اللامرونة قد وقفت حائلاً ضد أية تسوية سياسية قبل الحرب، فإنها هي ذاتها التي مكنت إسرائيل أن تقف بوجه الهجوم العربي ساعة اندلاع الحرب. وبإدراكنا المتأخر للواقعة نستطيع القول أن حرب يوم خيبر قد انتهت بجلب الإنتباه، إذ لم تحقق سوريا ومصر من وجهة النظر العسكرية الا مكسباً محدوداً بينما حصلت الدول العربية على مكسب سياسي مهم

واحد وهو انها كسرت الجمود وأخرجت الصراع العربي الإسرائيلي من حالة الركود. لقد أراد السادات ربح العملية السياسية عن طريق تحرك عسكري وأفلح في هذ الصدد.

ان التوصل لحل سياسي غالباً ما يقع ولسوء الحظ بعد أن تكون حرب قد نشبت بين طرفي النزاع. فبعد حرب ١٩٧٣ ومن خلال التدخل الدبلوماسي للولايات المتحدة الذي قاده وزير خارجيتها النشيط (هنري كيسنجر)، توصلت كل من إسرائيل وسوريا ومصر الى إتفاقية مؤقتة شرعت بموجبها إسرائيل بالإنسحاب من شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان.

مضت إسرائيل لسنين تقول أن اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب هي لغة القوة، وهكذا أيضاً آمن العرب أن بمقدورهم إذلال إسرائيل بقوة العضلات والهجومات المباغتة. إن موافقة إسرائيل التي أعقبت حرب ١٩٧٣ بالإنسحاب من الأراضي التي رفضت سابقاً الإنسحاب منها انها توضح أيضاً أن العقل القيادي الإسرائيلي الجامح لقادر أيضاً أن يستمع ويساوم. من جانب آخر غيرت إسرائيل من نظرتها السابقة للعرب وقالت انهم الآن يوفقون بين أنفسهم ووجودهم.

وثمة عامل آخر ذو أهمية بمكان، إذ أصاب السادات حين قال أن تسعين في المئة من الصراع ذو طبيعة نفسية. لقد أوضح العرب للعالم وبرهنوا لأنفسهم انهم ليسوا حمقى متخلفين كما صورهم بذلك الإسرائيليون، ومزقت الحرب أسطورة إسرائيل التي لاتقهر إرباً إرباً، وأعادت للعرب الشرف والفخر اللذين فقدوهما في حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧. انه الشيء الذي وهبهم مقعداً يجلسون عليه ويتفاوضون مع إسرائيل.

وشهدت إسرائيل ايضاً تغيراً جذرياً فقد رأى العامة أن الإستخبارات الإسرائيلية

قد فشلت في حدس نوايا مصر وسوريا، وتعرض الإسرائيليون الذين ساروا في تصور أنفسهم جبارين لضربة قاصمة بهذه الحرب وكثر ضحاياها. إن ألفين وسبعمائة قتيل في مجتمع صغير ومتماسك كإسرائيل تمثل نسبة تعادل ما يربو على مئتي ألف في الولايات المتحدة، فاتخذ قسم من الشعب وخاصة من الجيل الشاب موقفاً ساخراً، وأضحت المقابر العديدة المنتشرة على طول البلاد وعرضها والتي أقيمت لتوازي جثث القتلى (مدن شباب) كما أحب هؤلاء تسميتها هكذا. وطالب أغلبية من نكبتهم الحرب بايضاحات من قيادتهم وأمست معاذير مائير وديان وحججهما قاصرة عن تهدئة موجة الإحتجاج العارمة التي اجتاحت إسرائيل في ذلك الشتاء، وتظاهر أبناء الجنود القتلى أمام منزل ديان رافعين أعلاماً تحمل الإتهام الوحيد: «يا قاتل»، واعتبروا كلاً من غولدا ولاسيما ديان من خطط لهذه الفاجعة القاصمة فتقدما باستقالتيهما مجبرين في نيسان عام ١٩٧٤. ثم كتبت غولدا في مذكراتها (ان المعلومة المرعبة بأني من كان بوسعه الحيلولة دون هذه الحرب ستبقى تحوم حولي حتى يوم مماتي). ورحلت مائير بعد أربعة أعوام. اما التغير في موقف الإسرائيليين تجاهها وتجاه ديان فكان مفاجئاً حقاً وجد جذري. لقد نالا من الإسرائيلين عام ١٩٦٧ مشاعر التبجيل وآيات العبادة وعقب ستة سنوات انقلب الحال عاليه سافله فكأن نصيبهما الإحتقار والإذلال. أن إسرائيل خلافاً لكل الدول الديموقراطية والاستبدادية لا تلتزم بإقامة نصب تقليدي على شرف قادتها أو شهرتها العسكرية، ولعل لوصية التوراة القائلة: «لا تضعوا اي تمثال حجري» أثر في ذلك. ولما كان الأمر مع دولة ذات أمزجة شفافة فان إسرائيل تبرع سواء في تنكرها أو تخليها لزعمائها الأبطال المنبوذين وهم لا يزالون احياء. لقد عاش ديان وغولدا تجربة المقولة الرومانية: «هكذا يموت مجد العالم».

لقد فقد حزب العمال سيطرته الفعلية على السياسة الإسرائيلية في تشرين الأول عام ١٩٧٣ ولما يزل يملك في حقيبته ثلاث سنوات ونصف حتى يغدو الإنتقال

رسمياً، وفي إسرائيل- وربما أكثر من معظم الديمقراطيات الغربية- غالباً ما يحل العقاب الفعلي بعد سنوات عديدة من الإنتظار. كان الحزب في انتخابات تشرين الأول عام ١٩٧٣ متهيئاً ليكسب جولة الفترة المقبلة، وارتقاء حزب الليكود الى السلطة عام ١٩٧٧ هو بمثابة استجابة متأخرةً لهزيمة ١٩٧٣. وفي خضم هذه الفترة الكائنة بين عام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٧ دقت مسامير إضافية في نعش حزب العمال. قبل أن يحصد بيغن وحزبه أغلبية في التصويت.

إستبدلت غولدا مائير وديان في ربيع عام ١٩٧٤ بمجموعة جديدة ظاهرياً من السياسيين ترأسها الجنرال السابق اسحق رابين البالغ من العمر واحداً وخمسين عاماً. كان في مرحلة الشباب نسبياً وذو مظهر حسن حين انتخبوه لرئاسة الوزراء. إن وجود رئيس وزراء شاب شيء غير مألوف في الساحة السياسية الإسرائيلية التي تعودت على قادة مسنين. مثّل رابين جيل أبناء الآباء المؤسسين، واذا ما تصفحنا تاريخه الشخصي نجده يمثل الصبارين (اليهود المولودين في إسرائيل) الأسطوريين من الطبقة الممتازة. كانت وتيرة كلامه ضخمة وهو يلفظ عباراته بطريقة خشوبة تماماً. لقد قاتل ضد الجيش البريطاني في قوات نخبة المهمات الخاصة السرية لحزب العمال وكان أصغر العقداء سناً في حرب عام ١٩٤٨ ونال استحساناً طيباً في عام ١٩٦٧ على دوره رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي. وقد جاء في الملف النفسي لوكالة المخابرات المركزية (CIA) أن رابين انطوائي للغاية، ويمقت الكلام المخادع الذي تتطلبه الدبلوماسية، وبرغم هذا تم تعيينه سفيراً لإسرائيل في الولايات المتحدة في السنوات الأربعة التي أعقبت حرب ١٩٦٧.

فشل حزب العمال تحت قيادة رابين أن يعيد الشعب المشدوه بصدمة ١٩٧٣ الى صوابه: لقد أحطت خصومة رابين مع وزير دفاعه شمعون بيريز كثيراً من سلطاته وسارت معدلات التضخم من سيء الى أسوأ فغرق البلد في أزمة اقتصادية عويصة.

والأدهى من هذا وذاك أن الفساد سيما الصادر من أعضاء كبار قد نخر حكومة رابين حتى بلغ السيل الزبى حين كشف النقاب علناً عن أن رابين وزوجته قد حازا بصورة غير شرعية على عشرين ألف دولار أمريكي في حساب مصرفي في واشنطن . ها هنا غدا حزب العمال في عيون الإسرائيليين رمزاً للفساد، وهي منظمة متعصبة لا تبابه لغير حالها وحال أعضائها بشيء فهي منكرة لمصالح الأمة جمعاء، ولو حصل في السابق أن نظر الحزب والناس أحدهما للاخر ولأنفسهما كجسد واحد لغير كثير من الناس رأيهم اليوم. واذاً لم يمر وقت طويل حتى يفقد حزب العمال سلطته ويتزحزح من عتبة السلطة في إنتخابات عام ١٩٧٧ ليحل محله حزب بيغن-الليكود.

مناحيم بيغن: طيرٌ نادرٌ في قفص طيور إسرائيل السياسي. كان أسلوبه مختلفاً عن غيره ويبقى خارجاً كأنه غريب بين سياسيي البلد. ولد بيغن في بولندا عام ١٩١٣ واختطت (الصهيونية التطورية) التي شربها إياها معلمه السياسي والأيديولوجي فلاديمير زيف جابوتنسكي بصماتها داخل أعماقه وهو لما يزل صبياً.

كان جابوتنسكي هذا المولود في ميناء اوديسا عام ١٨٨٠ الطفل المعجزة للحركة الصهيونية الروسية. لقد عمل بعد أن وضعت الحرب الكونية الاولى أوزارها مع بن غوريون في الحركة الصهيونية كمستشارين سياسيين وجامعي أموال ودعاة لجميع أغراض الصهيونية. بيد أن مسارهما أخذ بالافتراق عام ١٩٢٣. فقد غطت الظلمة أمل جابوتنسكي الذي افترض أن تحققه بريطانيا في الحال وهو إنشاء دولته اليهودية وجيشه المستقلين، وعليه انشق عن تيارصهيونية بن غوريون واستفاق يؤسس قوة معارضة تطورية في الحركة الصهيونية غدت بعدئذ منظمة سياسية تعرف باسم "الحركة التطورية". هذه الحركة على اية حال لم تجد في نفسها بالخارج الجذري عن الصهيونية التقليدية، بل على العكس من ذلك كله اعتقد جابوتنسكي وأتباعه التطوريين انهم حملة المشاعل والورثة الحق لهيرتزل وصهيونيته السياسية القديمة وهو

قد شعر أن الذي بحاجة للتطوير ليس الصهيونية بل سياساتها الراهنة .

تيمم جابوتنسكي بالفاشية الايطالية وزعيمها بيتينو موسوليني ، وهنا وسمت التطورية علامة صهيونية قاسية لا تعرف الرحمة مجردة من العاطفة غير مؤمنة بالتسوية . ذاك هو نمط وحشية الصهيونية الذي عبرت عنه أقوال وأفعال مناحيم بيغن ومن بعده اسحق شامير . لقد حاول أعضاء حركة جابوتنسكي التطورية في الثلاثينات أن يحاكوا النموذج السياسي وحضارة الحق الاوروبي ، ولأنهم ظنوا بالليبرالية (التحررية) والديموقراطية كائنين ضعيفين فقد آثروا أن يكونوا يهوداً فاشيين ، وانسجاماً مع هذا الدور وأدوارهم الأخرى ، إرتدى من انخرط في حركة جابوتنسكي قمصان بنية اللون وأقاموا الاستعراضات ونظموا المظاهرات وعبدوا زعيمهم ، بل إن بعضهم أثار جدلاً أن هتلر لو لم يكن معادياً للسامية لانضموا له مؤيدين إشتراكيته الوطنية .

لقد استوعب جابوتنسكي بحلول عام ١٩٢٣ وما بعده أن الصراع مع العرب (لعبة نتيجتها صفر) بحيث أن كل مكسب للعدو انّى كان يمثل خسارة لليهود . وعليه فان الحل الوحيد الذي رآه جابوتنسكي الأنسب هو أن يكونوا دوماً أقوياء ومستعدين للعبة الصراع . واعتقد ايضاً أن دولة اليهود لن تجد حيزها في الوجود بغير سبيل الدم والنار . ولانه قد اقتنع أن هذه حتمية تاريخية فقد دعى في الثلاثينات الى الإستيلاء على إسرائيل ايريتز وفتحها بصراع دموي . وهو قد ذهب أبعد من هذا في ايمانه ليقول أن (الجدار الحديدي) الذي ستشيده الصهيونية غير الهيابة وحده القادر على كسر طوق العرب ولتقوم الدولة اليهودية في منطقة محفوفة بالعداءات .

بيد أن خلافات أخرى في التفكير والأسلوب ما برحت قائمة بين بن غوريون وجابوتنسكي . فجابوتنسكي شخص يحلم يافطاً ورومانسي ومغامر جاهز لركوب المخاطر . اما بن غوريون فمشدود أكثر الى أرض الواقع وهو عملي وسياسي عاقل

ومسؤول.

بلغت الخلافات بين التطوريين والاشتراكيين أشدها ما إن حلت منتصف الثلاثينات وما بعدها، فهي قد اتسمت بالعنف والمرارة وبذلت كل طائفة مساعيها لتعطيل اجتماعات الاخرى وتشتيت تجمعاتها السياسية، وذروة هذه الخلافات أخذت شكل العراك بالأيدي. وأعلن جابوتنسكي جهاراً أن بن غوريون وأنصاره الاشتراكيون ينزعون الى سياسات استرضائية، واتهمهم بالتخلي عن حقوقهم للإنجليز والعرب، فهو يؤمن بإسرائيل الكبرى: إن اليهود مؤهلين لأرض إسرائيل التوراة بطولها وعرضها بما في ذلك إقليم شرق الأردن. فهذه المنطقة قد وهبتها الإمبراطورية البريطانية هدية الى الملك الهاشمي عبدالله وهذا هو المكان الذي تأسست فيه إمارة شرق الأردن عام ١٩٢٣ المعروفة اليوم باسم الأردن.

أطلق جابوتنسكي عام ١٩٣٧ جناحاً عسكرياً لحركته التطويرية ودعاه (اتزل) وهو الرمز العبري للمنظمة العسكرية الوطنية ومن ثم دعيت للسهولة باسم (أرغون) (منظمة). قامت هذه المنظمة بمهاجمة الجنود البريطانيين والمنشآت العسكرية ونظمت الهجرة غير الشرعية ليهود اوروبا الى فلسطين وفي عين الوقت شرع أعضاؤها بممارسات إرهابية بما في ذلك قتل العرب الأبرياء الذين يمرون في أحياء اليهود، كما قاموا برمي القنابل على الحافلات العربية وداخل الاسواق العربية.

علقت نشاطات الأرغون العسكرية بعد موت جابوتنسكي في عام ١٩٤٠ واندلاع الحرب العالمية الثانية ومن ثم استؤنفت في عام ١٩٤٤، وتم إنتخاب مناحيم بيغن رئيساً سياسياً وقائداً لحركة التطوير. في عام ١٩٤٢ ألقى العملاء السوفيت القبض على مناحيم بيغن في فلنو-ليتوانيا وزجوا به في السجن بتهمة إثارة حملات الدعاية الصهيونية، وسمحوا له بعد أن أطلقوا سراحه أن ينضم الى الجيش البولندي في المنفى. تحرك هذا الجيش الذي تولت رعايته بريطانيا الى روسيا وفلسطين بعد أن

تراجع تحت وطأة الاحتلال الالماني فانتهز الكثير من أعضائه الفرصة وبقوا في إسرائيل ايريتز. الا أن بيغن أبى أن يقوم بذلك وبهين كرامته كجندي بولندي وبعد أن غادر الجيش البولندي رسمياً شعر انه قادر على تسلم زمام القيادة في الأرغون.

لقد تجذر الحقد المتبادل عميقاً بين فرعي الصهيونية بعد موت جابوتنسكي وتأسيس دولة إسرائيل، وتعمق معه مقت بن غوريون على مدى سنين الى الحد الذي رفض فيه أن ينادي مناحيم بيغن باسمه وأشار اليه أثناء المناقشات البرلمانية (بالرجل الجالس بعد ...). كما قاطعت حكومة حزب العمال وعلى مدى العقد الأول من قيام الدولة جماعة بيغن وأبقتهم خارج الدائرة العامة وحظروا عليهم أن يكونوا معلمين أو مثقفين لئلا (تتسمم) عقول أبنائهم، وجنحوا الى ايقاف ترقية جماعة بيغن في الخدمة العسكرية، وامتنع بن غوريون وصحبه من الإشتراكيين عن قبولهم في الشاباك وهي مكتب التحقيقات الاسرائيلية، ولم تتوانى حركة حزب العمال عن توظيف الأجهزة السرية المحلية لأغراض سياسية. إذ أصدرت الأوامر في مطلع الخمسينات الى وكلاء الإستخبارات بالتسلل الى أحزاب إسرائيل السياسية وبخاصة حزب بيغن-حيروت (الحرية) الذي تأسس ليكون خليفة لحركة التطوير ثم اندمج في مستهل السبعينات داخل كتلة الليكود المشكلة حديثاً.

إن بيغن نتاج عصره وبيئته السياسية وتجربته الشخصية. كان جد كاره للشيوعية والالمان فهو قد فقد جميع أعضاء عائلته في المذبحة النازية.. وغدت الإبادة الجماعية التي تعرض لها شعب اليهود بالنسبة له مشعلاً ينير الدرب لجميع قراراته السياسية، ورأى في المذبحة تهديداً مستمراً وأبدياً فيا سلاها فمه في اية خطبة ألقاها وأضحت مسنده أنى حل، وطوع ميراثها كأداة سياسية في صراعه ضد حكومة بن غوريون. وقد بلغ هذا الصراع أشده مبكراً في مطلع عام ١٩٥٢ حين نظم بيغن مظاهرة احتجاج واسعة في القدس آلت الى الانتهاء برجم مبنى الكنيست بالحجارة كرد فعل

على قرار الحكومة بقبول التعويضات الالمانية . لقد ساعد هذا الحادث بيغن في جعل موروث المذبحة قيمة بديلة عن أسلوب بن غوريون غير الشغوف في السياسة الواقعية .

وعلى نحو مشابه أثار بيغن والليكود غداة وصولهم السلطة في مارس عام ١٩٧٧ فكرة إسرائيل ايريتز كبديل لفكرة حزب العمال في الدولة ، ويحق القول هنا انها فكرة جاءت لتحل محل المذبحة كسلاح سياسي لبيغن والليكود . وتكمن الحقيقة في أن فكرة إسرائيل ايريتز كانت سبيلاً أسهل على الليكود أن يسلكه ، فهي فكرة غرسها منذ عام ١٩٦٧ -حزب العمال -وان كان بشكل جزئي- في قلوب وعقول الإسرائيليين وما كان على بيغن الا أن يجني الثمار أينما تركها حزب العمال .

بعد شهرين من فوزه في الإنتخابات وبالتحديد في تموز عام ١٩٧٧ ذهب بيغن الى (ألون موريه) المستوطنة الكائنة في الضفة الغربية وتلك كانت أول جولة من سلسلة جولات قُدر لها أن تبقى سمته الثابتة . أن ألون موريه -طبقاً لما ورد في التوراة- هي أول مكان نزل فيه أبراهام في كنعان بعد خروجه من بلاد الرافدين حيث بنى فيها معبداً لله ، وهي كما يراها المتدينون والوطنيون مهداً للأمة اليهودية . وفيها أقامت إسرائيل مستوطنة عام ١٩٥٧ على الأرض التي صادروها من قاطنيها الفلسطينيين . وفي هذا اليوم من عام ١٩٧٧ شارك بيغن جماعة المستوطنين المبتهجين في رقصاتهم وواعدهم بمزيد من (مستوطنات ألون موريه) .

هذا هو واحد من أوائل بيانات بيغن الى العالم : انها ايماءة رمزية ودلالة أن قلبه مع المستوطنين وتأييده للمستوطنين . اما العرب وبقية شعوب العالم فقد ترجموا الرسالة أن الليكود لن يتخلى عن شبر من الضفة الغربية . بيد أن بيغن ومهما بلغ الأمر من حال كان يرسل إشارات مختلفة ايضاً بعيداً عن أضواء التلفاز . اذ وظف القنوات القديمة للأبواب الخلفية بين جهاز الاستخبارات السري (الموساد) والعالم العربي وقام

بتبادل رسائل سرية مع رئيس مصر أنور السادات وقد أناط مهمة إجراء المفاوضات السرية -وهذا ما يثير الدهشة- بموشي ديان، وربما أراد أن يرفع الحظر السياسي المفروض من الشعب الإسرائيلي على الجنرال ذي العين التجميلية بسبب دوره في حرب ١٩٧٣.

وأصبح ديان المقدام الذي وصفوه بالمرتد داخل حزبه (العمال) وزيراً لخارجية بيغن. كانت تلك فرصة ذهبية قدمها بيغن لديان: إذ ربما استطاع من خلال مفاوضات السلام أن يحسن من صورته أمام العامة.. تلك الصورة التي تشوهت كثيراً من دوره في الكارثة الحديثة العهد لحرب يوم خيبر. بيد أن الصورة أبت أن تتحسن داخل صفوف حزبه أو أمام الشعب اليهودي. وهي قد ألقت ضوءاً مريباً عما اذا كان بيغن قد شعر أن ديان أو حزبه قادرين على إدارة البلاد. ومن الوجهة الظاهرة توجس رئيس وزراء إسرائيل الجديد من الضغط الناجم عن الحملة الدعائية (لمروّج الحرب) التي استخدمت ضده. لقد قرر بيغن أن يبرهن أنه داعية سلام، ووضع المهمة على كاهل ديان المتمرس الذي ما زال يحتفظ بإحترام العرب له، واعتقد بيغن أن ديان الصباري يعرف أفضل من غيره كيف يتحدث الى العرب وهذا ما حصل فعلاً: أمسى ديان المتعهد الثانوي بيغن السلام.

لم يكن لإشارة بيغن الاستفزازية حول الون موريه في مطلع رئاسته الوزارية وقعاً لدى الرئيس المصري. أن ما أراد السادات أن يعرفه من قادة العالم الاخرين هو اذا ما كان بيغن زعيم شرف يمكن ائتمانه لتسليمه ودائع السلام. إن تعامل السادات السابق وما فهمه من ضعف من قيادة رابين قد حدث به الى الوصول الى اتفاقية مؤقتة مع إسرائيل ولكنها ليست معاهدة سلام كاملة. كان الجواب الذي تلقاه السادات من العالم هو (نعم موكدة)، وهكذا بدأت مفاوضات ديان السرية مع مستشاري السادات في الدوائر التابعة لملك المغرب الحسن الثاني وسحبوا سوية مسودة لاتفاقية سلام.

وأعرب السادات أثناء مقابلات أجرتها معه قنوات التلفاز الأمريكية في مطلع تشرين الثاني عام ١٩٧٧ عن استعداده (للذهاب الى آخر العالم بما في ذلك القدس) في إطار مساعيه نحو السلام. لم يتردد بيغن أن ينضم لمستمعي هذا التصريح ويوجه الدعوة للسادات ليخطب في الكنيست، وقبل الرئيس السادات العرض!!!!.

وفي ظرف أقل من اسبوع استعدت كل من إسرائيل ومصر والعالم بأسره لأول زيارة رسمية يقوم بها زعيم عربي الى إسرائيل. في ذلك السبت الموافق السابع عشر من تشرين الثاني من عام ١٩٧٧ التصق الاسرائيليون صغيرهم وكبيرهم بشاشات التلفزة، ومسح الكثيرون منا دموعهم حين حطت الطائرة المصرية في مطار بن غوريون وظهر السادات مرتدياً كعادته بذلة ليس فيها من عيب وصافح بيديه الإسرائيليين الذين هم حتى لحظة نزوله أعداؤه. لم يحضر لاستقباله أعضاء مجلس الوزراء فحسب بل حتى قادة المعارضة وبضمنهم العجوز غولدا مائير. وسمع جميعهم الرجل الذي ما خطا خطوة واحدة حتى أبان: إنني لست بمراوغ، انني اريد السلام. لقد كان ثمة شيء يوحي بان التاريخ يصنع هنا، مثلما شاهد الجميع.

وعاهد السادات وبيغن في خطابيهما في الكنيست: لن تدور رحى حرب ثانية ولن تراق مزيد من الدماء. لقد خطت عملية السلام خطوتها. وثمة عامل مهم آخر هنا، انه الدعم المطلق من جانب الرئيس الأمريكي جيمي كارتر الذي اشترك بشخصه ووجدانه في المفاوضات. إن كارتر المعمد الذي الهمته عاطفته الدينية مع الأرض المقدسة والمستجيب لرغبته الجامحة في رفع العالم الى مستوى أفضل وأكثر سلماً كان الأكثر من اي شخص آخر في تحقيق اتفاقية السلام.

تم توقيع اتفاقية السلام الاولى بين دولة اليهود وبين بلد عربي في خيمة فارهة ملونة في أحد مروج البيت الأبيض وتناقلتها وكالات التلفزة على نحو واسع، وفيها تصافح الثلاثة بيغن والسادات وكارتر. كانت أكثر من مجرد ابانة رمزية فهؤلاء القادة

الثلاثة هم حقاً صناع السلام .

جمعت الرجلان بعض خصال الشبه برغم الإختلافات الأخرى الموجودة بينهما والمتمثلة بتمسك بيغن بصغائر الأمور بصفته محامياً واللامبالاة التي تحلى بها السادات حيال بعض التفاصيل الدقيقة . لقد اشترك الرجلان بتذوقهما للدراما واحساسهما للتأريخ ، فكلاهما رغب أن يحجز له التاريخ مقعدا في سفره . كانت اتفاقية كامب ديفيد ذات الثماني صفحات جد مفصلة ، بيد أن كلا الطرفين أدركها بالطريقة التي يشاء . فالسادات ظن انه سيجني من وراء الإتفاقية دعم الولايات المتحدة المالي له (وهذا ما حصل فعلاً) لمساعدته في النهوض باقتصاده المتداعي ، وعادت له فوق هذا شبه جزيرة سيناء التي استثمرت فيها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ عشرين مليون دولار في أعمال التطوير بضمنها حقول النفط ومنتجعات الغطس في البحر الأحمر . وقد آمن السادات في عين الوقت انه بتوقيعه اتفاقية السلام انما يضع حجر الأساس لاتفاقية مستقبلية بين إسرائيل والفلسطينيين . واعتقد بيغن من ناحيته انه صنع سلاماً لا نظير له مع أقوى وأكبر دولة عربية . وكان يأمل من السادات تخليه مقابل سيناء عن الفلسطينيين وأن يحصل منه على الدعم اذا ما وصل الحديث الى قضية الضفة الغربية وقطاع غزة . وهو قد شعر انه قادر على إعادة سيناء لانها حسب وجهة نظره ليست جزءاً من الأمة الإسرائيلية الكبرى المشار اليها في التوراة . لقد سار كلاهما في سبيل ضال .

واخيراً فان اتفاقية السلام برغم أهميتها السياسية والفعلية كانت حصيلة تصورات خاطئة لكلا الزعيمين . فالسادات ألمح ذات مرة (ان بيغن قد خذله الندم بعد ثلاث ساعات من توقيع الإتفاقية) . أما بيغن وان لم يكن آسفاً حقاً فقد خشي عواقب هذا الأمر بخصوص القضية الفلسطينية . فها هي منظمة التحرير الفلسطينية قد رفضت الإنضمام الى الإتفاقية واعترضت على أن الحكم الذاتي غير مقنع

للفلسطينيين ذلك انه لا يستجيب لطموحهم في إقامة دولتهم. ثم أن (آبا ايبان) أشهر ديبلوماسي مقتدر في إسرائيل قد صرح ذات مرة بأن العرب ولاسيما الفلسطينيين لم يدعوا مطلقاً فرصة أخرى تفلت كي يفقدوا فيها فرصة أخرى.

لقد أوردت اتفاقية السلام في عام ١٩٧٧ قضية الحكم الذاتي للفلسطينيين في الأراضي المحتلة كحل موقت لمدة خمسة اعوام، بعدها يقرر الإسرائيليون والفلسطينيون الوضع الدائمي للحكم الذاتي للفلسطينيين. وبدأ القلق ينتاب بيغن وهو الذي صاغ مسودة خطة الحكم الذاتي خشيةً على صورته الجديدة. وهو وإن سار للسلام بقدميه تحدوه آمالاً من بينها البرهنة لخصومه أنهم أساؤا الحكم عليه وأنه رجل مختلف قد أصابه الشعور بالحاجة الى أن يعرض أمام مؤيديه انه لا يزال بيغن نفسه. فكثير من أنصاره أصابتهم الصدمة وهم يرون أن بيغن-كاره العرب- يتصرف (بلين) مع العرب، والأمرّ من هذا أن زعيمهم المدهش وافق على إزالة عشرات المستوطنات اليهودية في سيناء والتضحية بألوف المستوطنين على مذبح السلام. وعلى حين غرة وجد بيغن نفسه في أتون صراع مع العديد من أصدقائه وحلفائه، ورآه الناس الذين كانوا في جانبه على مدى عقود (خائناً) يبذر بذور تأسيس دولة فلسطينية مستقبلاً. ووصل الأمر أن بعضاً من رفاقه الذين نذروا أنفسهم له قد أقدموا على الاستقالة من مجلس الوزراء وكتلة الليكود في عام ١٩٧٩ من أجل إنشاء (حزب النهضة الجديد) الذي حمل (مشعل الرفض) (الرافضية)، فكان هذا ضغطاً أثقل كاهل بيغن وارتأى أن يغير من توجهاته قبل أن يسبق السيف العذل! فقرر أن يدرك مسبقاً العملية التي ستفضي الى تحقيق حكم ذاتي للفلسطينيين.

إن الأداة الرئيسية للمماطلة عند التعامل مع العرب هي إنشاء الكثير الكثير من المستوطنات اليهودية في الأراضي التي تحتلها إسرائيل، وهنا عزم بيغن على الوفاء بتعهده الذي أخذه على نفسه قبل سنتين في (الون موريه) وقبل أن يشرع في عملية

السلام . وها هي حكومته تسقي الضفة الغربية بعشرات المستوطنات الجديدة . وقد طلب عمداً حشر بعض المستوطنات في وسط أكثف المناطق المأهولة بالعرب . فلا عجب اذاً أن يندهش الفلسطينيون والعالم بأسره من سياسات الاستيطان الحكومية الإسرائيلية المزمع من ورائها تخريب عملية السلام عن سابق قصد .

انطوت خطة بيغن ومن بعده شامير على جعل قبضة إسرائيل على تلك الأراضي المحتلة غير قابلة للرفع ، وكان مدى نجاح الليكود في هذا كبيراً . فحكومة العمال ليست في السلطة الآن واذاً سيغدو الأمر عليها صعباً إن لم يكن مستحيلاً التوصل الى اتفاقية سلام على أساس المساومة على الأراضي التي ستعيد أغلب الضفة الغربية الى العرب . والحق أن بيغن والليكود حولا المنطقة الى خليط متكامل يجد فيه الفلسطيني القروي نفسه يعيش جنباً الى جنب مع المستوطنين اليهود أو انهم يحيطون به من كل ناحية .

أما الرجل الذي تولى قيادة مشروع بيغن الاستيطاني اليهودي فهو (أرئيل شارون) . إنه واحد من مجموعة من كبار ضباط الجيش الذين انضموا الى الليكود مطلع السبعينات ، وهو ما يدعونا الى القول أن انضواء الرجال العسكريين تحت راية حزب الليكود حتى قبل أن يتولى السلطة يؤكد حقيقة أن الحزب كان يحرز مسحة تأثير قوية على جميع أفراد المجتمع الإسرائيلي . كان شارون في واقع الحال واحداً من أعمدة الليكود حين تشكل عام ١٩٧٣ باعتباره كتلة أحزاب وجماعات جناح اليمين . وقد أدى به إخفاقه في تبوء منصب رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الى تقديم استقالته وهو متأثر بنوبة عصبية بثلاثة أشهر قبل حرب يوم التكفير كما حدا به الغضب الى تنظيم ائتلاف اليمين .

ولما اشتعل أوار الحرب استدعي شارون كحال اي احتياطي آخر وآل به الحال أن يراه الجندي الاعتيادي كأنه أحد أبطاله . لقد اطلقوا عليه اسم (ايرك - ملك إسرائيل)

نكاية برأي الجنرالات الأخرين الذين اعتقدوا أنه أبدى تقديرات سيئة واقترف أخطاءاً تكتيكية. فحضور شارون يصنع دوماً أينما أراد أن يظهر هزة كبيرة.

ولد شارون الصباري من عائلة فلاحية في منطقة ريفية غير بعيدة عن تل أبيب وقاتل في حرب ١٩٤٨ وجرح ثم تماثل للشفاء، وهو يتمتع بسيرة طويلة في سجلات القوات المسلحة الإسرائيلية، وبصفته قائداً لأول وحدة للقوات الخاصة الإسرائيلية وأول لواء مظلي إسرائيلي فقد نال سمعة لا تطالها الشبهات كمقاتل باسل. لقد عرفوا أنه تعود المشي فوق حبل مشدود بين أن يطيع أوامر رؤسائه وبين ترجمتها بطريقته الشخصية المميزة. لقد شارك في بعض من أقسى معارك إسرائيل ضد العرب، وتولى عام ١٩٥٣ عملية الإنتقام من بعض المتسللين العرب داخل الأراضي الإسرائيلية والتي تسببت في قتل عشرات المستوطنين اليهود. وفي واحدة من أكثر القضايا جدلاً انتقمت وحدة شارون من قرية أردنية تدعى (قبية). إذ ارتأى شارون وبعض من مساعديه أن يتولوا أمر عدد من المنازل باخلائها من ساكنيها ومن ثم نسفها، غير أن حسابات عملية الإخلاء كانت سيئة وبقي عدد من الساكنين في ديارهم، فقضى تسعة وأربعين شخصاً نحبهم بعد أن انهارت عليهم منازلهم. كانت صدمة كبيرة للعالم، ولجأ بن غوريون القلق والمحزون الى الكذب في ايضاحه أن ذلك تصرف قام به (مستوطنون يهود) دون أن يكون للسلطات الإسرائيلية علم به، ممسكاً عن الاعتراف بمسؤولية الجيش عن الحادث وبالتالي مسؤوليته بصفته وزيراً للدفاع!!.

إن هذا النمط من سوء التأويل هو في الحقيقة سمة استراتيجية لمؤسسي الدولة الآباء. فقد راقهم ارتكاب أعمال الإنتقام الخسيسة وإرهاب العرب والبطش بهم، بعد أن وجهوا اليها الشباب المتحمسون أمثال شارون بينما أبقوا على صورتهم البريئة والطاهرة خلقيا.

اتخذ ضباط الجيش وكذلك سياسيو حزب العمال موقفاً مزدوجاً حيال شارون:

فهم قد احترموه وخافوه في ذات الوقت. ولما غادر الجيش رغب بعض سياسيي حزب العمال أن ينضم الى صفوفهم. ويعيد الينا موقفهم هذا، الموقف المنسوب الى الرئيس ليندون جونسون: من الخير أن تحتضن الوغد داخل الخيمة وهو يبول الى الخارج من أن يفعل ذلك بالطريقة العكسية. إنهم ارادوا شارون بمعيتهم وخافوا منه العكس في أن يخلق لهم المتاعب. بيد أن المعارضة على انضمام شارون لمخيم العمال كان لها اليد الأطول فرفضوا قبوله في صفوفهم.

اختار بيغن شارون وزيراً للزراعة في المجلس الوزاري الذي شكله عام ١٩٧٧، ووجد شارون الذي يمتلك مزرعة كبيرة ومزدهرة بإسرائيل نفسه مزارعاً حق، والملح بشيء من التأكيد انه باق رجل حزب العمال ما حيا بيد أن العمال نفسه قد تغير وانجرف بعيداً عن عقيدته.

كان أمل شارون أن يتبوأ منصب وزير الدفاع، غير أن بيغن كان متناقضاً معه أيضاً. فهو قد أطلق على شارون لقب (أعظم جنرال للشعب اليهودي منذ عهد المكابيين) الذين قاتلوا الاغريق ببسالة قبل أكثر من الفي سنة خلت. بيد أن بيغن أوجس من الجانب الآخر خيفة من شارون ومقت بعضاً من سماته لاسيما طموحه الجموح، وقد كشف يوماً أحد وزراء بيغن الثقاة أن رئيس الوزراء قد عبر عن قلقه من أن يتسلم شارون منصب وزير الدفاع فهو لن يتردد في أن يطوق مكتب وزير الدفاع بالدبابات ويغتصب السلطة المطلقة. وبسرعة أوضح بيغن أنه كان مازحاً في قوله.. غير أنه قليلاً ما كان يمزح.

شرع شارون بمهمة بناء المستوطنات بسرعة كأنه في هجوم عسكري خاطف، فهو قد أنشأ بين الاعوام ١٩٧٧ - ١٩٨١ مائة مستوطنة في الضفة الغربية وقطاع غزة أغلبها صغيرة جداً في مساحتها لا تتسع الا لعشر أو عشرين عائلة، بيد أنه دفع نسبة السكان اليهود في هذه المناطق الى الزيادة من عشرة آلاف الى خمسين الف.

كان النظام الذي اتبعه بيغن ومن بعده شامير جد بسيط، فبفضل الدعم الحكومي المتمثل بالحوافز والمعونات يمكن توفير الإسكان الرخيص. هذه البيوت غير المكلفة الثمن التي ستشيد في المناطق المحتلة ستحوز على طلبات الأزواج الشباب الذين جاءوا من مناطق فقيرة تم تأسيسها في مرحلة الخمسينات. فلا عجب اذاً حين بدأت جموع كبيرة من الشعب تؤيد نشاطات بيغن وشامير وشارون. وقدر تعلق الامر بالمستوطنين فانهم قد أصبحوا حلقة متكاملة. فذاك حزب العمال قد أقصى بهم الى مناطق فقيرة موحشة وهذا الليكود ينتشلهم منها مانحاً إياهم الفرصة الذهبية في أن يجعل لهم مأوىً كل باسمه الخاص.

الفصل السادس

ثورة اليهود الشرقيين الخفية

شهد التاريخ الإسرائيلي عام ١٩٦٤ أي قبل ثلاث سنوات من حرب الأيام الستة تغيراً هاماً كان في ذات الوقت تغيراً لامرئياً، فللمرة الاولى في تاريخ إسرائيل فاق عدد اليهود الشرقيين (السفارديم) عدد (الأشكيناز). ولم يتم استيعاب أهمية هذا التغير الديموغرافي (الإحصائي) الا بعد مرور عقدين من السنين وعشية ارتقاء الليكود سلم السلطة. انه صوت اليهود الشرقيين ذلك الذي غير أخيراً ميزان القوى مطيحاً بحكومة العمال رافعاً بيغن - الليكود الى عرش الحكومة. وحتى تضع على نحو أشمل تأثير التطورات الديموغرافية والعرقية على إسرائيل اليوم، يتوجب علينا ان ننزاح بعيداً عن المدينة الواسعة الصاخبة - تل أبيب - وعن سياسات السلطة في القدس ماضين نحو المصلى الكنسي الساحر الواقع في أحد المعالم الشاهقة.

توجد في الغابات القريبة من صفد التي هي البلدة المركزية لمنطقة المصلى مجموعة كبيرة من الأضرحة، ويقال أن هذه المقابر هي قبور حاخامات اليهود البارزين الذين عاشوا في العصور الوسطى وما قبلها حيث كانت أغلبية اليهود في المنفى. ويرى الكثير من اليهود الشرقيين في هذه الأضرحة أماكن مقدسة وان تكتل هذا العدد الكبير من المواقع المقدسة حوالي صفد ليس بظاهرة مدهشة ذلك ان المدينة لها علاقة وثيقة بتاريخ وظهور المذهب الصوفي (kabbalah) التي تعني حرفيا في اللغة العبرية

(استقبال) كما يمكن ترجمتها بـ (تقليد). أما النص الصوفي الرئيس فيعزى الى عالم يهودي عاش في القرن الثاني للميلاد في مدينة صفد وهي إحدى المدن اليهودية الأربعة المقدسة. وبينما يتمعن اللاهوت اليهودي الغالب في العقلانية نرى المذهب الصوفي او (الكابالا) يرقب العالم عن كثب فيما وراء الحقيقة والعقل. انه نوع من التصوف اليهودي ذي الهدف الرئيسي بتعلم كيف يقرب المرء من الرب بود؛ أي (الشعور) به بدلاً من القيم المجردة.

وكنتيجة ثانوية لهذه الصوفية يلجأ المؤمنون بها الى عزو القوى السحرية الى القبور القريبة من صفد وهم يظنون بالذي دفن فيها قديساً، وقد نشأ مفهوم القديس في القرن الثامن عشر بين اليهود الأشكيناز في اوروبا الشرقية ولكن المفهوم وصل أيضاً مجتمعات السفارديم سيما أولئك الذين عاشوا في المغرب. والقديس رجل خير عرفوا عنه صراطه المستقيم وحياة تقية أخلاقياً ويساعد الفقراء والناس البسطاء ويعتقد انه يتمتع بقوى شافية.

إن العديد من هذه القبور مثل قبر الحاخام (جوناثن بن عوزيل) تقوم مقام أماكن الحج لألوف النسوة اللواتي يتمنين الزواج او الحمل. ولايكتفي العابدين بإقامة الصلاة بل ان يتركوا قطعة منزوعة من قماش او يضيئون الشموع على القبر ويعتقد أيضاً ان المصلي على قبر القديس يتوسط بين الله وبين ايمانه.

وغالباً ما تتحول زيارة الحج هذه الى حدث عائلي صاخب نابض بالحياة تملأه الموسيقى الصاخبة الصادرة من أجهزة التسجيل المحمولة، ويتصاعد دخان لحم الخنزير المشوي مشكلاً طبقة ثخينة تغطي هواء المنطقة، وتوفر الشروط الصحية شيء أساسي في هذه العبادات التي استحالت الى مهرجانات، حيث يبيع الباعة الجوالون المأكولات والمشروبات وصور القديسين واسطوانات التسجيل وأنواع شتى من الحلي التي تستخدم لطرد العين الشيطانية.

ويوضح عالم الآثار (مائير بن دوف) ان عبادة القبور هي ظـاهرة سابقة في الديانة اليهودية وهو يقول ان إقامة الأضرحة المقـدسة والشمائر للأموات تقليدين ظهرا أول الأمر في العصور الوسطى. بيـد ان التقاليـد التوراتية القـديمـة تعارض مثل هـذه الممارسات. وانه ليس بتصادف ان قبر (موسى) غير معروف بالتوراة وعليه واستناداً الى التأويلات الدينية لايحق تخليد موقع او عبادته او ان يكون مقصداً للحجاج.

إن عبـادة الموتى في الأصل طقس وثني إتبعته المسيحية والإسلام. والمسيحيـون القدامى إهتموا لدرجة كبيرة ببناء كنـائسهم في فلسطين في الأماكن المرتبطة بالمسيحية والأنبيـاء والحواريين وأشهرهـا جميعاً كنيسـة الضريح المقـدس المشيدة في القـدس في القرن الرابع بعـد الميلاد وبالتحديد في البقعـة التي تناقلتها الروايـات انها المكان الذي دفنوا فيه المسيح.

وفي القرن السـابع فتح* المسلمـون فلسطين على اثر ظهـور النبي (نبيهم) محمـد وبينما أضافوا لهم قبوراً جديدة تراهم إحترموا حرمة القبور المسيحية التي إعتقدوا ان بعضاً من ثقاتهم** قد دفـن فيها. لقـد ترددت اليهوديـة بهذه الممارسات لمدى طـويل معتبرة إياها أحد امارات الحضارة المتفسخة والحيـاة الدنيا. وكوجه من وجوه محاولة منع عبادة الموتى اعلنت غالبية الـديانة اليهودية ان المقابر أمـاكن غير طاهرة ومطلوب لمن زارها أن يتحمل تطهيراً طقوسياً.

غير أن التقاليـد اليهودية بـدأت تتغير وأخذت تحاكي عبادات المسيحيـة وشعائر المسلمين وان تأثير المسلمين يتجلى بشكل خـاص على قبور المصلى التي ينكشف عنهـا شبه بليغ بتصميـم القبور العربية بل ان بعضها يحمل نقوشاً عربية.

---

* استخدم المؤلف كلمة Invade التي تعني غزا وليس فتح.

** استخدم المؤلف كلمة Saint التي تعني القس وهي مرتبة دينية اقترنت بالمسيحية فقط وليس الاسلام.

وتنتشر أنماط العبادة والتعابير الصوفية على طول اسرائيل وعرضها الى الحد الذي تسللت فيه الى كل جماعة من جماعات اليهود الشرقيين. فقد سافر في شتاء عام ١٩٩١ حاخام من بلدة جنوبي اسرائيل الى الغرب لزيارة قبور أسلافه حيث نبش العظام اليابسة لأربع جثث ووضعها في حقيبة دبلوماسية إعتيادية وهربها بنجاح من خلال الجمارك المغربية والفرنسية. إنه لم يكن مدفوعاً بتقليد إعتيادي إستحوذ عليه ليوحي اليه باعادة دفن البقايا الفانية لليهود بل ان هذا الحاخام اعتقد ان أولئك الرجال الأربعة كانوا قديسين وانه ببساطة أراد التقرب منهم.

وضاعت منه الحقيبة في اسرائيل وانهار معها عالم الحاخام بأسره مؤقتاً حتى عثروا عليها بعد حين من الزمن بعد أن تجشموا عناء بحث كبير فأعاد دفن العظام في بلدته ومن وقتها غدت القبور الأربعة (المقدسة) مكاناً شعبياً للطواف.

ويلقى الإفتتان الاسرائيلي الحديث بالصوفية والايمان بالسحر صدىً واسعاً وتغيره المندهش والمتوهج كلما إنحدرنا جنوبا الى بلدة (نتيفوت). فالذهاب اليها ليس مجرد أن تستقل سيارة وتقطع خمسين ميلا (من تل أبيب) بل هو رحلة عبر آلة الزمن من مدينة عصرية تغطيها حضارة القرن العشرين الى بلدة ناعسه متخلفة في صحراء النقب. ينحدر أغلب قاطني هذه البلدة من أصل يهود شرقيين من أصل مغربي وفيها بلغت نسبة البطالة عام ١٩٩٢ عشرين بالمئة أي ضعف معدل نسبة البطالة القومية وتزدهر بين سكان البلدة البالغ عددهم عشرين ألف نسمة نسبة الأمية أيضا كما أن عدد طلبة المدارس الذين إجتازوا إمتحانات دخول الكليات أقل من خمسة عشر بالمئة وهي إحدى أوطأ نسب البلد بأسره.

إن مكاناً مثل نتيفوت بات -ويا أسفاه- مرتعاً للدجالين والمشعوذين الذين يسعون لإستغلال السكان المحليين. ففي بداية الثمانينات زعم رجل يدعى (بابا باروخ) أو (ابو هتزرة) وهو مقاول داهية متدين أنه (قديس) ونصب له في وسط

تتيفوت مجمعاً بإعتباره ضريحاً على الحجاج أن يتوجهوا إليه. وقبل هذا التاريخ في مرحلة السبعينات كان (بابا باروخ) قد حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة الإحتيال ثم أصبح هذا المتهم المغامر والسياسي السابق بعد أن أطلق سراحه يهودياً (ولد من جديد) حيث أعلن نفسه وريثاً لوالده الذي كان يتمتع بسلطة دينية في المغرب حتى كان يكنى (بابا سالي) ومدعيا ان (قديسية) والده قد عادت لتتجسد في روحه وجسده. وهكذا نجح بعد أن وظف اسم عائلته ان يجمع مالاً أقام فيه مؤسسته الكبرى.

إن مبنى بابا باروخ أكثر شبهاً بقصر شرقي منها بكنيس (معبد يهودي) وفي ظل إدارة بابا باروخ وحفنة من أقربائه ومساعديه إزدهر مركز تتيفوت وأصبح صناعة تدر بالملايين من الدولارات. إنهم يبيعون الماء (المقدس) للمرضى وتعاويذ لإبطال السحر والملصقات المكتوبة وأشرطة التسجيل وكل ما يمكن أن يذكر بعبادة بابا باروخ.

ويحضر في حزيران من كل عام عشرات الآلاف من السكان الإحتفال الخاص المقام على شرف بابا سالي وهو خليط من حفلة موسيقى البوب وسوق خيري شرق أوسطي. لقد غدت الوليمة مركز إستقطاب لكثير من السياسيين الذين لا يقوون حالاً على مقاومة فرصة الإمتزاج مع هذه الأصوات الكامنة من الناخبين. ولن يصحح لك بابا باروخ الذي نصب نفسه ولياً للعهد إن أخطأت وناديته (حاخاماً) برغم أنه لم يحظ حتى بلقب كاهن. لقد سار الإحتفال أن يكون ناجحاً مالياً حتى أضحى المصدر الأكبر لدخل البلدة المالي.

ألهم نجاح بابا باروخ الكثير من غيره ليعلنوا (قداستهم) وليضيفوا الجديد الى صناعة اسرائيل المزدهرة من العرافين والمنجمين والشافين والمتبصرين وكاشفي البخت. ويصر البعض منهم إن قواهم متجذرة في الكابالا ووعد هؤلاء الدجالون

بحلول لقائمـه طويلة من العلل تبتديء بعدم الإخصـاب وتنتهي بأمراض العضـال . أما أجورهم فتتجاوز مئات الدولارات .

لقـد تنـامت هـذه الظـاهـرة كثيراً الى الحد الـذي دعت فيـه عـام ١٩٩١ مكتب التحقيقات الاسرائيلي الى فتح التحقيق في هذا الكسب غير المصرح به لهؤلاء الدجالين والمشعوذين وتم استدعاء الشرطة أيضا في أحـايين كثيرة بعد أن تكون جريمـة ما قد وقعت . وعلى سبيل المثـال إستغل أحد ممـارسي هذه الشعوذة الذي إدعى انـه وهب قوى شافية تفاحة وجهل إحدى مريضاته فاغتصبها وآخر حكم عليه بالاعدام لتصرفه المشين ومسلـوكياتـه الجنسية البـذيئة وثـالث أمـر عدد من طـالبات المدارس الثـانويـة المراهقات بوضع دم حيضهن في زجاجتي بول غلامين وأقنعهن انه بمجرد عمل ذلك سوف يستطعن إيقاع الغلامين في شباك حبهن .

ويسخر رجـال الثقافة الاسرائيليين ووسائل الإعـلام من هذه الظاهرة وعـدوها دليلاً على سذاجة اليائسين ولأن أغلب الـذين يسعون وراء هذه الاستشارات هم من اصل سيفاري فقد تطور مفهوم تحاملي لما يدعى بـ(بدائية السيفاردي) . بيد أن الايمان بـالقـوى الخارقـة للطبيعـة لم يكن في كـل الاحـوال مقتصراً على سكـان اسرائيل من السفارديم فهنالك عشرات بل مئات الألوف من اليهود الغربيين الذين يتبنون مثل هذه الخرافات . وقدر تعلق الأمر بالسفارديم الاسرائيلي اليهودي الشرقي فان الإستحواذ المفاجيء والمبكر نسبياً للصوفية عليه له أثره في ضوء مضمونها الإجتماعي والتاريخي .

إذ تبنى حزب العمال منذ أوائل الخمسينات حين هـاجر السفـارديم أول مرة الى اسرائيل قادمين من اليمن والعـراق والمغرب يهود الأشكينـاز وهذا ما تسبب بـالدفع باليهود الشرقيين الى النزول الى مرتبة المواطنين من الدرجة الثانية وأزيح بهم الى أدنى درجة من التمثيل السياسي والتجـاري والعسكري . فالسيفاردم يدخـر أقل مالاً فهو يشغل أقل مناصب إدارية من الأشكيناز ويعمل أكثر في الأعمال اليدوية قليلة الإيراد

مثل العمل في البناء أو المصانع أو المزارع. وأطفالهم أقل حظاً في التعليم فلاعجب إذاً أن تكون مجتمعاتهم منبعاً للمجرمين. كما حرم المذياع والتلفاز الاسرائيلي لفترة طويلة مضت بث الموسيقى الشرقية لا لشيء سوى ان المنتجين قد شعروا فيها طعم (الرداءة) و(الحضارة المتدنية). لقد قال بن غوريون في العام ١٩٥١: إن المجتمع الاسرائيلي سيكون كلاً لايتجزأ اذا ما تبوأ أحد السفارديم منصب رئيس أركان الجيش الاسرائيلي. ومازال رقاص الساعة يتأرجح.

لقد وصل أغلب المهاجرين من السفارديم الى اسرائيل من دون قادتهم بينما فضل عباقرتهم وصفوة اهليهم ورجال المال والحرف لاسيما من يهود المغرب الهجرة الى الغرب بدلاً من اسرائيل ويوسعك أن تعثر في باريس ومونتريال على لافتات لأطباء ومحامين ومصرفيين تحمل أسماء تقليدية يهودية مغربية أما في اسرائيل من الجانب الآخر وبعد سنين طوال على إكتمال الهجرة الأولى لليهود المغاربة اليها فقلما ظهر اسم منهم في الأدلة الطبية أو مكاتب المحاماة أو بين رجال الأعمال. وبقي الحال يتراوح هكذا حتى مؤخرا حين وقع تغير ملموس على اثر ثورة السفارديم. إذ أخذت أعدادهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصحفيين بالتزايد برغم أنها مازالت قليلة نسبيا في اسرائيل اليوم.

وفوق هذا تعرض السفارديم الى التحامل والعنصرية ضدهم. وشعر دوماً أصحاب الدار من الأشكيناز انهم أعلى مقاما من السفارديم واني مازلت أذكر موقف عائلتي المتفضل على جيراننا العراقيين كانت علاقتنا بهم جيدة ظاهرياً فكنا نحيي بعضنا البعض إذا ما التقينا عند السلالم المشتركة للعمارة ونتبادل الإبتسامات الرقيقة. بيد أننا كنا نصفهم دوماً ومن خلف ظهورهم بالجهالة والفظاظة.

وذات مرة دخلت إبنتهم المستشفى لأيام معدودة بعد أن حامت بين الموت والحياة لعلة لا أعرفها حتى شفيت منها أخيراً. وعند عودتها الى منزلها أقامت عائلتها

حفلة فوضاوية في المرجة المخصصة للعمارة وفيها وضعت النسوة أصابعهن على أفواههن وشرعن بالزغردة كتعبير عن فرحتهن. وذبحت العائلة حملاً احتفاءاً بالمناسبة وسال دمه على طول السلم وبقيت منه بقع في المرجة. تطلعت أسرتي لذلك المشهد من النافذة وهي مرعوبة كأنها تشاهد يوم سبت للسحرة وغصنا في تنويم مغناطيسي. لقد رأت عائلتي الحدث توكيداً لايمانها أن جيراننا وكذلك جميع اليهود الشرقيين نموذج للتخلف الحضاري بدلاً من أن نتعامل معه على انه جزء من طقس أجنبي. والآن وبعد ثلاثين سنة من التواجد المتجاور توقفنا في التعارف واحترام بعضنا للبعض الآخر. ان موقف السفارديم في اسرائيل ليبين بأسى كبير كيف ان لاأحد بمنجى من هذه العنصرية الكامنة بضمنهم أولئك الذين كانوا مؤخراً أهدافاً للاعتداء العنصري.

لقد تجذر الموقف السلبي حيال اليهود الشرقيين داخل المجتمع الاسرائيلي الذي وصمه بالعرقية المرافقة للوحشية وشاعت عنه الخصائص المهينة ونعتوهم بـ (خصائص وطنية) كحال اليهود المغاربة انهم جميعا (مجرمون). وفي عام ١٩٤٩ صرح بن غوريون نفسه ان المهاجرين المغاربة (متوحشون) والواقع ان تلفظهم للعبرية قد وصفوه بـ(من الحلق وذي نغمة عربية).

لقد نوى التأسيس الاولي تغيير السفارديم ليواكبوا نمط الحياة فكان الصباري هو المثالي الاسرائيلي الذي ينبغي أن يحاكيه جميع الاسرائيليون واعتقدت الحكومة دوماً ان الثقافات الاجنبية ممكن إمتصاصها عن طريق التحديث وان اي فرد لا يتماشى مع خطوات عصرية الحياة وصموه بالفاشل واذا وفي اطار هذه الايديولوجية لم يتوقف أحد ليدرس الصعوبات الجمة في التفاعل والتي قاساها أولئك القادمون من ثقافات مختلفة من رأسها حتى قدميها والذين علقت اسرائيل عليهم آمالاً لرأب صدع قرون الماضي ببضعة شهور من الحاضر. كان المفهوم الاسرائيلي السائد بلشفياً بطبيعته

فمثلما بدأ السوفييت بالتصنيع عام ١٩١٧ وسيق الفلاحون الروس الى القرن العشرين جردت اسرائيل اليهود الشرقيين المهاجرين اليهم من ميراثهم السروحي ومن أملاكهم. إذ استبدلت لهم ملابسهم التقليدية بملابس خاكية اللون كئيبة الحال والتي كانت تعد شعبية آنذاك وخدمت كزي وطني غير رسمي. واكتشف العديد من المهاجرين عند وصولهم ان كنوزهم من الكتب القديمة النادرة والمجوهرات قد (فقدت) بعد أن وجدت هذه الاشياء سبيلها بطريق أو بآخر الى حوانيت المواد التذكارية أو رفوف جامعيها وحين يصعب على مسؤولي شؤون الهجرة تلفظ اسم ما نادوا عليه باسم (أسهل). ومن المثير للسخرية ان هذا الاسلوب ذاته قد مارسته البيروقراطية الاوربية الشرقية مع اليهود القادمين قبل قرنين او ثلاثة قرون. لقد بذلوا جهدا دؤوباً لطمس الماضي السيفاردي.

قدم أغلب اليهود الشرقيين من خلفية دينية شديدة الحرص على تقاليدها ولم تهيء لهم السلطات الدينية عند سعيها الى فطمهم عن ممارساتهم الدينية الضروريات الدينية الاساسية. لقد أرسلوا الأطفال الى مدارس دينية وجردت أقراط آذان الأطفال اليمنيين.

وتبقى ثمة حادثة خاصة تبحث عن حل لها وفتأت تهيج لها الطائفة اليمنية حتى اليوم. لقد اختفى بين عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٠ قرابة (٣٥٠) رضيع يمني دون أي إيضاح بشأنهم. إن أولئك الرضع الذين يفترض أنهم أدخلوا الى العيادات الطبية المنتشرة في البلاد لم يعودوا من (علاجهم) وأخبر الأباء ان صغارهم قد لقوا منيتهم. ولم يتضح حتى اليوم أين تكمن أماكن دفنهم بينما يصر بعض الزعماء في اسرائيل ان هؤلاء الرضع قد باعهم الأشكيناز والعوائل الاجنبية لاغراض التبني.

واسرائيل حتى وان قدمت لهؤلاء السفارديم بعض الاهتمام في التعبير الديني فان ذلك لم يحصل الا بشكل تنازل أو منة. فقد قدمت منظمات اليهود الأشكيناز لأطفال

السفارديم تعليماً دينياً ولكن بأسلوب لايقل قسرية عن الاسلوب الديني الدنيوي. فقد أجبروهم ثانية على التخلي عن ملابسهم وعاداتهم التقليدية وهذه المرة باسم الرب وليس باسم الدولة واستبدلوا لهم تقاليدهم الدينية بتقاليد الأشكيناز من اوروبا الشرقية وعليه يمكن لك ان تلتقي اليوم بالحالة الشاذة أن ترى السفارديم الارثوذكسي مكتسياً بملابس سوداء وقبعات ويتكلم اللغة اليهودية وكأنه قادم تماماً من حي يهودي في بولندا.

لقد تعامل السياسيون المتدينون منهم والدنيويون مع المهاجرين كملف لمصالحهم السياسية وسعى المحرضون السياسيون من جميع الأحزاب للفوز بأصواتهم عن طريق الرشوة والوعود الكاذبة وكم هي الانتخابات التي حصلت في الخمسينات والستينات المشوبة بمثل هذه الإحتيالات. وشهدت اسرائيل منذ أوائل الخمسينات ظهور (أمتين) إحداهما سيفاردية وأخرى أشكينازية ولم تبذل البلاد جهداً حقيقيا لتوحيد المجتمعين لسبب بسيط هو هيمنة الأشكيناز المطلقة. فقد أحجم الأشكيناز عن الزواج المتبادل وأعتبرت زواج أحد أبناءها أو بناتها من السفارديم عملاً ينم عن تمرد خطير. وأنشأت لها مدناً جديدة (نقية) أخلاقياً كما أنشأ السفارديم لهم مناطق جديدة معزولة تماماً عن مناطق الأشكيناز. لقد أرسلت الدولة بالسفارديم الى مستوطنات زراعية في تربة قاسية ومناطق أقل خصوبة من البلاد والى المناطق الجبلية قرب القدس وصحراء النقب الجرداء بينما حجزت المناطق الخصبة الواقعة على الشريط الساحلي للأشكيناز.

وحاول نفر صغير من صفوة الأشكيناز عندئذ أن يدق ناقوس الخطر على مسامع القيادة الاسرائيلية حيال التحرق ورغبة الإنتقام التي يمكن لهذا الموقف ان يطلق لها العنان. وكان أحد هؤلاء النخبة (ديفيد هاروفيتز) وهو مسؤول مالي كبير أدلى عام ١٩٤٩ بشهادة رائعة عن الحياة الأولى داخل الحكومة الفتية. ففي وقت مبكر من

ذلك العام كـان يكتب ان المهاجرين الجدد (قـد شكلوا نوعـاً من دولة جديـدة ، دولة ثائرة تهدد فينا حكومـة الأثرياء والأكثر من هذا ان موقفاً قـد نما لديهم تجاهنا بأننا نحن المتفوقون . انهم بطريقة أو باخرى يأخذون مكان العرب وهذا شي قابل للاشتعال . . شي كبير جداً للسيد بيغن وحزبه . .) . لقد تضمنت كلمات هاروفيتز بنور مستقبل اسرائيل ولعل المرء يسأل لماذا اذن أخذت الدهشـة الكثير من الاسرائيليين في أيار عام ١٩٧٧ عنـدما انتخب منـاحيم بيغن رئيساً لـوزراء اسرائيل بدعم كـاسح من طائفـة السفارديم؟ ولماذا اهتز كيان العديد من الاسرائيليين حتى اليوم حين شاهدوا تجمعات اليهود السفارديم في سـاحة بابا باروخ في نتيفوت أو ولعهم المتجـدد بالصوفية؟ ولماذا أخذهم على حين غـرة الغضب والاحتجاج الموجه ضد المؤسسات الأشكينازية لقد إستبصر ديفيـد هـاروفيتـز قبل ثـلاث وأربعين سنة العـواقب الكـامنـة لقمع اليهـود الشرقيين وما سلوكهم اليوم إلا رد فعل مؤجل .

وفي هذا المضمار قطعت حكـومة الليكود شوطـاً في طريق إعادة الإعتبـار لليهود الشرقيين فقد استعـاد لهم الليكود كبرياءهم وشرفهم المفقـود وعرض عليهم فـرصاً متساوية في الإقتصاد والسيـاسة والإجتماع وهـو قد ضـم في حكومتـه الأخيرة خمسة وزراء من أصل شرقي بين أعضـاء المجلس الوزاري العشرين ليكـونوا ممثلين لليهـود الشرقيين بينما لم يكن لحزب العمال وعلى مدى فترة حكمه البالغـة ثمانية وعشرين عاما سوى ثلاثة وزراء فقط .

واليوم متـاح لك أن تشهد ظهـور طبقة إجتماعية جـديدة ، انها طبقـة السفارديم الوسطى أو بحسب ما أطلق عليهم الكـاتب (موشي اوز) اسم (برجـوازيو اليهـود الشرقيين) هنالك في اسرائيل جيـل أول وجيل ثان نشأوا في هذا العـالم وعاشـوا حياة رغيـدة . فعلى أطـراف المنـاطق المتاخمة لي تقـام شـوارع جـديـدة وبلغت أثمان الشقق الجديدة حداً جنونياً تجاوز النصف مليون دولار ومع هذا يوجد لها كثير من المشترين .

ويقوم أكثر المقيمين الجدد من المناطق الفقيرة من تل أبيب المعروفة باكتظاظها بأعداد كبيرة من السكان السفارديم. ويرتدي القادمون الجدد الابناء والآباء بحسب آخر تقليعة من الملابس الباهضة الثمن والأحذية الخفيفة مثل (ريبوك والتايك) ويستقلون سيارات أنيقة وتراهم يقضون الشتاء في منتجعات التزلج ويمضون الصيف في زيارة البحيرات الايطالية.

وفي إطار سياساته الداخلية وعد بيغن (أن يعطي الشعب شيئاً طيباً) فخفض من الضرائب ومكن الطبقات الواطئة وخاصة ذات الأصل الشرقي أن تحسن مستواها المعيشي وانخفضت أسعار أجهزة التلفاز بنسبة ثلاثين بالمئة وتوفرت الكثير من الحاجيات على الفور وازدهرت أسواق تل أبيب الصغيرة لتبادل العملات كحال الاسواق المالية أو (وول ستريت) في عصر الرئيس الأمريكي رونالد ريغان وامتلك المضاربون الاسرائيليون شأنهم شأن أثرياء زملاءهم الأمريكان الزمن لصالحهم برغم انه في نطاق أصغر. ووفرت حكومات الليكود سياسة الأسواق الحرة وخفضت الضرائب وشجعت المبادرات الإقتصادية وباعت عقارات الدولة الى القطاع الخاص. واستطاع الليكود بفضل معونة أمريكية ناهزت الخمسين مليار دولار أن يتكفل من خلال سياسة دبلوماسية ناجحة برفع مستوى معيشة الحياة الاسرائيلية وكان السيفاردي الاسرائيلي المستفيد الأكبر من هذه التغيرات.

بيد أن إرتفاع سلم الحياة الإجتماعية والإقتصادية لليهود الشرقيين لم ينجح في محو إحساسهم المتذمر بأنهم مغبونون ثقافياً وهم منكودون دوماً بشعور الأشكيناز الذين يعتبرونهم متدنين ثقافياً واجتماعياً وقلوبهم محملة بندب جروح آباءهم ومعاناة تجاربهم التي خبروها. وهاهم اليوم يعودون غير هيابين الى فولكلورهم وجذرهم الحضارية جيات طعامهم المتميزة وموسيقاهم وميراثهم. إن الجزء الذي لايتجزأ من ليهود الشرقيين هو الطريقة التي يعبر فيها حتى أولئك الذين لا يعيشون حياة

ارثوذكسية عن شعورهم الديني في كل وجه تقريبا من وجوه تجربتهم اليومية. وانهم بطريقتهم هذه قد ساهموا في رفع التعبير الديني اسرائيل اليوم. وهذا النوع من العبادة يتناقض على نحو مباشر مع يهودية الأشكيناز التي يتجلى فيها واضحاً الفارق بين الارثوذكسية والنشاط غير الديني.

الفصل السابع

نحن نثق بالله

((إقطع!))، أصدر الحاخام أمره فأطاع الدفانون بسرعة. ففي يوم ربيعي منعش من أيام نيسان عام ١٩٩١ تم تنفيذ أحد أكثر الطقوس غرابة في تاريخ اليهودية. لقد نزع الدفانون القلفة المقيبية من جثة.

لقد بدأت القصة كلها قبل يوم واحد حين كان الكسندر ياسوف وهو مهندس معماري مما كان يعرف بالإتحاد السوفييتي ومهاجر جديد الى إسرائيل مسافر الى تل أبيب يحدوه طموحاً عظيماً. لم يفلح ياسوف شأنه شأن أغلب المهاجرين في الحصول على مهنة. وفي (نهاريا) تلك المدينة الساحلية الناعسة الصغيرة كانت سوق العمل غير متوفرة تقريباً. واذاً رحل الى تل أبيب المزدحمة وهناك وبعد عناء بحث حالفه الحظ وعثر على فرصة عمل. وبينما شرع المهاجر السعيد ذو الأربعة وثلاثين عاماً يعبر أحد شوارع تل أبيب المزدحمة دهسته سيارة وقتلته. بعدها أخذت جثته الى نهاريا ليدفن في مقبرتها.

ولكل مقبرة في إسرائيل ملحق مغلق يعرف بـ (بيت التطهير) وفيه تعرى الجثة حسب التقليد اليهودي أو تغسل بالماء ثم تغطى بكفن قبل مواراتها. وبعكس المسيح يدفن اليهود موتاهم في الأرض بدون تابوت وهذا يتطابق مع الشعر في (سفر التكوين)، ((من التراب خلقتكم والى التراب ترجعون)).

ان البساطة الجمالية هي أحد خصائص اليهود. إلا أن اليهود الإسرائيليين غير ذواقين الى حد كبير. فعلى الدوام يلبس الدفانون ملابس رثة تاركين للحزانى شعوراً غير طيب بأنهم قد شاركوا لتوهم في عملية دفن غير كريمة. بيد أن الإسرائيليين الدنيويين لا يملكون خياراً على أية حال. فللمؤسسة الدينية اليد العليا على جميع المقابر وجميع الخدمات الدينية لذلك الغرض.

حين كانت جثة ياسوف تنتظر دورها لطقس التطهير إكتشف الدفانون أنه لم يكن مختوناً وحين هالهم المنظر لم يستطيعوا أن يقيموا له دفناً يهودياً وهو في هذه الحالة وهكذا قرروا أن يجروا الختان (وهو الطقس اليهودي الذي يخضع له كل ذكر بعمر ٨ أيام). يرمز هذا الطقس الى دخول الطفل ساحة الايمان والأمة طبعاً وتذكراً للعهد الذي قطعه إبراهيم مع ربه.

تمثل هذه الحكاية الفظيعة مجرد مثال بسيط على سلطة الدوائر الدينية والارثوذكسية وفي الواقع ان إسرائيل إحدى الدول القليلة في العالم الغربي التي لاتعرف متصلاً حقيقياً بين الكنيسة -أو الكنيس- والدولة ولعل الحضور القوي للدين يعطي الإنطباع ان إسرائيل قد أصبحت بلداً مثل إيران يسيطر عليه ويديره المتطرفون ومع انها محاولة لإجراء مثل هذا التطابق بينهما فانها الصورة المبسطة جداً لإسرائيل فحقيقة إسرائيل حيث الدولة والدين مشدودان بعقيدة غورديوس، هي حقيقة معقدة تتطلب فهماً لما حصل في السابق وفوق هذا هي مشكلة لاتقتصر حدودها على قضايا المجتمع والدولة غير الدينية من جهة والدين من جهة ثانية، بل أنها ترتد في الواقع الى الوراء الى أسئلة عويصة تتعلق بالإسرائيليين والهوية اليهودية ومفاهيم وتعاريف الوطنية والإصلاح والدولة.

كما سيكون العمل ناقصاً أيضاً لو أوحينا باللائمة فقط على التحالف الذي شكله بيغن والليكود مع الأحزاب الدينية لظهور هذه الحقيقة. فبرغم أن هذا التحالف بين

الجناح اليميني والسياسيين الاكليريكيين قد حوفظ عليه جيداً ومارس وظيفته على نحو منسجم تماماً منذ عام ١٩٧٧ ، فأن الليكود قد سجل بحق لنفسه سبقاً أنه حزب العمل الذي أرسى دعائم العلاقات الخاصة بين الصهيونية غير الدينية والدين .

وباتجاه نهاية القرن التاسع عشر ، اعتبرت الصهيونية حين بدأت بالظهور حركة منشقة ليس فقط من طرف حاخامات مدن أكواخ اليهود في أوربا الشرقية بل كذلك من طرف اوربا الغربية والولايات المتحدة . وقد رأت فيها المؤسسة الدينية شيئاً ينطوي على الخطيئة برغم ان اليهود شكلوها لصالحهم . فأولاً عارضت الارثوذكسية أي تأثير غير ديني أو عصري . وعلاوة على ذلك وجد الحاخامات في الصهيونية تحد غير مرغوب به لزعامتهم وسلطتهم والتي هدفت الى استبدال اليهودية بنمط حديث ودنيوي من الدين . والأسوأ من هذا وذاك ان الحاخامات اعتبروا ان الصهيونية هي المسيحية عينها .

إن أحد أكثر الفروق بروزاً بين المسيحية واليهودية هو ذاك الذي يتعلق بقضية المسيح . فالمسيحيون يعتقدون ان يسوع المسيح كان منقذهم بينما لما يزل اليهود يترقبون قدوم موعودهم المخلص . وبحسب المعتقد اليهودي سوف يصل المخلص فقط عندما تجد العناية الالهية ان الظروف مواتية . ولا يمكن أن يتخذ مثل هذا القرار إلا في السماء وليس في الأرض على أيدي الفانين المجردين . ويقال أن يسوع سيصل (في نهاية الأيام) . وهكذا أمل اليهود على طول تأريخهم بقدومه بيد أنهم لم يتوقعوه مطلقاً . فاليهود أرادوه وخافوه على السواء . فدوره هو أن يأتي بالأمل الى حياتهم اليومية التعيسة وليضيف بعداً مثالياً وروحياً لحياتهم المقبوضة في الدييسبورة .

ومع ذلك يشتمل التاريخ اليهودي على حوادث متفرقة حصل فيها أن أظل الأمل المجرد طريقه واتجه صوب الأوهام المؤقتة من الواقع . وبدا أن مزيج التطلع الى جبل صهيون واليأس الملموس بين صفوف الشعب اليهودي قد أفضى الى إنتاج سلسلة من

أعلنوا انهم المسيح . وهذه هي الطريقة التي يرى اليهود من خلالها المسيح . فالإنقاذ المسيحي قد حفز في القرن الأول على الثورة ضد الإمبراطورية الرومانيه . وفي سنة ١٦٦٥ امتلك (شابتاي زفي) وهو نجل تاجر تركي غني رؤيا سماوية أدت به الى أن ينصب نفسه مسيحاً . وجرب وقائعاً للشعور غير السوي بالقوة والنشاط المفرط والنشوة والتي تناوبت مع الإنهيارات التي هبطت بالبلاد الى هوة سحيقة . ولعل أي طبيب نفساني سيشخص حالته . غير أنه على الأرجح كان دجالاً ساحراً ولزملائه كان رجلاً موهوباً ذا طاقات غير عادية واستحوذ على خيال الكثير من يهود اوربا الشرقية ووعد أن يعيد اليهم مجد الأمة اليهودية ويقود اليهود ثانية الى أرض الأجداد . وعلى الفور رحبوا به باعتباره المسيح ومنحوه أموالهم وجواهرهم أما هو فقد خدعهم وأذلهم بقسوة . ثم قبضت عليه محكمة السلطنة التركية هو وحاشيته . وبعد أن خيرته المحكمة بين الموت أو أن يتحول الى الإسلام إختار الإسلام وارتدى عمامه وغير اسمه الى (محمد أفندي عزيز) وعاش بقية عمره على تقاعد عسكري .

لقد أحدث إنقلاب شابتاي زفي الى الإسلام وانهيار حركته هزة عنيفة لليهود في جميع أنحاء العالم وأدت بهم الى اتخاذ موقف الريبة من أي فرد ينصب نفسه مسيحاً مستقبلاً . كانت الصهيونية للأرثوذكسية عند نهاية القرن التاسع عشر مجرد إعادة لفاجعة شابتاي زفي وحقيقة ان القيادة الصهيونية قد حركتها العقلانية الصائبة فانها قد تجردت من أي عناصر صوفية للمسيحية . بيد أن الصهيونية قد جعلت من أمة يسوع أمة غير دينية بعد أن توصلت الى حقيقة أن التدخل الإنساني هو الـذي سينقذ شعب اليهود ولايتوجب على اليهود بعد اليوم أن يترقبوا معجزة سماوية . لقد إختطفوا المسيح لأغراضهم السياسية غير الدينية وأفرغوه من محتواه الديني . أما الحاخامات فقد وجدوا هذا المفهوم الصهيوني الذي إدعى انه يعرف ما أراده الرب أمراً لايغتفر . ان عليهم إدانته ورفضه .

ومع دوران عجلة الزمن خفت المعارضة الأرثوذكسية للصهيونية ويمكن تشخيص ثلاثة تطورات مهمة في موقف الأرثوذكسية الدينية نحو الصهيونية غير الدينية، وقد غدت هذه الإتجاهات الثلاثة وعلى نطاق واسع جزءاً لايتجزأ من العلاقة المعقدة بين الدين والصهيونية ودولة إسرائيل.

كان الموقف الأول في جوهره رفضاً للصهيونية بسبب تدخلها بالمخطط السماوي للإيفاء بالميعاد. هذه الفلسفة وأتباعها يرون في الصهيونية ودولة إسرائيل كقوة شريرة تفسد اليهودية التقليدية، واليوم أنزلت هذه المدرسة الفكرية الى مخيم ديني واحد في إسرائيل وما تبقى من هؤلاء المؤيدين يمكن إيجادهم في مخيم صغير في القدس تراقبه إسرائيل باهتمام بالغ ويزوره الأجانب كمركز جذب سياحي. تسمى هذه المقاطعة بـ (رمي شيريم) أو (المئة بوابة) ويسكنها اليهود المغالين في الأرثوذكسية والمعروفين باسم (تيوتري كاترا) أو (حراس السور). ولكلمة (سور) معنىً مزدوجاً، فهي تشير الى أسوار مدينة القدس وتحتل بالمعنى المجازي السور الذي يشكله هؤلاء الناس كحملة مشاعل اليهودية التقليدية. وهؤلاء الذين يرتدون ملابس سوداء طويلة ليهود أحياء الغيتو يعتبرون الصهيونية ودولة إسرائيل إنحرافاً خطيراً. وموقفهم تجاه إسرائيل هو: لانريد عسلكم ولانريد لسعاتكم، إننا لانريد خدماتكم ولسنا مدينين لكم بشيء. وهم يرفضون دفع الضرائب ولايسمحون لجباتها في القدس بدخول أراضيهم. ويحرقون العلم الإسرائيلي ولايرددون النشيد الوطني. وهم مؤيدون لمطلب العرب بـ(إبادة الكيان الصهيوني). وقد إنضم ممثليهم في مؤتمر السلام الذي عقد في مدريد في تشرين الأول عام ١٩٩١ الى الوفد الفلسطيني.

أما الموقف الثاني فيقف على طرف نقيض من الأول وأدى الى نشوء فرع وطني ديني للصهيونية. لقد تولد هذا الموقف حول جماعة سياسية عرفت باسم (ميزارحي) وهي التسمية العبرية المرادفة لـ (المركز الروحي). ويتألف أعضاء المجموعة من

اليهود المتدينين بيد أنهم ساعدوا الحركة الصهيونية سياسياً ولا يوجد حسب رأيهم أي تعارض بين الصهيونية والدين، بل على النقيض من ذلك تؤمن الميزارحي ان الصهيونية هي تحقيق لعملية الخلاص. ويجادل غالبية أعضاء الميزارحي أن (الخلاص الأكبر) عملية متروك شأنها ليسوع إلا أن الصهيونية تساهم في تحقيق هذا الخلاص ولكن على نطاق أصغر. ويحقق اليهود ذاتهم بذاتهم في الحياة اليومية داخل أرض إسرائيل. بينما ذهبت أقلية منهم يقودهم الحاخام كوك، الأب والإبن، الى أبعد من ذلك حين احتضنو بكل أفئدتهم الصهيونية لدوافع دينية-ايديولوجية واعتقدوا -بكل جلافة- ان الصهاينة هم (يد الله) التي تنفذ المهمة السماوية لتقريب موعد الخلاص. وانهم بهجرتهم الى إسرائيل واستيطانهم وبنائهم تلك الأرض وتشكيلهم جيشاً لحمايتها إنما يساعدون على نحو غير متعمد عمل الله الذي سوف يتوج في (الخلاص الأكبر). ويرى كوك وصحبه أن على المتدينين ليس الوقوف بجانب الصهيونية فحسب بل أن ينخرطوا في المغامرة الصهيونية. أما وقد وصل الصهاينة المتدينون هذا الحد فانهم شرعوا باقامة المزارع الجماعية والتجمعات الريفية وأمسوا جميعاً رواداً مثلهم كمثل اشتراكيي بن غوريون. فأعفوا أنفسهم من ملابس أحياء الغيتو وأكواخ المدن اليهودية واكتسوا بزي رفاقهم الإشتراكيين باستثناء قبعة الرأس الصغيرة التي بقيت الدلالة الخارجية الوحيدة التي تميزهم.

وتمخضت الإستجابة الثالثة للصهيونية عن تشكيل (أغودات إسرائيل) وهي الكلمة العبرية لـ (إتحاد إسرائيل) وهي منظمة شاملة سعت صوب إيقاف إنتشار الصهيونية والأرثوذكسية اليهودية وكانت في واقع الحال عبارة عن خليط وتسوية بين الموقفين الدينيين الآخرين تجاه الصهيونية. لقد رفضت عقائدياً الصهيونية بيد أنها أيدت إنجازاتها السياسية والتنظيمية وتوافق رفضها الايديولوجي هذا مع مبدأ الإذعان الواقعي أو الذرائعي: إذا كنت أعجز من أن تصرعهم وراغباً عن أن تنضم الى ركبهم فعليك أن تقبلهم وذلك أضعف الايمان.

ولما بلغت الصهيونية الدنيوية أفضل حال لها في أعقاب المذبحة وعشية الإستقلال الإسرائيلي توصل بن غوريون وحركته العمالية والصهيونية الدينية وإتحاد إسرائيل الى تفاهم صريح بينهم أيضاً إستند على مفهوم (واقع الحال). نشأ هذا المفهوم في الرسالة التي وجهها بن غوريون و(ميزراحي) زعيم إتحاد إسرائيل عام ١٩٤٧ الى الشعب اليهودي وتعهدا فيها أن الظرف الديني للسكان لن يمسه سوء في ظل الدولة الجديدة. لقد أراد بن غوريون من وراء هذه الرسالة أن يترك إنطباعاً لدى الإنجليز والعرب معاً ان وراءه يقف الشعب اليهودي وأنه فقط أراد أن يؤمن دعم الاحزاب الدينية الى حركته العمالية وهكذا تشكل إتحاد سياسي إستمر لثلاثين سنة أي حتى انتخابات عام ١٩٧٧.

وافق بن غوريون والأحزاب الدينية بعد ولادة دولة إسرائيل على ترجمات واسعة النطاق لمضمون رسالة عام ١٩٤٧. فقد حصلت الأحزاب الدينية على كامل الحرية للعمل وفق مشيئتها كوسيط داخل عرض البلاد وطولها وقدر تعلق الأمر بالدولة والدين. وكان أكبر تنازل قدمه بن غوريون لهذه الأحزاب هو مجال التعليم. فبينما تفككت الشبكة التعليمية لحركة العمال وحل محلها نظام جديد من التعليم غير الديني الموحد وجد ميزراحي وإتحاد إسرائيل لنفسيهما متنفساً كاملاً ليديروا أنظمتها التعليمية المستقلة بالطريقة التي يشاؤون.

لقد تم إختيار يوم السبت ومنذ اليوم الأول للإستقلال كعطلة رسمية للبلاد وفيه تتوقف تقريباً كامل نشاطات الدولة اليهودية باستثناء العمل في محطات الطاقة وفي المطارات ومحطات الإتصال التي يتقلص فيها أيضاً العمل الى أدنى حد له، كما تتوقف حركة السير تماماً وتقتصر على ذوي العجلات الخصوصية. ووافق بن غوريون على أن تغلق يوم السبت جميع المطاعم والمسارح ودور السينما وجميع وسائل الترفيه الأخرى أبوابها باستثناء المطاعم التي تبيع الطعام المباح في الشريعة اليهودية.

كان قرار بن غوريـون إعفاء عدد ضيق من الطلبة الدارسين في المعاهـد اللاهوتية اليهودية من الخدمة العسكرية من أكثر القرارات إثارة للجدل إذ لم يتجاوز بادىء الأمر أعداد هؤلاء الطلاب الذين أطلقت عليهم العبرية اسم (ياشيفاز) وتعني (الطلبة القاعدين) الأربعمئة طالب من الذين استفادوا من هذا الإمتياز ، ثم تزايد هذا الرقم كثيراً على مدى السنوات . لقد أحدث بن غوريون وحزب العمال بموافقتهما على هذا القرار شرخاً بين صنفي طلبة التعليم العالي في إسرائيل : أولئك الذين يتوجب عليهم الخدمة كمجندين في القوات المسلحة لثلاث سنوات و أولئك المستثنين من خدمة العلم .

وقد وهبت الحكومة أيضاً منحاً مالية الى الأحزاب السياسية إذ أصدرت الحكومة أوامرها عام ١٩٦٦ الى محافظ البنك المركزي أن يمنح اجازة الى إتحاد إسرائيل بفتح حساب مصرفي خاص به . لقد منحت هذه الصفقات الخاصة للأحزاب الدينية البلاد متنفساً سياسياً واستقراراً وضماناً لحكم حزب العمال في ذات الوقت بيد أنها قولبت البلاد في نمط خاص جعل منها حتى هذا اليوم بلداً يناضل ضد كثير من تناقضاته ومشاكل التعريف بهويته .

ليس لدولة إسرائيل أي دستور وهي لم تعرف لحد الآن بحدودها وعليه فإنها تجد صعوبة في التعريف بمواطنيها . إن مصدر السلطة الشرعية الرئيس للبلاد هو إعلان الإستقلال في أيار عام ١٩٤٨ وقد كشف (زيفي بيرتسون) قاضي المحكمة الإسرائيلية العليا السابق وأحد الذين صاغوا هذا الإعلان ان صياغة الأعلان قد تمت في سرعة شديدة لم تتجاوز اليومين وتحت ظروف في غاية الصعوبة (لم أكن قادراً أن أستقي المعلومات الضرورية وأن أراجع أي دستور أو إعلان لأية أمة أخرى) . ومع هذا يبقى نموذج الإعلان طيباً ويستند الى الحكمة والمنطق .

كان غياب الترسيم الواضح لحدود إسرائيل في أي بند من بنود إعلان الإستقلال

غياباً متعمداً. فقد طلب معدوا مسودة الإعلان من بن غوريون تحديد حدود إسرائيل استناداً الى خطة التقسيم التي أعلنتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ وأصروا ان بقاء الحدود هكذا يتعارض والمبادىء القانونية وسيضع إسرائيل أمام عقبة كأداء في علاقاتها مع بقية العالم. بيد أن بن غوريون رفض المقترح لسببين. أولهما انه خشي المعارضة الدينية إذ يؤمن رجال الدين ان حدود إسرائيل يجب أن تتوافق والحدود التي وعد الله فيها إبراهام. وثانيهما ان بن غوريون كان واثقاً من ان الحدود ستتغير بعد الحرب مع العرب التي توقع انها وشيكة الحدوث، وهذا ماحصل فعلاً ووسعت إسرائيل من حدودها بضع مرات وهو ما أكد المزاعم العربية ان إسرائيل تمارس سياسة توسعية منذ عهد صباها الأول.

إن افتقار البلاد للدستور ليؤكد حقيقة الإختلاف بين بن غوريون وبين الأحزاب الدينية التي أصرت دوماً على ان إسرائيل إن أرادت لها دستوراً فعليها الرجوع الى شرائع التوراة والى المخطوطات القديمة والمعقدة لشريعة الـ(هالاكا) التي طورها الحاخامات على مدى ألفي عام من النفي. رفض بن غوريون ومؤيدوه الذين تصوروا إسرائيل بلداً ديمقراطياً غير ديني الموافقة على دستور ديني سيحيل البلاد الى حكومة كهنة وعليه وجدوا ان من الأفضل لإسرائيل أن لاتقرر. ومذ حينها والبلاد تعيش بين آونة وأخرى موجة احتجاج تتضمن الحاجة الى تشريع دستور مناسب يضمن عدم وقوع أي انتهاك لحقوق الانسان المدنية وهو أمر لم يتشاطر فيه المشرعون الرأي ان الدولة الديموقراطية الحديثةبحاجة الى دستور يرعى حقوق وحريات أفرادها. فاذا كانت الولايات المتحدة وفرنسا تقدمان لنا مثلين رائعين عن مدى فعالية الدستور في هذا السياق فتلك هي جنوب أفريقيا وسوريا اللتان تملكان دستوراً عجز أن يحد من القمع الذي يتفشى فيهما ثم ان هناك بريطانيا التي لا تملك دستوراً بيد أنها بلد متقدم ويلتزم باللوائح والقوانين التي تضمن حقوق الأفراد. لقد جاء في إعلان الإستقلال أن الأقليات في إسرائيل لن تكون عرضةً لأي شكل من أشكال التمييز العنصري

وستتمتع بحريات كاملة ومتساوية : حرية التعبير الديني والتعليم وباقي الحريات الأخرى ذات الطبيعة المدنية والديمقراطية. ثم أن إسرائيل لاتملك ديناً رسمياً للبلاد وسمح القانون الإسرائيلي للطوائف الدينية أن تمارس تقاليدها وتطبق قوانينها الشرعية الخاصة في الزواج وعليه يجد اليهود لهم المحاكم الحبرية والمسلمون محاكم الشريعة وكذلك للمسيحيين الحق في الرجوع الى القانون الديني الذي يتوافق وطائفتهم. بيد أن الإعلان صرح بوضوح أن إسرائيل هي دولة اليهود.

يعتقد القاضي (بيرتسون) ان مؤسسي إسرائيل لم تكن لديهم أية نية في أن تكون دولتهم ذات صبغة دينية مستنداً في هذا الراي على تحليله أنك لن تجد الصفة (دينية) لتظهر ولو لمرة واحدة مترابطة مع عبارة (الدولة اليهودية). بيد أن إسرائيل لأي غرض أو هدف أني كان هي الدولة الصهيونية اليهودية : وفيها يتزين العلم الأزرق والأبيض بنجمة داوود. والأكثر أهمية من ذلك أن (أبواب دولة إسرائيل ستكون مفتوحة أمام الهجرة اليها) وقد تعزز هذا الحق عام ١٩٥٠ مع إصدار (قانون العودة) الذي يمنح إمتيازاً لليهود المشردين (يهود الديسبورة) أن يفدوا إسرائيل ومنذ حينها بات بامكان أي يهودي يختار أن يكون إسرائيلياً أن يحمل جواز سفر كمواطن إسرائيلي. لقد إقتصر قانون العودة على اليهود فقط. لقد زرع قانون العودة بذرة الشك لدى كثير من العرب والغرب حيال إسرائيل وسياستها الجماعية. وفي واقع الحال ان نظام القانون الإسرائيلي اذا ما استثينا قانون العودة لا يشير في اي مكان آخر الى كلمة اليهود فقط. ومع هذا يبقى هناك كثير من المنافذ داخل لغة القوانين الإسرائيلية التي يمكن تمييزها ضد الأقلية العربية وهو ما أوجد حالة مستمرة من عدم التساوي برغم الجهود المتواصلة لايجاد حالة من المساواة والعدالة ولمنع التمييز القائم على أساس الدين أو الجنس او العرقية أو الأصل القومي.

يتنامى هذا الموقف في هوية البطاقة الشخصية الإسرائيلية (التي يحملها جميع

المواطنين) حيث تدرج فيها كلمة (الديانة) تحت حقل (القومية). وتلك طريقة بسيطة وسهلة ابتدعها بن غوريون ومستشاروه للتمييز بين اليهود والأقلية من العرب الذين بقوا داخل حدود إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ فهم قد شعروا ان هذا سيمسح الصبغة اليهودية من على دولة إسرائيل. وعليه يمكن القول أن رغبة بن غوريون الجامحة لتهدأة العاطفة الدينية ممزوج معها مخاوفه الأمنية قد أفضيتا الى تسجيل الهوية التي فرقت بين الإسرائيليين العرب وبين الإسرائيليين اليهود. لقد أدى هذا الإرباك الى حالات شواذ مستعصية وغموض شرعي يستحق الغيث له. إذ يمكن أن يكون الإسرائيلي منسوباً الى طائفتين دينيتين في ذات الوقت: فالولد من أب مسلم (تتبع ديانة الإبن في الاسلام ديانة أبيه) ومن أم يهودية (ويتبع الإبن في اليهودية ديانة أمه) سينضوي في هذه الحالة تحت لوائي طائفتين دينيتين. أما سيء الطالع الإبن القادم من أم مسلمة وأب يهودي فلن يجد له ديناً في أي من الديانتين. فلاعجب اذاً أن يواجه الإسرائيليون مشاكل خطيرة تتعلق بهويتهم. لقد أحدث التوتر العويص بين الأغلبية غير الدينية والأقلية الدينية قضايا عميقة رفضت القيادة الإسرائيلية مواجهتها.

فمن تكون إسرائيل؟ فلو كانت هي الدولة التي يقطنها الإسرائيليون فلم لايعكس النظام هذا الحال إذاً؟ أهي دولة اليهود أم دولة للشعب اليهودي؟ ولو كان الأمر كذلك فلم يعيش معظم اليهود خارج إسرائيل؟ ولو كنا نحن يهوداً في دولة اليهود فبأي حال نختلف عن يهود نيويورك ولندن وموسكو؟ وماذا بشأن غير اليهود الذين يتخذون من إسرائيل مسكناً؟ وماذا بشأن قوميتهم ووضعهم؟ إن السؤال الأكثر تردداً هو من هم الإسرائيليون؟ وهل ثمة شيء اسمه إسرائيلي؟ وأخيراً ماذا يعني أن تكون يهودياً؟ هل اليهودية دين أم قومية؟ هل يمكن لها أن تكون كلا الشيئين في عين الوقت؟ لايوجد جواب قاطع لهذه التساؤلات.

إن المحاولة الأكثر إمتاعاً ومنطقية لتسوية هذه التناقضات والمشاكل هي تلك

التي قامت بها مجموعة صغيرة ومؤثرة تعرف بالكنعانيين تألف معظم أفرادها من رجال المنطق والكتاب والفنانين. ظهرت ايديولوجية الكنعانيين الى حيز الوجود مطلع الثلاثينات من هذا القرن (برغم ان الاسم مذكور في التوراة) بعد أن تجلى ان الصهيونية أخذت بجر نفسها من ماضي اليهود وتقاليدهم ودينهم لقد رأت الكنعانية في الصهيونية حركة انبعاث وطني بيد انها (أي الصهيونية) رفضت على نحو فاعل الديانة اليهودية. بعد أن وجدت فيها الجذر لكل فساد وشيطانية المجتمع اليهودي. كان (أدولف كوريفيتش) المنظر الأول لهذه الحركة وهو يهودي روسي درس اللغات السامية والتاريخ في جامعة السوربون في باريس وقسم وقته بين فلسطين والولايات المتحدة. حصل كوريفيتش الذي غير اسمه الى اسم عبري هو (غورهورون) على نفر قليل من الأتباع لنشر رسالته كان أبرزهم الشاعر (جوناثان راتوش).

ولد راتوش في بولندا سنة ١٩٠٩ باسم (يوريل هالبرت) وهاجر الى إسرائيل يافعاً مع والديه. ومن حينها واصل دراسته باللغة العبرية التي استخدمها بشكل مفرط ليتخلص من لغته الأم البولندية والييدية. وتنتسب اليه كثير من المفردات العبرية الأصلية وكان الشعر هو موهبته الخلاقة والذي شدد كثيراً على الجنس والشهوة الجسدية. بقيت كتاباته مهملة لم يسلم بها حتى وقت متأخر من حياته ولربما بعد مماته عام ١٩٨١. لقد نال معظم شهرته من طراز حياته المؤمن بمذهب المتعة الجسدية وهو سكير أمضى معظم وقته يتسكع بين مقاهي تل أبيب ولعن المؤسسات الأدبية التي رفضته. أسس راتوش عام ١٩٤٢ حركة الشباب اليهود التي سخرت من الديانة اليهودية وتقاليدها ومن اللغة الييدية. وقد تكلم معظمهم العبرية من (الحلق) ليتقاربوا بذلك كثيراً من أجدادهم القدامى برغم أن معظمهم قد جاء من اوربا الشرقية وشعروا بشوق كبير الى الاسطورة الرمزية سيما تلك التي تمثل القوة والطبيعة وعلاقة الانسان بالروح وصور رساموهم ونحاتوهم أفكاراً عن الزراعة والصيد وآلهة الكنعانيين الأوائل وطقوسهم. واستخدم شعراؤهم وكتابهم الكثير من الصور

التوراتية وطوروا رؤية عاطفية وتجريدية للمكـان وأرضهم الأم وجسدوا حضارات البحر المتوسط أحسن تجسيد وأكدوا على التوافق بين الانسان والطبيعة وعـارضوا ما وصفوه بالهاجس الصهيوني-الإسرائيلي في البناء والإستيطان وامتلاك الطبيعة .

كانت الحركة عبارة عن مجموعة صغيرة ليس لها أي مورد مالي ومع هذا خشيت لها الصهيونية السـائدة تأثيرها على الشباب الإسرائيلي وعليه صورت الصهيونية هذه الحركـة في مسعاهـا للحط من شأنها بأنها مجمـوعـة من الحمقى الفـاسقين الفاجـرين شرعت تقـوم بطقـوس عـربـدة على هيئة عبـادة وثنيـة قـديمـة . وقـد أطلق عليهم خصومهم للسخرية اسم (الكنعانيين) .

لقـد وجد راتـوش وأصدقـاؤه ان الصهيـونية هي عينهـا اليهوديـة وأصروا على الفارق بين (اليهودي) الديسبورة وبين الشخص الذي عاش في أرض إسرائيل . إن ما تخيلته الكنعانيـة هو ليس دولة يهودية بل دولة عبرية تنهض لتعيد أيام العصر الذهبي- للعبرانية القـديمة ، ان على الـدولة العبرية الجديـدة أن تتطلع لتغدو جـزءاً من منطقة الشرق الأوسط وأن تمد جذورها في هذه المنطقـة بدلاً من أن تقيم روابط مصطنعة مع الحضارة الاوروبيـة . فالعبرية القـديمة كانت جزءاً من الحضارة الكنعانيـة المحيطة بها ومن هنـاك حيث غزت الأرض كـان الهدف من إسرائيل أن تجسـد الثالـوث الحقيقي المؤلف من اللغة العبرانية والأمة اليهوديـة وأرض اليهود كبديل للتركيب المغلوط عن اللسـان العبري والشعب اليهودي وقـدر الصهيـونية . ان على الأمـة اليهـودية طبقـاً لعقيـدية الكنعـانيـة أن تكـون ذات هوية واضحة وقاعـدة أرضيـة ووحـدة لغويـة وحضارية . واذن يمكن انجاز مسعاهم بتأسيس دولة تتمتع بـالمبادىء العصرية لدولة الأمة وفيهـا تتوافق الأرض مع المواطنـة مع العرقيـة ، بيد انهم فشلـوا . فالكنعـانية لم تنجح قط ان تزرع لها جذراً داخل المجتمـع الإسرائيلي برغم انها تجشمت عناءاً كبيراً . فهاهـو واقع الحال السياسي الذي بشر فيه التحـالف بين العمال والأحزاب الدينيـة قد

وضع حجر عثرة أمام أية مبادرة لكسر الطوق المتعلق حول قضايا الهوية الإسرائيلية-اليهودية.

وبرغم أن واقع الحال قد شكل عقبة كأداء ومرض عضال فأن عشرات الطرق قد ابتدعت لتراوغ حول الحدود التي وضعها المتدينون بوجه المدنيوين الإسرائيليين. وفي حقيقة الأمر وجد هذا الخيار البديل لواقع الحال أو ذاك نفسه جزءا من واقع الحال. فمثلاً سمح القانون الإسرائيلي لسيارات الأجرة الخاصة وسيارات الأجرة العمومية فقط بنقل المسافرين بين مدينة وأخرى يوم السبت كما يمكن إقامة مباريات كرة القدم أو باقي أنواع الرياضة في هذا اليوم بينما تعلق كافة وسائل الترفيه الأخرى ويطلق على المشجعين الذين يتجهون بسياراتهم صوب ملاعب الكرة اسم (المدنسين لقدسية يوم السبت) وتفتح الشواطيء الساحلية أبوابها في يوم السبت من كل صيف أمام مئات الألوف من السباحين.

وبرغم أن الزواج المدني نادراً ما حصل في دولة إسرائيل فان المحاكم غير الدينية التي لها اليد العليا في المحاكم الدينية قد أصدرت تعلياتها الى وزارة الداخلية (التي تحكمها الأحزاب الدينية) للإعتراف وتسجيل الزوجين اللذين أتما مراسم زواجهما المدني خارج إسرائيل. ولم تشهد إسرائيل صراعاً مفتوحاً بين الطائفتين الدينية وغير الدينية إلا قليلاً حتى مطلع عام ١٩٦٧ ومع هذا فان معظم أزمات مجلس الوزراء لتلك الفترة كانت جذورها تتعلق بقضايا دينية أو لنقل ان الأحزاب الدينية لم تكن راضية عن سياسات الحكومة وقد تمثلت مخاوفهم في الثقافة الدينية ولدعم المؤسسات الدينية وفوق هذا وذاك السؤال من هو اليهودي؟.

وفي إجابتهم عن هذا السؤال طالبت الأحزاب الدينية أن يمنح قانون الهجرة وسجل الأحوال المدنية لقب (يهودي) لمن ولدته أم يهودية أو لمن تحول إليها وفق شريعة (هالاكا). التي تعمل كمصطلح شفري لتمييز أولئك الذين تحولوا الى

اليهودية على يد حاخام ارثوذكسي . كانت في إسرائيل مؤسسة دينية واحدة هي الحبرية الأرثوذكسية . هذه الأحزاب الدينية وجدت الأمر لايطاق أن تعترف دولة إسرائيل بالتحويلية التي يجريها الحاخامات المحافظون والإصلاحيون خارج دولة إسرائيل وطالبوا بتعديل على القانون الإسرائيلي بيد أن كلاً من حزب العمال ومن بعده حزب الليكود لم يخضعا لهذا الضغط .

وظهرت الى الوجود في السنوات السابقة لعام ١٩٦٧ الطبقة الاجتماعية التي حددت لكل قطاع دوره الخاص به . فقد حكمت نخبة الأشكيناز الأغلبية السفاردية التي قبلت مذعنة المواطنة من الدرجة الثانية بينما شكل المواطن العربي مواطن الدرجة الثالثة . ولم يتعرض هذا التنظيم الثالث لأي جدال حوله باستثناء بعض الأصوات الخافتة المتناثرة هنا وهناك . أما في المخيم الديني فقد كان مصدر اللاأستقرار هو جيل الشباب .

لقد أربك الوضع الديني الذي وضعه حزب العمال داخل إطار سياسي رجال الدين من الشباب فطلبة ياشيفا أغودات إسرائيل مستثنين من الخدمة في الجيش بينما خدم شباب ميزراحي لفترة قصيرة في مهام ذات طبيعة دينية مثل الحانوتي ومشرفين على محلات بيع الغذاء الذي أقرته الديانة اليهودية أو موفرين لكتب الصلاة .

وينظر مجتمع فكري شوفيني كإسرائيل؛ حيث تتناسب فيه الخدمة العسكرية مع الوضع الاجتماعي؛ الى الجماعة الدينية نظرة استهزاء وهامشية . ويذهب صغار الجماعة غير الدينية الى مناداة أترابهم من الدينيين بأسماء سخرية ويعاملونهم معاملة الأقل شأناً منهم . وعليه شرع رجال الدين لاسيما الشباب الراديكالي منهم بتحين الفرصة ليرد لهم الصاع صاعين وقد واتتهم هذه الفرصة في حزيران عام ١٩٦٧ .

ترجم معظم رجال الدين الإسرائيلي نصر عام ١٩٦٧ بأنه معجزة سماوية وصلت

ذروتها حين دخل الجنود القدس الشرقية ووصلوا حائط المبكى. واستحال الإذلال السابق الذي قدمه الدنيويون لرجال الدين الى شعور بالأعجاب اقترب حد النشوة القصوى ومن هذه اللحظة تغيرت الصورة الذاتية للشباب الصهيوني الديني كثيراً وتلك كانت عملية تبلورت تدريجياً عام ١٩٧٤ : لقد خرج الشباب الديني منتصراً بعد فاجعة حرب تشرين عام ١٩٧٣ وفجر آخر حكومة عمال فهم قد أصبحوا طليعة مستوطني الضفة الغربية بدلاً من أن يكونوا موظفين دينيين.

أطلقت القوة الرئيسة والجوهرية للمستوطنين العسكر والمتدينين داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة التي احتلتها إسرائيل على نفسها اسم (غوش امونيم او كتلة الايمان) فهي قد آمنت - باعتبارها مجموعة من المتطوعين المتحمسين - بأنها الكتلة الوحيدة القادرة على إدراك الأهمية التاريخية واللاهوتية للأحداث داخل إسرائيل وهي قد عرفت نفسها في شكل القلنسوة (اليرملك) الملونة والكبيرة والبراقة التي ارتدوها بدلاً من القلنسوة السابقة الصغيرة والمستوية. وقدم معظم قادة كتلة الايمان من الياشيفا التي مقرها القدس والمسماة بـ(مركز الحاخام) يتزعمه الحاخام يهودا زيفي كوك.

وجدت كتلة الايمان في الحكومة عدوها الكامن حتى عام ١٩٧٧ . فهم قد أخذوا القانون بأيديهم وأقاموا مستوطنات غير شرعية متحدين سياسة الاستيطان الحكومية وتصادموا مع الجنود الإسرائيليين الذين جاءوا لطردهم من هذه المستوطنات ونظموا مظاهرات عنف وأقاموا الحواجز في الطرقات عندما حاول وزير الخارجية هنري كيسنجر (الذي أطلقوا عليه لقب الصبي اليهودي) بين عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٥ التوسط للتوصل الى اتفاقية مؤقتة بين إسرائيل من جهة ومصر وسوريا من جهة اخرى. وبعد انهيار حكومة رابين وتولي بيغن رئاسة الحكومة، قدمت كتلة الايمان دعماً قوياً للحكومة الجديدة واستبدل التحالف بين الصهيونية الدينية وحكومة العمال

باتحاد جديد بين الليكود والأحزاب الدينية الإسرائيلية التي كانت فيها كتلة الايمان إحدى أقوى هذه الأحزاب وأكثرها حركة داخل اللوبي السياسي في إسرائيل. لقد عرفوا كيف يجنون أموالهم ونجحوا في عرض صورتهم أمام العامة على انهم أحفاد الصهيونية الأولى وهكذا استعمروا الأرض كما فعل من قبلهم الرواد الصهاينة.

بيد أن بيغن أدرك نهاية المطاف أنه غير قادر على إشباع الشهية المفتوحة لكتلة الايمان، لقد آمنت الكتلة أن الحكم العسكري الإسرائيلي داخل الأراضي المحتلة ليس بالوحشية والعدوانية التي يجب أن يكون عليها وماهو إلا وقت قصير حتى نعتوا بيغن بنفس العبارات التي أطلقوها مسبقاً على رابين: رقيق جداً في معاملة الفلسطينيين. ولما لم تلق دعوتهم لإجهاض الطموح القومي الفلسطيني أذناً صاغية قرروا أن يغيروا من معدل سرعتهم ويتعصبوا أكثر في فعالياتهم، إذ شكل عشرون عضواً من كتلة الايمان منظمة ارهابية عام ١٩٨٠ بعد أن استشاروا لهذا الأمر حاخاماتهم. لقد جرحت المجموعة أبرز ثلاثة رؤساء بلديات فلسطينيين ونفذوا بعد أربع سنوات حملة ارهابية للتمييز العنصري قتلوا فيها عن سابق إصرار ثلاثة طلاب فلسطينيين داخل الكلية الإسلامية في الخليل. كما فشلت خطة أخرى لنسف حافلة كانت تقل عدداً من أطفال المدارس الفلسطينيين.

وداخل هذه العصابة الإرهابية ثمة عصابة أصغر كان نشاطها آخذاً بالنمو فهي قد خططت لنسف المسجدين الواقعين على جبل الهيكل في القدس وهذان المسجدان تم بناءهما في موقع في موقع المعبد اليهودي الثاني القديم (الهيكل الثاني) الذي هدمه الرومان. وانطوت خطة هذه العصابة المتحمسة على رفع المسجدين وفسح المجال أمام بناء كنيسة ثالثة تقودهم فكرة أن يسوع والخلاص النهائي سيقومان إذا ما تم إنجاز الهيكل الثالث. بينما يعتبر المسلمون هذين المسجدين من أكثر الأماكن المقدسة لديهم بعد مكة والمدينة في العربية السعودية التي هي مهد الإسلام. ولك أن تتخيل

ماذا كان سيحدث لو نجح المتطرفون الصهاينة في خطتهم هذه ونسفوا المسجدين . إن أمة الإسلام كلها والتي يزيد عدد نفوسها على ثلاثمئة مليون نسمة كانت ستهب عن بكرة أبيها وسينادون بالجهاد أو الحرب المقدسة ضد إسرائيل .

إن مثل هذا المشهد الرؤيوي كان جد كبير حتى لوزارة الليكود العسكرية العقل . لقد تجاهل الليكود حتى ذلك الوقت التطرفية اليهودية ليس هذا فحسب بل ان الليكود بادىء الأمر أنكر وجود مثل هذه التطرفية مشيراً الى ان عمليات الاغتيال التي تحدث إنما حرض عليها الإرهابيون الفلسطينيون . ففي عام ١٩٨٤ تم القاء القبض على عشرين شاباً وكهلاً يهودياً متحمساً ينتمون جميعاً الى كتلة الايمان أو غوش امونيم . وقد صدر الحكم على معظمهم بعقوبات خفيفة بينما صدر الحكم على ثلاثة منهم فقط بالسجن المؤبد بعد ثبات تورطهم بجريمة القتل .

وحتى اليوم مابرحت فكرة بناء الهيكل الثالث قائمة . اذ يوجد في الحي الإسلامي في مدينة القدس القديمة بنايات (كوهانيم ياشيفا) التي يتخصص طلابها في دراسة الهيكلين الأول والثاني . وهي قد نحتت نماذج لهذين البنائين ونسخاً من أدواتها الدينية مثل المذبح وتاج الملك وحتى رداء الكهنة الخارجي بالاستناد الى المواصفات الواردة في التوراة . وقد حاول بعض هؤلاء الطلبة وهم في حالة اتقاد الذهاب الى جبل الهيكل وإقامة طقوس تقديم القربان بيد أن أياً من هؤلاء الطلبة أو أوصيائهم لم يزيد علناً نسف هذه الجوامع لأنهم أيقنوا انها ستحدث بطريقة ما . وان زيارة لهذه الياشيفا ستزرع فيك يقيناً مطلقاً ان بناء هذا الهيكل الثالث ليس سوى مسألة وقت .

في هذا الوقت وعلى النقيض من هذا الاتجاه الراديكالي الذي دفع بالصهيونية من قطاع الواقعية الى العسكرية كانت بذور اتجاه آخر آخذة بالنمو بين الأرثوذكسيين . لقد انتقلت الأرثوذكسية من القبول السلبي للصهيونية والدولة في عصر العمال الى

المشاركة الفعلية في شؤون الدولة. وبدأت تجني الفوائد المالية بمجرد وصول الليكود الى السلطة عام ١٩٧٧.

لقد حولت حكومات الليكود المتعاقبة مئات الملايين من الدولارات الى الأرثوذكس وقد ساعدهم ازدهارهم المفاجيء هذا على توسيع سجلاتهم فمزيد من الطلاب ومزيد من الياشفا يعني مزيداً من المطابخ وماشابهها وهي تعني أيضاً ان مزيداً من الشباب سيقتادون الى الخدمة العسكرية.

يقول المؤلف (حاييم بير): «ان الأرثوذكسية الجديدة تتعامل مع إسرائيل كأنها ماكنة مصرفية» فكلما احتاجوا مالاً -وحاجتهم للمال لايمكن إشباعها- تصرفوا كأنهم مستهلك مثالي، يذهبون الى الماكنة ويضغطون بعض الأزرار ويحصلون على مالهم وانهم بدلاً من أن يضعوا البطاقة البلاستيكية يضعون التخويف السياسي. فالليكود لايقوى حالاً بدونهم وهم من يملك ميزان القوى. ولأنهم كذلك فان الاحزاب الارثوذكسية تستخدم لغة بسيطة: «أعطنا هذه، لانريد تلك وإلا فلن نصوت لصالحك».

ان علاقة الأرثوذكسية الجديدة بالدولة كالشارع ذي الاتجاه الواحد. لقد قال الرئيس جون كينيدي: «لاتسأل عما بوسع الدولة أن تعطيك بل تساءل بالذي أنت قادر على أن تعطيه للدولة» ويبدو أن الأرثوذكسية قد تجاهلت الجزء الثاني من الجملة وركزت على الذي تدين به الدولة اليها.

هذا التغير في موقف الأرثودكس والذي تضمن دخولاً فاعلاً في نشاطات مجلس الوزراء قد ساعد اليه كثيراً ظهور حزب (شاس) وهو حزب أرثوذكسي جديد مثل الى حد كبير السكان السفارديم. ظهر هذا الحزب في أول الأمر في إنتخابات عام ١٩٨٣ بأمل محاربة التمييز العنصري ضد السفارديم. وقد تأسس الحزب على يد حاخام

أشكينازي (وتلك هي المفارقة) كان واقعاً في شجار مرير مع بقية زملائه . وقد تألف معظم قادة الحزب السياسيين والروحيين من حاخامات من أصل مغربي تعلموا في مدارس الياشيفا الأشكينازية الأرثوذكسية . لقد تبنوا طرائق معلميهم لكنهم عاشوا دوماً في شعور الحرمان .

كان لحزب شاس، وبخلاف الكثير من الأحزاب الدينية الإخرى لاسيما إتحاد إسرائيل التي اعتمدت غالباً على مرشح لها؛ نفوذاً وصوتاً مسموعاً على نطاق واسع . كان جمهورهم الخطر هو السفارديم عموماً وليس فقط الأرثوذكسيين بين السفارديم . لقد عرف معظم السفارديم من الذين لم يعتبرهم الأشكيناز دينيين أنفسهم بالتقليديين والملتزمين . لقد عرفوا أنفسهم في أقل تقدير في إطار بعض جوانب الدين والتزموا ببعض ممارساته . لقد شق حزب شاس طريقه ليكون منظمة سياسية لها جذورها داخل إسرائيل سيا بعد أن حصل له على وزير داخل مجلس الوزراء وستة أعضاء كنيست وحفنة من بعض كبار رجالات الدولة . وانصبت معظم جهودهم على تعزيز شبكة التعليم المستقل التي أسسها الحزب على مدى ثماني سنوات وهذا يعني ان الأحزاب الدينية تتولى إدارة ثلاثة أنظمة تعليمية داخل إسرائيل من أصل أربعة .

ويتمتع زعماء حزب شاس بشعبية واسعة بين جمهورهم ليتعارضوا في هذا الأمر مع قادة حزب إتحاد إسرائيل مثلاً البعيدين عن جمهورهم والقساة حيالهم . انهم يتحدثون باللغة العامية ولايترددون في الإختلاط مع مؤيديهم . لقد رفض قادة الأرثودكسية الظهور على شاشات التلفاز لأن مشاهدة التلفاز يعد أمراً مرفوضاً تماماً في نمط حياتهم ، وهنا استوعب قادة حزب شاس أهمية الإعلام فكرروا ظهورهم في لقاءات من على شاشة التلفاز الذي اعتبروه أداة إعلامية مهمة في مسعىً منهم للعودة بالإسرائيليين الدنيويين الى جذورهم الدينية .

في هذا الإطار يكون حزب شاس الحزب التبشيري الأكبر في البلاد والذي جعل

من شعائر التوبة صناعة جماهيرية . فقد شرع الحزب سنوياً بتجميع المتعاطفين معه في ساحات رياضية كبيرة . هذه الأحداث تشبه الى حد كبير حفلات الروك الصاخبة وفيها يتناول الحضور بين كل موسيقى دينية شعبية جرعات من الموعظة التلقينية يلقيها عليهم أحد الحاخامات المسعورين في أسلوب يشابه أسلوب معمدانية التلفزيون الأمريكية . وفيها يوظف (صيادوا الأرواح) من حزب شاس كل أدوات وتقنيات التسويق الحديثة من الدعايات والأعلانات واجهزة التسجيل المرئية والسمعية . إنهم خبراء في الدعايات واستغلوا الضعف الناجم عن أزمة الهوية الإسرائيلية وانتقدوا ما أسموه بفراغ وفساد وعفن الحياة الإسرائيلية غير الدينية ووعدوا بملء هذه الفجوة بالمعنى . وفي الواقع لاتوجد معلوماتية دقيقة عن أعداد الإسرائيليين المولودين ثانية بيد أن العدد قد ازدهر كثيراً في مرحلة التسعينات وذلك بالاستناد الى ما تناقلته وسائل الاعلام .

لقد جلب نجاح حزب شاس عليه حقد ولعنة خصومه من الأحزاب الدينية الأخرى وهو ما دفع بهذه الأحزاب الدينية جميعها أن تغوص في أعماق صراع مرير لأجل الهيمنة السياسية . وبدا ان هذه الأحزاب يكره بعضهم الآخر أكثر من كرههم لخصومهم غير الدينيين . وقد وصلت هزالة هذه الخصومة الدينية ذروتها في الحملة الانتخابية عام ١٩٨٨ . فقد ظهر حاخامات حزب شاس في أحد لقاءاتهم التلفزيونية يرتدون رداءات طويلة مطرزة بالذهب وعمامات لإعتاق الذنوب وطرد العين الشريرة وإبطال القسم والتحريم الكنسي واللعنات . وقد تبين ان حزب الاتحاد قد أقنع الناخبين بقطع العهد على أنفسهم بالولاء لقضيتهم وتوعد ان من يخرق عهده ستحل به اللعنة وسينال جزاؤه هو وعائلته .

إن الظهور التلفازي لحاخامات حزب شاس قد أبهر العامة الإسرائيلية غير الدينية التي رأت في هذا الأمر فصلاً آخر مبالغ فيه لاوبرا الحزب السياسية الناعمة بيد

أن هذا الحدث قد ألقى الضوء على الجانب المظلم والبدائي للسياسات الدينية داخل إسرائيل: الإستهتار الساخر لتخلفية جمهور الناخبين وكذلك تعلمهم الصوفي.

لقد تفوق الزعيم السياسي الأول لحزب شاس (رابي بيرتز) في صياغاته للعبارات المسعورة ضد الحياة الدنيوية لإسرائيل. فهو قد أعلن بعد الحادث الذي أودى بحياة عشرين طفلاً أثناء اصطدام حافلة المدرسة مع قطار ان هذا عقوبة الرب لنقص في روحانية الإسرائيليين، وفي مناسبة اخرى هاجم التعليم الإسرائيلي خاصة داخل الجامعات التي تدرس نظريات (تشارلز داروين) وأيد رفع المناهج التي تبحث في نظرية النشوء وكذلك العلوم غير الخلاقة لأنها تدرس ان (الإنسان قد نشأ من قرد). كما عبر بيرتز عن رغبته في أن تعلم إسرائيل يوماً ما طلبتها ان العالم والجنس البشري قد أوجدهما الله لاغيره. بيد أن ما تسبب في صدمة حقيقية للإسرائيليين هو مهاجمته اللاذعة ضد الكيبوتز أو المزارع الجماعية اليهودية. إذ حاول في ايار من عام ١٩٩١ منع المزارع الجماعية اليهودية من إيواء المهاجرين من اليهود الاثيوبيين بادعائه ان هذه الكيبوتز لاتفتقر الى الحضارة اليهودية فحسب بل انها عامل مشجع ليتجرد المرء من ديانته وضرب في الأمر مثالاً كيف ان شقيقته التي ترعرعت في هذه الكيبوتز قد توقفت بعكسه عن ديانتها وغدت راقصة ورسامة، وقد علق صارخاً في احدى لقاءاته التلفازية المنقولة حياً: «إنكم مذنبون في تحطيم اختي».

ولن يتوان اليوم الساسة المتدينون من استخدام عضلاتهم بجانب لغتهم في مسعاهم الأبدي لإحداث التشريعية الدينية التي تهدف الى التقليل من شأن الحياة العصرية والتقدم والحقوق المدنية الأساسية، وهم يتطلعون نحو تقييد أشمل وأوسع على عمليات الإجهاض والتنقيب الآثاري وعلى حق الأطباء في زرع الأعضاء الحية وتشويه جثث الموتى. لقد نجحوا في منع طائرات شركة الخطوط الوطنية الإسرائيلية (العال) من الطيران أيام السبت بينما فشلت لهم محاولة اخرى هدفت الى وضع نهاية

لإنتاج وبيع لحم الخنزير طوال العام والخبز خلال اسبوع عيد الفصح. وهنا تقول (شولاميت الوني) زعيمة (حريات وسلام المواطنين): «سيدخل الدين في مطابخكم وسيتوزع المتدينون في كل مكان عاجلاً في شوارعكم وفي سواحل شواطئكم وفي مدارسكم وعلى أسرة نومكم».

وإذا كان (التأثير الإنتهاكي للدين) قد حذر شولاميت الوني التي هي أكثر سياسي إسرائيلي صراحة فإن المؤرخ (ايمانويل سيفان) يرى الأمر من زاوية مختلفة أخرى. فهو يقول ان الحماس الديني لحزب شاس وقومية كتلة الايمان ليسا إلا مساهمة إسرائيلية الى التعصبية والتطرفية الدينيتين والموجودتين أيضاً في المجتمعات الأخرى، ويضيف موضحاً: «تشترك المسيحية والاسلام واليهودية في توقها نحو نظام ثيوقراطي ومعارضة مستميتة ضد أي تعبير لما يسمى بالمادية والفسادية الغربية».

ومع هذا لم يقتصر الفساد على حدود غير الدينيين من الإسرائيليين. لقد حققت الشرطة والادعاء العام في كثير من الدعاوى التي تضمنت إساءة استخدام أو نقلاً غير قانوني لأموال العامة قام بها الوزراء أو أعضاء في الكنيست ينتمون الى حزب شاس الديني. وتبين أيضاً ان العديد من قادة شاس الذين قدموا من خلفيات فقيرة قد بلغوا سلم الثراء العالي سريعاً فسكنوا شققاً فخمة واستقلوا سيارات فارهة و...... الخ. ويوضح (اورا نامير) الوزير في حكومة رابين الجديدة ان (سلوكية الساسة المتدينين ونشاطاتهم إنها تعلم العامة كيف يكرهوا دينهم).

إزدادت حدة الإزدراء الدنيوي للجماعة الأرثوذكسية نتيجة للموقف المزدوج الذي تبنته الأرثوذكسية في موقفها الساخر من الحياة العصرية. فهي من الجانب الأول قد مقتت كثيراً العصرانية ورأت فيها عدوها بينما أحبت من الجانب الآخر الإستمتاع بتقدمها التكنولوجي. وعليه ابتكرت الأرثوذكسية الكثير من الطرق المقنعة حول عدد من التقاليد التي زعموا تمسكهم الشديد بها. هذه التقاليد تمنع على سبيل المثال

الدخول في العديد من النشاطات او الفعاليات في يوم السبت المقدس لأن التوراة قد حرمت العمل وإضرام النار في هذا اليوم. وهذه المحرمات القديمة قد توسعت خلال القرن العشرين لتشمل التطبيقات الكهربائية. وكبديل لهذا الأمر ابتدعت الأرثودكسية حيلاً لتساعدها في المراوغة حول تحريم إضرام النار يوم السبت فصنعوا فانوساً سبتياً خاصاً يضاء قبل إطلالة فجر يوم السبت ويبقى مضاء طيلة الليل والنهار. ويوجد أيضاً جهاز هاتف خاص يسمح لهذا المتمسك بتقاليده ان يستقبل ويرسل المكالمات الهاتفية. وقد سمح كبير حاخامات إسرائيل في شتاء عام ١٩٩٢ للأرثودكسية باستخدام الهاتف في حالات الطوارىء بشرط ان لا يكون هناك اتصال جسدي مباشر بين المتحدث وجهاز الهاتف عند تحريك القرص وهنا نفع استخدام قلم الرصاص كأداة نافعة لهذا الغرض.

ملكت اليهودية في الماضي حاخامات ملهمين من ذوي المعرفة الواسعة كان أشهرهم جميعاً الحاخام (موشي بن مايمون) الذي عاش في اسبانيا في القرن الحادي عشر. لقد ترجم التوراة والتقاليد المتراكمة بطريقة كانت تتوافق وعهده. الا ان اليهودية الأرثودكسية قد عجزت والقرون العديدة ان تنجب حاخاماً من طرازه قادراً أن يأخذ على عاتقه مهمة تحديث هذه التقاليد. وعلى العكس من هذا تماماً شغل حاخامات اليوم أنفسهم في قرارات ساذجة ليس لها من الأهمية اي مكان وربما صح القول عليها انها قرارات سخيفة لا تنفع جدوىً لأي شيء.

لهذه الأسباب جميعها شهدت أوائل مرحلة التسعينات توتراً متزايداً بين الأغلبية غير الدينية والأقلية الدينية. لقد راقب الدنيويون الإسرائيليون في الماضي النشاطات الدينية بشيء من اللامبالاة. واذن تأسست هنا وهناك بعض المنظمات مثل (الكنمانية) لمواجهة هذا (القسر الديني) بيد أنها لم تترك أثراً ذي صدى. أما الآن فقد تغير هذا الموقف، لقد تزايدت أعداد الإسرائيليين الدنيويين يوماً بعد آخر للدفاع عن وجهات

نظرهم وطرق معيشتهم للحياة. فقد طالبت عوائل الموتى ان يظهر التاريخ غير اليهودي على قبور موتاهم بجانب تاريخ التقويم اليهودي. وتم افتتاح تجمعات ومعابد دينية إصلاحية ومحافظة برغم المعارضة الأرثودكسية القوية لها ووجد مطلب لإحدى هذه الجماعات الإصلاحية بان يكون لها مقبرتها الخاصة بها دعماً جماهيرياً كبيراً. وطالبت أيضاً أحزاب الجناح اليساري وبعض قطاعات حزب العمال الفصل بين الدين والدولة التي ستجعل من اليسير إجراء مراسيم الزواج والطلاق والدفن المدني.

هذه الحالة المخيمة الجديدة قد أعطت زخماً إضافياً للدنيويين للإنتقال من الإستجابة السلبية الى أخرى ذات طبيعة إيجابية. وأضحت القدس الساحة الكبيرة لرحى هذه الحرب الدائرة. فقد حطمت الشراذم الأرثودكسية لوحات العرض التي تحمل أزياء عصرية تصف عارية ورشقوا بالحجارة السيارات المارة في أيام السبت. ومن جانبهم هاجم الشباب غير الديني المحتج ما وصفوه بـ (الحصار الذي تفرضه القوى الغازية لمتطرفي القدس على جماعة القدس غير الدينيين). واستخدم هؤلاء الشباب وسائل غير معروفة للعامة في نضالهم هذا ولجأوا في أحايين أخرى الى عنف الشوارع، وشنوا أيضاً في محاولاتهم رفع هذا (الحصار) غارات على المناطق الأرثودكسية وغطوا الجدران بشعارات مناهضة للدين. كما تضمنت وسائلهم الترفيهية غير الأرثودكسية إفتتاح دور السينما والمسارح والمطاعم في ليالي الجمع وكذلك تسيير حافلات للنقل العام في أيام السبت. وقد وصلت نشاطات الجماعات غير الدينية ذروة وحشيتها في ربيع عام ١٩٩١ عندما وضعوا رأس خنزير على عتبة إحدى كنائس العبادة حيث تجلى ان من اقترف عملاً كهذا إنما هو فوق القمة ولم يعلن اي طرف مسؤوليته عن ذلك.

وفي الحقيقة رددت الأرثودكسية على الدوام قولها ان سلوكية الجماعات الإسرائيلية غير الدينية تعيد اليها دوماً السلوكية المناهضة للسامية، ولا يبدو لي ان

الأرثودكسية ستجد لها مكاناً أكثر من دولة إسرائيل يكن لها البغض والخوف منها. (إنني حيثما رأيت هذه الشعائر الأرثودكسية تفهمت معنى مناهضة السامية) تلك هي العبارة الشائعة بين الإسرائيليين غير الدينيين. لقد تعود هؤلاء ان يطلقوا على الأرثوذكسية تسمية (اليهود السود) او مجرد صفة (السود) على أساس ملابسهم السوداء التي يرتدوها دوماً. كما يلقبهم اليساريون ب (القوة السوداء). لقد وجد هؤلاء في الأرثودكسية حيواناً متطفلاً يستنزف عصارات المجتمع غير الديني الحيوية.

إن الأحزاب الدينية في واقع الأمر كانت دوماً أقل قوة وأكثر عرضة للايذاء مما قد يتصوره البعض. فهي لم تنجح منذ الإنتخابات الاولى عام ١٩٤٩ في زيادة عدد مقاعدها داخل الكنيست الإسرائيلي وعلى اي شكل مهم كان بالرغم من زيادة تعداد السكان اليهودي داخل إسرائيل سبع مرات ما كان عليه في ذلك التاريخ، وظلت أعداد مقاعدهم تتراوح دوماً بين الخمسة عشر الى ثمانية عشر مقعداً من اصل مئة وعشرين مقعداً.

وبمقدورنا أيضاً أن نجري مقارنة بين أعداد اولئك الذين عادوا أدراجهم الى جذورهم الدينية وأولئك الذين خلعوا قبعاتهم وغيروا ملابسهم التقليدية وتبنوا طريقة عيش عصرية. إن محاولة قلب واقع الحال باستحداث تشريع ديني جديد قد باءت دوماً بالفشل إن لم تأخذ لها حيزاً يذكر.

لقد تشكى المتدينون بمرارة ان واقع الحال قد تآكل ولكن في غير صالحهم. فهم يرون بأم أعينهم أعداد دور السينما والمطاعم وحانات شرب الخمر العاملة يوم السبت آخذة بالإزدياد لتفسد عليهم يومهم المقدس حتى في مدينة القدس مدينتهم المقدسة. وأكثر الظواهر ايذاءاً للطائفة الدينية هي تلك الظاهرة الحديثة المعروفة بـ(عرض دراجة يوم خيبر) حيث تتوقف في هذا اليوم المقدس من التقويم اليهودي الحركة

المرورية في جميع الشوارع التي تزدحم بدلاً من السيارات بـالسـابلة من العوائل الدينية وغير الدينية على حد سواء في طريقها نحو التجمعات . كان الجو السائد مقدساً بيد ان الحال تغير وانخفضت أعداد حضـور مثل هذه التجمعات الدينيـة وامتلأت الشوارع بدلاً من السـيارات بالدراجات الهوائية وهي ظـاهرة ابتدأها الأطفال الذين لم يسعفهم حالهم مقاومة إغراءات الطرق وهي فارغة . ثم غدت جميع العائلة تركـب دراجاتها في رحـلاتها هذه . واتجه من كـان يومـاً لا يفكر ان يفقـد من يديه فـرصة حضـور تلك المناسبة الـدينية الى الشواطيء السـاحليـة ليستمتع بالسباحة . ان يـوم خيبر يوشك أن يكون يوم إنبعاث وطني .

وقبالة هذه الخلفية يمكن رؤية نشاطات الإحتجاج الدينية بضوء مختلف . أي انها نشـاطات رد فعل بـائس لأناس يشعـرون انهم يفقـدون أرضيتهم في سـاحـة المعركـة الحضارية أكثر من أن تكون مجرد نشاطات عدوانية وتوسعية .

إن الجو السائد على العلاقات الدينية الدنيويـة هو واحد من الإنقسامات المتزايدة والعزلة المتبادلة النامية فكلاً يتجه يوماً بعد آخر ليغدوا أكثر عسكرية وليركـب المخاطر في مواجهتـه للآخـر وكلاهما ينـرق يومـاً بعد آخـر في ذاتيته وليحمل لطائفتـه فقط . فأطفـال كل طائفـة تدخل مـدارس مفصولـة عن مدارس الطـائفة الأخـرى واقتصر الزواج على أفـراد الطائفة الـواحدة . ولم تظهر محاولة جـادة واحدة لتبادل أفكـار نافع بينهما وليستثمر احتمالات أفضل للتعـايش المشترك السلمي والتراضي المتبادل . وبينما يتجه إسرائيليـوا الطبقة الوسطى من غير الـدينين صوب التعصب المستمر لحيـاة أكثر مادية في ضواحيهم التل أبيبية ترى الدينيين من أحزاب شاس أو إتحاد إسرائيل أو كتلة الايمان يتراجعـون الى أحيـائهم الخاصـة بهم والى مستـوطنـاتهم ونسيـانهم . تلك هي الظاهرة التي وصفها (ايمانويل شيفا) بـ (حضارة المقاطعات)

الفصل الثامن

ثقافة الدفاع

نحت الفنان الأمريكي(جورج سيجال)في مطلع السبعينات تمثالاً كبيراً من الجبس لأب يمسك بسكينه وابنه راكع تحت قدميه . لقد استلهم الفنان الفكرة من التوراة على نحو أكيد: إنه أبراهام* يضحي بابنه اسحق**: إنه اختيار الرب لايمان أبراهام بأن أمره أن يأخذ بابنه الى تل في القدس ويقدمه قرباناً. لما يزل هذا التمثال محفوظا في الطابق التحتي في متحف تل أبيب منذ قرابة عشرين عاما بعيداً عن أنظار العامة بعد أن رأى فيه أمناء المتحف ورؤساؤهم السياسيون أنه انتقاد لحقيقة إسرائيل؛ فهي الدولة التي تضحي بأبنائها لأجل الحرب؛ فالفنان سيجال قد أجرى مقارنة بين (الأب) الذي قدم ابنه قربانا ليرضي ربه وبين الأب الإسرائيلي الذي يرغب أن يرى ابنه ميتا كي تعود إليه دولة إسرائيل.

كان ثمن البقاء الإسرائيلي جد باهض: إنه أجساد وأرواح جُلّها من الشباب، وقد أشارت إحصائية رسمية صدرت عن وزارة الدفاع في أيار عام ١٩٩٢ أن إسرائيل خسرت ١٧,٥٠٠ إسرائيلي وما يزيد على ٥٦ ألف جريح خلال حروب البلاد السبعة وبقية المواجهات العسكرية.

إن إسرائيل اليوم واحدة من اكثر البلدان المعبأة عسكريا في العالم، ومانفك أمن البلاد يشغل الحيز الأخطر في الضمير القومي. لقد تحققت لإسرائيل هذه التعبئة العسكرية عبر برنامج ثقافي دقيق يبدأ من رياض الأطفال وتجلت غاية الدولة المطلقة

* ورد اسمه في التوراة ابراهام وهو اسمه الأصلي ثم أوحى اليه ربه أن يغيره الى ابراهيم.

**جاء في الإسلام أنه قدم اسماعيل وليس اسحق قربانا.

برسم اتفاق جماعي يقنع عـامة المواطنين بعدالة الطريق الذي ينتهجون ولتقطع عنهم قدر المستطـاع دابر الشك. وهي تعلم أن طـريقها الـذي سيزرع الايمان لـدى الأبناء حيـال قـدرهم سيصبح يسيرا طـالما أن الدافـع الحاث لهذا الغرض مـوجـود وايمانهم بقضيتهم قائما، وان الشعب الـذي يتسلله الشك في أحقيـة أهداف حكـومته ستنحل خيوط وحدته وسيغدو أكثر عرضـة للتهديد المستمر سيما وأن أعداءه يحيطونه من كل حدب وصوب.

لقـد اطلع الأسرائيليـون على ترجمة ذات بعـد واحـد لتاريخهم تبـدأ من احـتـلال اليهـود لـدولة إسرائيل ايـريتـز مع التركيـز على حـرب الاسـتقلال عـام ١٩٤٨ ومـا بعدها. انـه تاريخ مرسـوم بالأبيض والأسود يشـابه بذلك سيرة التـاريخ الأمريكي التي تجنبت ببراعة فائقة الحقيقة المخجلة المتعلقـة بذبح أبناء أمريكا الأصليين. وتمثلك أسطـورة إسرائيل أبنـاءً طيبين وأبناءً شريـرين، يفـوز الأبنـاء الطيبون بـالأعتماد على السينما الغـربيـة وعلى بعض صيغ الأفـلام المبتـذلـة بـالعـدالـة الطبيعيـة وهنـا ينسج الأسرائيلي لتـاريخه قصصاً عن صراط الأمـة المستقيم الذي لايخذل احـداً وكان دومـاً المكان المرغوب وتتحـدث لك نفس الأسطورة كيف تطلع الأسرائيلي دون كلل ليفتح نوافذ فرصـة السـلام للآخرين، بيد أن العرب -الأبناء الشريرين - أغلقوا هذه النوافذ وذهبوا للحرب.

لقد اصطحبت ولـدي البالغ من العمـر ثماني سنوات في أحـد مساءات ايـار عام ١٩٩٢ الى الأحتفالية المقـامة في مدرسته بمناسبـة يوم الهدنة (التذكـار) وهناك أعدت شريط الماضي وكيف يؤثر زرع مثل هذه الأفكار على طالب المدرسة الأسرائيلي فالنظام لا يحاول أن يصقل الشخصيـة الفرديـة والتفكير المستقل بل انه يحفـز التفكير الجماعي والتنسيق المشترك والعمل كأنهم خط إنتـاج في معمل ما، حيث عليهم إنتـاج بضاعـة ذات قياس واحد والتي هي أطفـالنا. وقلما خلت مدرسة إسرائيلية ابتـدائية كانت أم

ثانوية من طالب لم يفقد من أهله أحداً فحتى الركن المخصص ليوم الإحتفال كان عبارة عن صخرة بسيطة نقش عليها أسماء اللذين سقطوا في حروب إسرائيل .

يتجمع الإسرائيليون في كل قرية ومدينة في يوم المدنة (التذكار) وكذلك حول الكثير من القبور الإسرائيلية ليحتفلوا بهذه الذكرى وذلك قبل يوم من احتفالهم بيوم الاستقلال وهذه رسالة واضحة المعالم الى الشعب: لقد سقط هؤلاء الجنود فجعلوا استقلال إسرائيل ممكناً، أو كما جاء في كلمات الشاعر (ناتان التزمان) : «انهم طبق الفضة الذي تقدمت فيه إليكم دولة إسرائيل». تبدأ مراسم هذا اليوم بأصوات صفارات الإنذار وهي نفسها التي استخدمت أيام الحروب وبضمنها حرب الخليج الأخيرة عندما كانت تحذر أن صاروخ سكود عراقي في طريقه إلينا . وبعد أن تتوقف صفارات الإنذار يقف الإسرائيليون دقيقتي صمت ثم تنكس الأعلام وتضاء الشعلة على يد والد فقد أحداً من أبنائه وبعد نصف ساعه تختتم مراسم الإحتفال بغناء النشيد الوطني .

تكمن أسطورة إسرائيل الكبرى في البطولة في (الماسادا) التي هي صخرة مؤثرة يبلغ ارتفاعها ألفاً وأربعمائة قدم، وما زالت موجودة في نهاية الجزيرة اليهودية مقابل البحر الميت . لقد تحول المكان قبل أكثر من ألف وتسعمائة سنة الى حصن لمجموعة صغيرة من اليهود المتطرفين والمتحمسين ومنهما قاتلوا بعناد حشود الإمبراطورية الرومانية . وتقول الترجمة الأكثر شيوعاً لهذه الواقعة أن اليهود بعد أن أدركوا أنهم لن يطيلوا صموداً بوجه الحصار الروماني قرروا أن ينتحروا جميعاً بدلاً من مذلة الأسر، بينما يقول مؤرخون آخرون انها ليست بالإنتحار الجماعي وانما مذبحة اقترفها الرومان بحق اليهود راح فيها تسعمائة وستون يهودياً بضمنهم أولادهم ونساؤهم وشيوخهم . لقد حاولت اليهودية عمداً إزالة مأساة الماسادا من ذاكرة اليهودي لأنها لاتقبل بمبدأ الانتحار والذي يموت بهذه الطريقة يدفن خارج فناء القبر .

ولم يتبن الكتاب والمؤرخون والسياسيون اليهود ساغة الماسادا إلا بعد أن تمت المباشرة بمشروع الاستيطان اليهودي حتى وصلت صناعة هذه الأسطورة ذروتها عام ١٩٢٧ عندما كتب الشاعر اليهودي (لاكوف لامدان) : «لن تحدث الماسادا ثانية أبداً» . لقد أضحى هذا البيت الشعري دليلاً لأجيال المستقبل من الصهاينة وأصبحت الماسادا رمزا للبطولة المتجددة لشعب اليهود في نضالهم لأجل الاستقلال، ويتلقن أطفال المدارس اليوم أن يكنوا إعجاباً للماسادا وحتمت وزارة السياحة على السياح زيارتها ووظف حزب الليكود بعد أن تسلم السلطة عام ١٩٧٧ شعبية الماسادا على نحو أكثر عمقاً . لقد خدمت قصتها أيديولوجية وسياسة حزب الليكود على شكل خاص فهو يقول طالما أن العالم ضد شعب اليهود فلا مجال إذن للمساومة على نضال إسرائيل لأجل الاستقلال . لقد إشترطوا على الإسرائيليين في أحايين معينة أن يفضلوا الحرية وإن كان فيها هلاكهم على العبودية وإن كان فيها بقاءهم .

لقد زرقت إسرائيل الوطنية في حليب الأم لأطفالها وهذا أمر ليس بالغريب فمدن إسرائيل (تبنت) وحدات الجيش وتحتفل عنها (بعيد ميلادها)، وهي احتفالية تترجى منها تعزيز الرابطة بين الخطوط الأمامية والخلفية ولتتفرد بهذه السمة عن باقي دول العالم المتقدمة . إن هدفهم المشاع هو الأطفال المحليون . فإسرائيل تشجع صغارها لزيارة معارض الأسلحة والجيش بدلاً من حدائق التسلية كما يفعل اترابهم في باقي أماكن العالم .

تبنت تل أبيب لنفسها فيلقاً مدرعاً وهي تحتفل كل سنة بذكرى (يوم الفيلق المدرع) الذي تتجه فيه الدبابات وناقلات الجنود صوب ساحة تل أبيب المركزية لتزرع في السكان حجم قوتها، وإلى هناك يذهب عشرات الآلاف من الأطفال يصحبهم آباؤهم ليتقافزوا فوق لعب الدمار ويتحدثوا الى طاقمها . يرى الإسرائيليون أغلبهم هذه العلاقة أمراً طبيعياً فالصغار قد ولدوا ليعبدوا العسكرية ، فليس بغريب اذن أن

نرى هؤلاء الأطفال أنفسهم بعد خمس أو عشر سنوات وقد سلبت لبهم العسكرية والتحقوا بالقوة الجوية أو الدروع أو قوة المظليين او اية وحدة اخرى ستترك لهم أثرا في ساحة المدينة المركزية . وتم توجيه التعليم الإسرائيلي طيلة فترة العقود الثلاثة الاولى لتلقين وتشجيع الشباب للتطوع في وحدات الجيش الخاصة والضاربة ، فهذه القوات الخاصة ستصقل كثيرا من قدراتهم وفيها يتسلم الجنود أوسمة وميداليات وأجنحة وأزياء مختلفة . ونحن إذ نغذي اطفال المدارس بهذه القصص البطولية فإننا نكون قد علمناهم عبادة هذه الوحدات الخاصة من الجيش .

فإذا كان حلم طالب الثانوية الأمريكي هو أن يلتحق بجامعة (آفي ليج) فإن نظيره الإسرائيلي لايطمح بغير أن ينتسب الى إحدى هذه الوحدات الممتازة في القوات المسلحة . ويطلق في إسرائيل على من لم يخدم في وحدة ضاربة اسم (جوبنك) ، كما كان الشعار المحفز للقوة الجوية الإسرائيلية في فترة الخمسينات هو (الأفضل من يطير) . وإني مازلت أذكر يوم كنت طالب مدرسة كم شددت عزمي لأضم نفسي في أحد هذه الوحدات الممتازة ، فهي بالنسبة لي رمز لهجرة جديدة وهي تعني قبولي النهائي في الصف الأعلى للإسرائيليين الوطنيين والصالحين . كانت فترة تدريبي الأولى جد قاسية ، فهي تجعل من القاصر رجلاً بينما أخذت مكافآتنا شكل الإجازة الدورية التي ننزل فيها بين المدنيين وننفخ بصدورنا كالطاووس متباهين بأجنحتنا (دبابيس زينة) التي تعني أننا مقاتلون .

تلك هي الوحدات العسكرية التي يعثر فيها المرء على جذور الإسرائيلية . وفيها يتكيف الجنود الصغار على تحمل عناء الحياة وأن يكبتوا الوجدان وفيها كنا نتلقى الأوامر العسكرية بإيقاع متقطع . كنا نقضي ليال دون أن يغمض لنا جفن وكانت عقوبة من يسقط منه سلاحه أن يبقى واقفاً لساعاتٍ طوال حاملاً سلاحه الثقيل فوق رأسه حتى تترخى عضلة ذراعه وتسقط يده . بينما يوسم من يستخف بتدريبه

بـ(الميت) ويقضي ليلته يحفر حفرة هي (قبره). إنه لعسير أن ترسم خطاً بين هـذا (التدريب العسكري) وبين (السادية المطلقة). استندت فلسفة القوات المسلحة الإسرائيلية على الايمان أن الإنهاك سيصنع من الجنود رجالاً حقيقيين، وعليه تراها تجبر مجنديها أن يأكلوا الرمال أو يزحفوا عراة فوق أرض وعرة أو يسيروا حفاة على أدغال شوكية. لقد دفع الصبيان ثمناً غالياً لقاء مبادرتهم هذه لبلوغ رجولتهم، فالبعض الذي ضاق ذرعاً بهذا الحمل النفسي قد انتحر، بينما دب الرعب في دواخل من قاوم هذا التدريب. والخدمة العسكرية إلزامية على نساء إسرائيل ممن يبلغن سن الثامنة عشرة، بيد أن المرأة تخدم وعلى خلاف الرجل لسنتين فقط في وحدات غير فعالة برغم أن هذا الأمر قد تغير في السنوات الخمسة الأخيرة مع ازدياد وعي المرأة حتى باتت تشغل مواقعاً إرتبطت سابقاً بالرجل مثل مُوجّه دبابة.

تعادل الخدمة العسكرية في إسرائيل (إجازة) الحياة. فمن لايخدم في القوات المسلحة لايحق له التقديم لكثير من الوظائف المدنية بينما يجد من أنهى خدمته العسكرية سيما إن كانت في إحدى الوحدات الممتازة فرصة أيسر من غيره ليحصل على عمل مرموق. ويعمل الجنود المسرحون من هذه الوحدات كـاحتياطي بشري لصناعة الأمن الإسرائيلية الواسعة النطاق ولأجهزتها السرية خاصة الموساد. أي أن الإسرائيلي الذي أنهى خدمته العسكرية في الوحدة المناسبة سيجد أمامه الطريق معبداً للنجاح.

لقد جلبت تعويضات جرائم النازية ضد اليهود والبالغة ملياري دولار أمريكي ثروةً اقتصادية وقوة عسكرية خلقتا معهما ازدهارا مع نهاية مرحلة الخمسينات ومطلع الستينات لم تشهد له إسرائيل نظيراًمن قبل. فقد اعتبروا دولة إسرائيل وريثاً شرعياً لشعب اليهود سواء أكانوا افراداًضحايا أو ناجين من المذبحة، وذهبت حصة الأسد من هذه الأموال لجيوب الحكومة. لقد وضعت هذه نهايةً للمرحلة التي كان فيها

الغذاء يـوزع بالحصص مقـابل طوابع غـذائية وأصبح اللحـم جزءأمن وجبـة الغذاء الإسرائيلية . إن إسرائيل لماتزل الى درجة ما مجتمعـاً للمثاليين برغم أن امارات الجشع والمادية واضحـة للعيان وما برح معظـم الشباب الإسرائيلي مطيعاً وخنوعـاً ومستعداً لتقبل السلطة عليه دون النقاش حولها .

كان موشي ديان وهومن مواليد عام ١٩١٥ أيقونة إسرائيل الأعظم خلال مرحلة الستينات ، وأضحى بعد حرب ١٩٦٧ الوثن لكل إسرائيلي فهو قد جسد بتناقضه مع اشكول وغولداماثير وجيليهما روحية وأسطـورية الصباري اليهودي . لقد بصم ديان على نفسه أيام صباه إمارات الفلاح الجندي ، فهو قد ولد في مزرعة لأبوين من الرواد المهاجرين ، ويقـول عنه بعض الناس أن جلده قد أحـرقه لفح لهيب الشمس . التحق ديان بالقوات اليهودية السرية في (هاغـانا) وفقد إحدى عينيه عام ١٩٤١ في سوريا في قتال مع الإنجليـز ضد وحدة فـرنسية موالية للنـازية ، ثم أصبحت الرقعة التجميلية السوداء التي ارتداها بعدئذ علامته التجارية المميزة .

تـدرج ديـان في منـاصبـه العسكـريـة وشغل عـام ١٩٥٦ منصب رئيس أركـان الجيش ، وكان هو مهندس حملة سيناء . بعدها ترك الجيش وتبوأ منصب وزير الزراعة في حكومـة بن غوريون حتى تبعـه عام ١٩٦٣ صوب البرية السيـاسية ، وأخيراً شغل منصب وزيـر الدفـاع في حكومـة أشكـول . لقد اضطلعت أوراق اعتياد ديـان داخل المجتمع الإسرائيلي بعـد نصر حرب ١٩٦٧ والـذي نسبوه اليـه كليـاً ويالخطأ بحصـة أسطورية ، فهو قد أمسى للإسرائيليين نصف اله . أما ديان فكان يعرف من أين تؤكل الكتف ، فشرع يهزأ بالقانون علناً لأنه كان أصلاً يفتقر الى الصبر وضبط النفس فإذا ما صادف مانعاً اقامته الشرطة في طـريق مروره صدفة أوقف سيارته ونزل ليرفع المانع . إنه قد أساء سلطته كوزير للدفاع واستخدم الجنود ومعدات الجيش وبضمنها طائرات الهيلوكبتر لمجرد أن يشبع رغباته ويجاري هوايته في علم الآثار القديمة . كان استاذاً في

جمع قطع الفخار والأعمال اليدوية القديمة حتى أنه كتب في وصيته لزوجته الثانية أن تبيع مقتنياته (التي هي في واقع الأمر ملك للدوله) البالغة قيمتها أكثر من مليون دولار وبعديها للمتحف الإسرائيلي في القدس.

لم يكن لديان أصدقاء مقربين وقد رأيته لمرات عديدة جالساً وحده في مطعم الكنيست. لقد كن له الناس الاحترام بيد أنه كان متبجحاً وكلبياً وكان برغم شجاعته العسكرية جباناً في ميدان السياسة فهو قد رفض أن يتحمل مسؤولية حتى اعماله وسمح لشخصه ان يكون متناقضاً، ولو كان قد أبدى بعضاً من القياده والشجاعة السياسية لانتهى به الحال رئيساً للوزراء بيد أنه آثر أن يكون أشكول ومائير رقم(٢).

خضعت وسائل الإعلام الألكترونية خلال مرحلة الستينات ومطلع السبعينات لسيطرة رئيس الوزراء الكاملة، بينما تتمتع إسرائيل اليوم بجميع حسنات وسيئات قنوات التلفاز الأمريكية والاوروبية المتعدده ابتداءً من ال (سي إن إن) الى (جيرالدو ريفيرا). لم تكن إسرائيل تملك قبل خمس وعشرين سنه جهاز تلفاز لأن الحكومة كانت تخشى أن يفسد هذا الجهاز ويسمم عقول مطيعيها غير مدركين -كما هم الآن- أن التلفاز يمثل أداة دعائية كامنة. فإسرائيل واحدة من حفنة الدول القليلة التي لا يستطيع مواطنيها مشاهدة هذا الصندوق، فهي قد أثقلته بضريبة باهظة. أما المذياع الذي خضع هو الآخر للرقابه المستمرة من الحكومة المركزية الإشتراكية، فقلما أذاع شيئاً من أغاني البوب الغربية. فإذا ما رغب الإسرائيلي بالإستماع إلى آخر أخبار الموسيقى أدار المذياع على المحطات العربية. وهنا شعر كبار حزب العمال أن الأفضل للإسرائيلي ان يستمع الى إذاعة إسرائيل والى الأغاني المستوحاة من الروح الروسية. لقد أرادت القيادة أن يشارك الإسرائيلي الشاب بالرقصات الشعبية وجاهدت كي تمنع فتح صالات الرقص (الديسكو). هذا الموقف المتعنت حدا بالإسرائيليين عام ١٩٦٤ الى التصويت حول رحلة فريق(البيتلز) الى الأراضي المقدسة بعد أن وقع

متعهـد قطاع خـاص عقـداً أنـه سيجلب الفريق الى أكبر ملعب كـرة قـدم في إسرائيل ويقيم الحفلة فيه . لقد انتاب الحكومه قلق خشية أن يشجع الفريق الشباب الإسرائيلي ليطيلـوا شعورهـم ويرتـدوا (الجينـز) ويستمعوا الى الموسيقى الصـاخبـة . وأخيراً تم التصويت على إجراء حفلة البيتلز .

لقـد صـدق حدس حـزب العمال ومخاوفـه، فـالإعجـاب الذي نـالتـه إسرائيل وجيشها بعد حـرب الأيام الستة في الغرب قـد جلب إليها عشرات الآلاف من سياح موسيقى السـوينغ جـاءوا وفي جعبتهـم المخـدرات والمشروبـات وكل مـا يتعـارض والحضارة .

لم تكن إسرائيل تملك خلال العقـود الثلاثه الاولى من وجـودها إلا القليل القليل من النـوادي والحانات التي تقـدم الجعة وبقيـة المشروبـات الكحوليـة فهي كما يراهـا الإسرائيليـون أماكن مشبـوهة وفـاسـدة لا يطرق بـابها إلا المجرمـون والعاهـرات . والإسرائيلي بـالكاد يتعـاطى الخمـر اذا ما استثنينـا بعض رشفـات الويسكي المقـدس المحلي والتقليـدي بعد صلـوات ليلـة الجمعـة أو في العطل المقدسـه . ويمثل تعـاطي المخدرات التأثير الثاني للحضـارة الأجنبيـة على المجتمع الإسرائيلي وتشير إحصـائيات نشرتها سلطة مكـافحة المخـدرات الإسرائيلية أن ثـلاثة من كل مـائة إسرائيلي مدمنين على المخدرات ويبلغ مجموعهم قـرابة ٢٥٠ ألف شخص معظمهم تحت سن العشرين من العمر . وما برحـت نسبة الإدمان على الهيروويـن والكوكايين آخذة بالإزدياد وهي لم تعـد مشكلة تقتصر على الأحيـاء الفقيرة والقـذرة بل إن منـاطق للطبقة الإجتماعيـة الوسطى أصبحـت أوكاراً لتعاطي المخـدرات كما أوضحـت ذلك دراسة أجرتها جامعة تل أبيب .

ومع هـذا فإن التـأثير الأجنبي والتحـرر من سحـر حضـارة الـدفـاع القـديمـة والإستعداد لهجر العزلة قد أحدثت جميعها في السنوات الأخيرة استعداداً متنامياً لدى

الإسرائيلي لكسر طوق أساطير البطولة الكثيرة أمثال موشي ديان ويوسف ترومبلدور* وفاجعة الماسادا. إن الإسرائيلي اليوم تواق الى (تاريخ جديد) يعرض أمامه شريطاً شاملاً ومعقداً لحقيقة الماضي. وها هي كتب اليوم وصحافته تصف ديان بالفاسق الصفيق الوجه الذي لا يأبه بشيء للرأي العام، فهو كي يوقع بعشيقاته في موقف لا يحسدن عليه يفشي لهن بأسرار الدولة التي هي محرم على العامة الاطلاع عليها، وكم من مرة فقد في فراشهن بعضاً من هذه الوثائق. لقد وصفته الصحافة بالرجل الجشع الذي يطلب مالاً لقاء كل مقابلة معه وهو الذي قنباع - وبينما كان يحتضر في صراعه مع السرطان - آخر ملاحظاته الى أكبر صحف إسرائيل اليومية فكان رد فعل نجله على ذلك أن قال ساخراً: «إن أبي قد باع مصائر الدولة للصحافة»

وامتدت اليوم لعنة الناقمين على هذه التماثيل لتهزأ بآخر كلمات تشدق بها ترومبلدور. فقد اقترح هؤلاء في مسعىً منهم لإبطال سحر ترومبلدور أنه ربما لعن العالم وهو على فراش الموت أكثر من أن يكون قد قبل بقدره، ليس هذا فحسب بل إن هذا المناقض لمعنى البطولة والذي كان فقيراً جداً في لغته العبرانية قد أطلق لعنته تلك مفعمة بأريج لغته الروسية الام.

من جانب آخر استيقظت عقول الجناح اليساري ومنذ اللحظة التي ثابر فيها حزب الليكود بلا كلل ليوظف لنفسه أسطورة الماسادا على جوانب جد مخزية لهذا الرمز. فهم قد أدركوا الآن وبعد سنوات طوال من الصمت المطبق وقبولهم أن

---

* يوسف ترومبلدور: يهودي من مواليد روسيا، خدم في الجيش الروسي وفقد احدى ذراعيه في الحرب ضد اليابان عام ١٩٠٥ ثم اصبح صهيونيا بعد شفائه. هاجر الى فلسطين والتقى بـ(جابوتنسكي) الذي ساعده في تنظيم الوحدة اليهودية في الجيش البريطاني، وتولى بعد الحرب العالمية الاولى قيادة مجموعة من الرواد المهاجرين لزراعة الأرض في مستوطنة صغيرة. قتل عام ١٩١٩ بعد ان نشب خلاف بينهم وبين العرب المحليين الذين شكوا به وبجماعته بمساعدة القوات الفرنسية والبريطانية.

يستثمر العمال هذه الأسطورة لأغراضه الخاصة أن هذه الأسطورة ستشجع الشوفينية (الغلو في الوطنية) الوطنية والتماثل مع الزيلوت المتعصب. (والزيلوت هو واحد من طائفة دينية قوية كانوا أشد حماساً لمقاومة الإحتلال الروماني لفلسطين).

كما بدأت بالنمو أيضاً إمارات السخط والتحدي للسلطة في قبور إسرائيل ونصبها التذكارية. إذ تحوي إسرائيل على نحو من عشرة آلاف نصب تذكاري لحروبها وهو رقم يعني أن لكل سبعة عشر جندياً سقط في الحرب نصباً تذكارياً واحداً. وذهب المؤرخ (جورج موشي) يقول: «إن الرقم يعادل نصباً لكل عشرة آلاف اوروبي وخمسة عشر ألف أمريكي». أي أن إسرائيل تنفرد وحدها بلا منازع في ساحة الوثنية هذه. وهذا الأمر قد يجد له تبريراً أن إسرائيل بلد صغير المساحة وضيق النطاق الى درجة أن يعرف فيه الفرد الكل وعليه فان كل شخص فيها عليل بمصاب اليه سواء أكان من أهليه أو أقاربه أو جيرانه أو أصدقائه. إن ثقافة إسرائيل في السرمدية تتطلع صوب الفرد ولا تشاء أن تحجب عنه هويته وتلك ميزة لا تلقاها في أي مكان آخر لأنها تتمعن في الجماعية بدلاً من الفردية. فها هي واشنطن دي. سي شيدت لقتلى حرب فيتنام نصباً واحداً يحمل أسماءهم جميعاً ولن تجد على أضرحة قبور أوروبا العسكرية غير الإسم الأول لقتلاها من الجنود وتلك هي قبور عسكر بريطانيا في فلسطين والذين قتلوا في الحرب العالمية الاولى ضد الأتراك لم يتبق منها الا الاسم الأول لهوية الجندي (جي سميث) أو (بي جونس).

وتتألف شواهد الجنود الإسرائيليين سطحياً من نفس الطراز وهو أسلوب كان من بنات أفكار وزارة الدفاع الإسرائيلية. بيد أن عيني موشي الثاقبتين أطالتا نظراً في القبور واكتشفتا أن لكل قبر سمته الخاصة فبينما تقرأ هذه البلاطة أن الجندي(سقط في المعركة) نحتت الأخرى عبارة (أثناء تأديته الواجب) وذهبت الثالثة تقول (خلال الخدمة). لقد ساعدت مساحة إسرائيل الصغيرة العوائل اليهودية لتواصل زياراتها

لقبور أحبابها وهي مخولة بديمومة القبر ووضع ما تشاء من الزهور بل إن بعض العوائل طرزت قبورها لتبدو كأنها عمل فني. هذا الأمر يتناقض تماماً مع العادات الأجنبية فهو ممنوع تماماً في بريطانيا على سبيل المثال والتي حددت حتى أنواع الزهور المسموح وضعها على القبور.

وقد وجد موشي أيضاً أن بعض المقابر لا تحوي الاسم الأول فحسب بل حتى اسم الدلال. بيد أن معركة الأعوام التسعة قد تقاتلت فيها عائلات وكل منها تطمح لتفوز بامتياز فوق الاخرى. لقد أصرت حكومة اسرائيل يقودها مناحيم بيغن وأرئيل شارون على تسمية الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ باسم (السلام لاجل طبرية). هنا شعرت عائلتا (بيجل) و (زيكر) اللتان قتل أولادهما في هذه الحرب أن هذه الكلمات تنم عن سخرية وخديعة. فالغزو الإسرائيلي للبنان كان النقيض الشاخص لكل حروب إسرائيل. إنها حرب زحفت اليها إسرائيل بقدميها ولم يكن فيها للعرب من مسبب. إن عبارة الحكومة هذه توحي وكأن الحرب كانت عملية عسكرية للدفاع عن النفس بينما وجدها الإسرائيليون مجرد عمل طائش لا ترتجى من ورائه البقاء بل اغراضاً سياسية وعليه وقف أغلبهم ضد هذه الحرب التي أخذت من الإسرائيليين سبعمائة جندي. لقد طالبت عائلتا سيجل وزيكر برفع كلمة (سلام) عن قبور أولادهم وأن تحل محلها عبارة (قتل أثناء تأدية الواجب في لبنان). بيد أن الحكومة رفضت المقترح فقصدت العائلتان باب المحكمة الإسرائيلية العليا التي أقرت في حزيران عام ١٩٩١ الدعوة التمييزية التي قدمتها العائلتان.

يرى موشي أن مقابر الحرب تعبر عن الرغبة نحو السلام. فازدياد أعداد الآباء الزائرين لهذه القبور إنما يمثل الشكوكية العامة عن سبب التضحية بأولادهم. ويتطلع الآباء الشباب بقلق صوب المستقبل الذي سيتم فيه استدعاء صغارهم خشية أن يخدم الأحفاد في مصالح لا تمثل وجهات نظرهم. وهذا هو السبب الذي حدا بالآباء

الآخذة أعدادهم بالتزايد يوماً بعد آخر لتغيير المناهج الدراسية لصغارهم: أي محاولة تخفيف حدة تلقين الدولة لصغارهم.

وتنتاب إسرائيل في مرحلة التسعينات كثير من الشكوك قد تهدد بتفجير جذور أعمق خباياها. لقد شرع الكثير من الإسرائيليين بنفض غبار كتب التاريخ ليعيدوا النظر في الأسئلة التي لم يتلقوا لها في الماضي الا شبح الجواب: هل إن إسرائيل قد دخلت مرغمة لخوض هذه الحروب؟ ألا توجد حروب أخرى بادرت اليها إسرائيل بمحض إرادتها؟ هل إن هدفنا النهائي كان دوماً السلام؟.

وإذا كانت الصهيونية الاولى قد أدركت أن (حالة السواء) شيء سيتحقق بظهور طبقة إسرائيلية أهلية من اللصوص والعاهرات فإن حالة السواء لإسرائيل اليوم انما هي حياة ثقافية مزدهرة شرقية دولية لا تقل شأناً عن ثقافة عواصم الغرب ذات الهيبة مثل نيويورك وباريس ولندن وروما. فإسرائيلي اليوم قادر أن يبتاع لنفسه شقة ساحرة لا تقل قيمتها عن مليون دولار في أرقى المناطق السكانية او أن يشتري ميناً ثقافياً.

وتعج تل أبيب اليوم بالكثير من نوادي موسيقى الجاز والكافتيريات وشركات فرق الباليه والمسارح وفرق الرقص. وأنجبت حضارتها الفاتنة عشر متاحف وشدت اليها كثيراً من فرق البوب والروك ذات الصيت حتى لترى مشاهير المغنين أمثال (تينا تيرنر) و(بوب وايلان) يدرجون إسرائيل ضمن البلدان التي تشملها جولاتهم الغنائية العالمية. وتعد تل أبيب استناداً الى احصائيات هيئة الامم المتحدة واحدة من أكثر المدن استهلاكاً في العالم.

وتعاني اليوم مدناً أخرى غير القدس وحيفا من عجز خطير في الميزانية بسبب محاولاتها تقليد المدينة الكبيرة والغنية تل أبيب. وشهدت إسرائيل في صيف عام ١٩٩٢ إقامة عشرة مهرجانات للرقص الشعبي وموسيقى الجاز والروك والموسيقى

اليهودية والكلاسيكية، وفيها تجاوز عدد الحضور المائة ألف مشاهد. لقد أحال الإسرائيليون في تعقبهم المستميت لكل حفلة رقص صيف الشرق الاوسط الطويل الى مهرجان أطول غير آبهين ظاهرياً بمشاكل العنف السياسي الحادة والارهاب والتوتر العسكري الذي غالباً ما واجهوه. وربما وجد المراقب الغربي في هذا المس بالثقافة أمراً مروعاً او سيئاً: فهل تلتقي الحرب مع هذه المطاردة الثقافية؟. بيد أن الإسرائيليين لا يجدون أي تعارض في هذا التعايش الخاص بين الحرب والثقافة، لقد تعود الإسرائيليون على خوض الحرب وأن يستمتعوا بالموسيقى والمسرح وضروب التسلية الأخرى.

وفي موقع آخر الى الجنوب من جادة (شول هاملخ) يقع جدار محاط بالموانع الخرسانية والأسلاك المكهربة وتلك هي الحدود الخارجية لل (كريا) يحرسها على نحو مستمر الجنود من النساء والرجال المدججين برشاشات (عوزي) الإسرائيلية الصنع وبنادق الهجوم إم-١٦ الامريكية الصنع. إنها الضاحية المعزولة تماماً والتي يقع فيها منزل وزير الدفاع، وهي تضم أعلى بناية في البلاد بأسرها: إنها بناية القيادة العامة للقوات المسلحة الإسرائيلية. أما برج العمارة فمحشوٌ بالهوائيات والأقمار الصناعية ومعدات الاتصال الأخرى.

تمثل هذه البناية قلب الجهاز الأمني الإسرائيلي وأنت هنا بحاجة الى إذن بالمرور ليتسنى لك دخول البناية بعكس الحال مع بقية بنايات جادة شول هاملخ. هذا التناقض يزداد حدة مع اختلاف الطراز المعماري بين رتابة وقذارة كريا التي لا يخطؤها الناظر لأي شيء سوى البنايات الحكومية وبين ما يجاورها من بنايات حديثة شامخة بفولاذها وزجاجها.

ولا يعلم إلا حفنة من الإسرائيليين بالذي يدور بين خبايا هذه البنايات من عمل. ولم تكن في إسرائيل حتى أواخر الثمانينات إلا بناية واحدة في هذه الجادة التي

تؤلف مقراً رئيساً للموساد الإسرائيلي وهي فرع المخابرات الإسرائيلية المكلفة بأعمال التجسس الخارجي. وفي مطلع التسعينات انتقل مركز قيادة الموساد الى موقع في شمال تل أبيب بينما بقيت الكثير من الدوائر ذات الأعمال السرية وأعمال السمسرة وصفقات الأسلحة. إن بيع السلاح وتصدير المعلوماتية الأمنية باتتا من أكثر المساحات ازدهارا في الاقتصاد الإسرائيلي.

يرى العديد من الإسرائيليين والعقليات اليهودية أن هذه هي الانعطافة الحزينة في قدر إسرائيل. فإسرائيل قد استثمرت مصادرها وتقنياتها في تعزيز ثقافة الحرب بدلاً من توظيفها لأغراض التقدم والتعليم. وإن هذا الواقع المر للحرب والموت والحرمان التي ألهمت الفنان جورج سيجال أن ينحت تمثاله ما برحت تمثل العلامة القومية للأمة التي أرادت يوماً ان تجسد الموروث اليهودي برغم ما تغير عنها من مواقف اليوم.

الفصل التاسع

نشوء التطرفية السياسية

وزع حزب الليكود الإسرائيلي الحاكم في مسعاه لرفع الروح المعنوية لمؤيديه أثناء الحملة الانتخابية عام ١٩٩٢ منشورات تحمل صورة رئيس الوزراء السابق (مناحيم بيغن)، وتظم زيارات دينية الى مقبرة القدس حيث دفنوه هناك. وقد خصصوا ريع الحملة بشكل أساسي الى المجتمع اليهودي السيفاردي أكثر مؤيدي حزب الليكود تحت حكم بيغن في محاولة للتأثير على نتائج الأنتخابات. لكن غرابة هذا الاسلوب تكمن في أن الحزب قد شدد على ذكرى زعيم راحل بدلاً من أن تكون لزعيم حي أو رئيس وزراء ما زال يدير حملة إنتخابية.

ولم يكن مجرد تزامن أن وضع اسحق شامير حزب الليكود في موقف لا يحسد عليه، فقد سلم الحزب أن شامير غير ميال ومراشح بالإزدراء وذو شخصية غير جذابة وهو بليد ومتحجر القلب في ذات الوقت، ووجد فيه الحزب حجر عثرة أكثر من مصدر قوة. الا أن الرجل قد نجح برغم اللا احترام الذي لقيه داخل إسرائيل والعالم في إدارة حكومة إسرائيل لعشر سنوات وهو رئيس الحكومة الإسرائيلية الأول اذا ما استثنينا ديفيد بن غوريون الذي حكم البلاد هذه الفترة الطويلة التي تجاوزت فترة حكم مناحيم بيغن نفسه وحتى (غولدا مائير) الفائتة.

تميزت الفترة الممتدة من عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٩٢ بالتحفظية وهاجس بقاء الحال على ذاته، وطغى موقف شامير السياسي الساكن والمحترس على مزاج البلاد.

لقد عرفوا شامير بخوفه من التغيير وحبه لواقع الحال حتى وصفته صحيفة (يديعوت أحرونوت) أكثر صحف إسرائيل اليومية مبيعاً (ان شامير معروف بسباته وبلادته المفرطة، فهو ليس محباً لواقع الحال فحسب بل هو واقع الحال نفسه).

لقد غاصت البلاد في عهد شامير وليكود في وحل الإستقطاب السياسي في علاقتها مع حليفتها الأقوى الولايات المتحدة الأمريكية، بل إن هاجس شامير بمفهوم (إسرائيل الأعظم) ودفاعه الحرون عن المستوطنات داخل الأراضي المحتلة قد هدد التحالف الإسرائيلي-الأمريكي أكثر من اي عهد مضى في تاريخ البلاد بأسره.

إن قيادة شامير اللامبالية التي أفضت بالبلاد الى فترة ركود لم تشهد لها نظيراً منذ الإستقلال انما هي النقيض الحي لماضيه المغامر والفعال. لقد اعترف شامير في حديثي معه أنه قد عاش لحظات المجد قبل خمسين عاماً فقط حين كان زعيماً لمنظمة سرية صغيرة وعنيفة في فلسطين ومن ثم عميلاً للموساد.

هاجر شامير -الصهيوني المتقد حماساً في بولندا- الى فلسطين عام ١٩٣٥ والتحق بعد سنة فقط بجناح (جابوتنسكي آرغون) العسكري السري حيث شارك بنفسه في عدة هجومات تسببت بقتل عشرات العرب. ثم انطوى تحت لواء مجموعة (أبراهام شتيرن) الصغيرة المنشقة عن (تعديلية جابوتنسكي). أطلقت هذه المجموعة التي تزعمها شتيرن (الشاعر الموهوب) اسم (ليحي lehi) أو (مقاتلي حرية إسرائيل) بينما أسماهم الإنجليز باسم (عصابة شتيرن). لقد إتهم شامير وبقية أعضاء عصابة شتيرن جابوتنسكي ومنظمته أنهم كانوا جد متساهلين واسترضائيين مع الإنجليز، وهو نفس الإتهام الذي أدان به جابوتنسكي بن غوريون وصهيونيته السائدة عام ١٩٣٧. وقد اعتقدت عصابة شتيرن أن آرغون قد أوقفت خطأ في مستهل الحرب العالمية الثانية عملياتها العسكرية ضد الحكام الإنجليز في فلسطين وضد المستوطنين العرب.

لقد وجد شتيرن وصحبه في الإنجليز خطراً للشعب اليهودي أكبر من خطر النازية الالمانية وحلموا بتشكيل تحالف مع موسوليني وهتلر، والتقى مبعوثهم مع ديلوماسيين المان وايطاليين في اجتماعات متعددة كان عدوهم المشترك فيها جميعاً بريطانيا. نجم هذا الحلم عن ايمان شتيرن أن هتلر لم يكن ينوي سحق اليهود بل أراد مجرد التخلص منهم. إن هذا الفصل الغريب في تاريخ إسرائيل ما قبل التأسيس، انما يكشف الغباء المطلق واللاأخلاقية التي تحلى بها شتيرن ومؤيدوه بمبادرتهم الحديث الى أخطر عدو للشعب اليهودي.

حدث عمليات القتل المتعمد التي تعرضت لها مجموعة شتيرن عام ١٩٤٢ على أيدي الشرطة السرية البريطانية بالمجموعة الى إعادة تنظيم نفسها تحت قيادة ثالوثية كان اسحق شامير هو العضو البارز بينهم والذي القت السلطات البريطانية القبض عليه عام ١٩٤٢، بيد انه تمكن من الهرب مع زميل له يدعى (الياهو جيلادي) أول ضحايا عصابة شتيرن الجديدة بقيادة شامير. فقد أدركت فيه العصابة مغامراً خطراً فهو (جيلادي) قد اقترح اغتيال القيادة الصهيونية ويضمنها بن غوريون. وقد عثرت بنفسي عام ١٩٩١ على وثيقة قديمة أقر فيها شامير انه الذي أصدر الأوامر بقتل جيلادي، وتبقى الدلالة الوحيدة التي قد توخز ضمير شامير عن قتله جيلادي هو الاسم الغريب والطفيلي الذي أسمى به ابنته (جيلادا).

تحلت عصابة شتيرن في عهد شامير بالسرية التامة وكان حجمها صغيراً لم يتجاوز حفنة من الأعضاء النشيطين وبضع مئات من المتعاطفين معهم. بيد أن وحشيتهم الجارفة قد أرعبت الإنجليز، فقد سرقوا المصارف وقتلوا (الخونة) من اليهود واغتالوا وزيراً بريطانياً وكبار مسؤولين ديبلوماسيين بريطانيين وقتلوا مئات العرب دون تمييز بزرع القنابل في السيارات والأشراك المغفلة في الاسواق العربية والأماكن العامة لهم.

وبجدداً ألقت السلطات البريطانية بعد متابعة مشددة القبض على شامير وأبعدته

الى معسكر اعتقال في افريقيا ومنه هرب ثانية. ثم عاد أدراجه بعد إعلان الإستقلال عام ١٩٤٨ الى الدولة الحديثة الولادة. وقد صنعت منه تجربته السرية وضبط الذات وهاجسه في العمل السري وايمانه بقضيته المرشح الأنسب للجهاز السري، وهكذا التحق عام ١٩٥٥ بالموساد. وتولى على مدى عشر سنوات قيادة فريق صغير وضارب في نفس الوقت. فقد نفذت الوحدة هجومات على كل عدو كامن لإسرائيل بضمنهم العرب ومجرمي الحرب النازية والعلماء الألمان الذين يشتبه بهم في مساعدة بناء الصواريخ المصرية. وفي عام ١٩٦٥ قدم استقالته وأصدقاؤه القدامى مكرهين بعد التعديل الذي أجرته الموساد على كبار مسؤوليها. فجرب حظه في التجارة بيد انه فشل فيها، وبقي هكذا حتى عام ١٩٧٠ حين التحق بحزب بيغن اليميني وهنا نجح شامير في عمله السياسي وعلى خلاف كل التوقعات التي قالت أن شوط السياسة قد فاته. انه لم يحلم يوماً أن يتولى رئاسة الوزراء بيد انه وفي غضون ثلاثين عاما إنتخب للكنيست الإسرائيلي ثم أصبح رئيسها فوزيراً للخارجية وأخيراً رئيس وزراء إسرائيل السابع في عام ١٩٨٣.

جاءت فرصة شامير في رئاسة حكومة إسرائيل في أحد صباحات شهر آب من عام ١٩٨٣ حين توجه مناحيم بيغن الى اجتماعه الوزاري الأسبوعي، وهناك أدهش الجميع بقوله (انني لا استطيع الإستمرار أكثر من هذا) وتقاعد من رئاسة الوزراء ومن الحزب والحياة السياسية والعامة جميعها. وأصبح ناسكاً واعتكف في شقته في القدس وأطال لحية متوحشة ورفض رؤية أياً من معارفه الا بعضاً من أقربائه المقربين، وبقي هكذا حتى مات في آذار عام ١٩٩٢ ليدفن معه سر هذا التغير الغامض الذي لم يعرف به أحد اذا ما استثنينا احتمالية أن يكون ولده (بنيامين زيف بيغن) على علم به. وكل ما يقال غير هذا انما هو مجرد توقع وتخمين، فربما كان موت زوجته أو وخز الضمير من الحرب التي شنها على لبنان سبب هذا الاعتكاف.

شكلت الحرب اللبنانية نهاية لفترة سلام لم تكن متوقعة أوجدها بيغن بتوقيعه معاهدة سلام مع مصر في آذار عام ١٩٧٧ . فقد رجع بيغن الى عادته القديمة كباغ عسكري عندما أصدر أوامره في حزيران عام ١٩٨٢ الى القوات العسكرية الإسرائيلية بدخول جنوب لبنان ، وتلك كانت المرة الثانية في تاريخ إسرائيل القصير التي تشعل فيها إسرائيل فتيل الحرب دون اي تحرشات ضدها ، فقد سبق لها أن شكلت ثالوثاً إمبريالياً مع بريطانيا وفرنسا وهاجمت مصر عام ١٩٥٦ .

بيد أن إسرائيل الثمانينات لم تكن في اي موقع أو حال كإسرائيل الخمسينات . فهي لم تعد مجتمعاً موحداً اذ تسللت في أعماقها الإنقسامات السياسية التي أفضت الى خلاف عميق حول معقولية الحرب . اما الهدف المعلن فكان (السلام مقابل المصلي) اي ايقاف هجمات المجاميع الفلسطينية الإرهابية على مدن وقرى الإسرائيليين على طول حدود إسرائيل الشمالية . وكان هدف بيغن الرئيس هو سحق منظمة التحرير الفلسطينية ، بيد أن المهمة فشلت ودفعت إسرائيل الثمن غالياً .

وقد ألقى بيغن في اليوم الأول للحرب خطاباً أمام الكنيست وعد فيه أن الحرب لن تدوم أكثر من ثمانية وأربعين ساعة . بيد أن الأيام والأسابيع والأشهر مرت وما زال جنود إسرائيل يتشابكون في قتال كان رحاه يدور ليس مع الفلسطينيين فحسب بل مع السوريين والمتعصبين الشيعة . لقد قتل أكثر من سبعمائة جندي إسرائيلي وآلاف الفلسطينيين والمقاتلين اللبنانيين وكذلك المواطنين . وبرغم أن الاتجاه السائد في إسرائيل قد أوقع باللوم على وزير الدفاع (أرئيل شارون) الا أن الحقيقة هي أن بيغن كان يعي تماماً أن ليس بمقدور أحد أن يتنبأ بطول ونتائج الحرب هذه أو أية حرب اخرى .

إختار حزب الليكود عام ١٩٨٣ اسحق شامير خليفة لبيغن في رئاسة الوزراء . وقد تميزت فترة حكمه ببروز جيل الشباب من الليكود ، كان بعضهم سلالة لعوائل

سياسية جاؤوا ليشغلوا مناصب هامة في الحزب والحكومة. ويمكن تقسيم هذا الجيل الى مجموعتين: المجموعة الاولى وهم أولاد الآباء من الأشكيناز الذين كانوا قادة الحزب، وقد عمدت الصحافة هذه المجموعة بأسماء كان بعضها مثيراً للسخرية والبعض الآخر عاطفياً مثل (الأمراء) وأبرزهم (بنيامين بيغن) و(بنيامين نتنياهو) و(ايهود اولمرت). وتألفت المجموعة الثانية من السيفارديم وكان معظمهم أطفال موجات الهجرة الجماعية التي وصلت عام ١٩٥٠. وكانوا ذوي خلفية مختلفة تماما عن المجموعة الاولى، فقد عاشوا في مدن أكواخ ومخيمات ولقوا الذل والحرمان اللذين تحولا الى مذهب الفعالية السياسية.

وأمست أسلوبية حزب الليكود تحت زعامة شامير هجيناً بين العرض المضطرد للجل الغربي للقوة وفوضوية الشرق الأوسط، فكان يصل أعضاء الحزب الى مقر اجتماعهم بسيارات (ليموزين) بسائق خاص وهي مزودة بالهواتف السامية تعبيراً عن الحالة الجديدة التي هم فيها. وهكذا أظهر حزب الليكود ولكن بعد خمسة عشر عاماً نفس التبجحية والفسادية ورضا الذات التي ميزت حزب العمال في فترة السبعينات.

دب بين الإسرائيليين مطلع التسعينات شعور أن التاريخ يعيد نفسه، فقد إتهم حزب الليكود بتناسي الشعب بعد أن جند اليهود السفارديم لمهمة بناء الحزب. وخيم جو من التوتر العرقي والجنسي بلغ أشده في انتخابات الليكود الداخلية التي جرت مستهل عام ١٩٩٢ اذ اتهم مؤيدوا نائب رئيس الوزراء (ديفيد ليفي) وهو اليهودي القادم من بلاد المغرب شامير وأتباعه ومعظمهم من أصل أشكينازي بمعاملتهم ومجتمعاتهم كشعب أدنى مستوى منهم، فلا عجب اذن أن يخسر الليكود انتخابات عام ١٩٩٢ لصالح رابين وحزبه. ويضع معظمهم اللوم في هذه الخسارة برغم ما تبدو عليه كرغبة طبيعية نحو تغير سياسي وتاريخي على عتبة دار شامير وفشله في معالجة اياً من قضايا إسرائيل اليوم الجوهرية.

ولا عجب في القول أن أهم قرار اتخذه شامير في مجرى حياته السياسية بأكملها هو انه لم يقرر. فقد أثقل عليه بعض من كبار ضباطه ووزرائه طلباً أن يصدر أمراً بالهجوم على العراق أثناء حرب الخليج رداً على ضرب العراق تل أبيب بصواريخ سكود، بيد انه رفض أن يتخذ قراراً خشية أن يعارض تدخل إسرائيل ميل الدول العربية المؤيدة للغرب والمشتركة في القتال ضد العراق، وربما أحل التدخل الإسرائيلي العسكري التحالف الدولي ضد العراق والذي جاهد الرئيس بوش لخلقه وبالتالي تهديد العلاقة الإسرائيلية الأمريكية التي كانت بوادر ضعفها آخذة بالنمو قبل هذا الوقت. بيد أن سخرية هذه السياسة برغم قرار ضبط النفس لإرضاء الرئيس بوش لم تكن بالأمس أفضل حالاً من اليوم. لقد رفض شامير ولما كان يشغل منصب وزير الخارجية في إدارة بيغن توقيع اتفاقية سلام مع مصر، ثم لم يألُ جهداً لما أصبح رئيساً للوزراء لمطاردة اي مسعى أمريكي ليأتي بالإسرائيليين وأعدائهم العرب سوية الى طاولة المفاوضات. وحقيقة شامير ذلك الرجل الشكوكي والمتحجر القلب هي انه لم يسع البتة صوب حسن النية حيال العرب. انه لا يمنحهم ثقة، فهو لم يزل يؤمن بأفكاره السابقة في مجموعة آرغون وعصابة شتيرن: «أن العرب لا يكترثون لأمر غير إضعاف إسرائيل وتوجيه ضربة قاضية لها».

لقد أغشى شامير بصره حيال متطرفي الجناح اليميني يقودهم أرئيل شارون عندما واصلوا بناء المستوطنات الجديدة في الأراضي المحتلة وعلى مدى أيام الزيارة التي أجراها وزير الخارجية الأمريكي (جيمس بيكر) لإسرائيل عام ١٩٩١. وعليه رفض الرئيس بوش في أيلول عام ١٩٩١ كعقوبة وانتقام من هذه السلوكية الموافقة على منح إسرائيل قرضاً بمبلغ عشرة مليارات دولار كانت إسرائيل قد طلبته لتمويل عملية استيعاب اليهود السوفيت المهاجرين. وقال الرئيس بوش في خطاب له لشرح أبعاد هذا القرار: «إن إسرائيل ليست في موقع العمياء أو الصماء، فكل مواطن إسرائيلي مدين لوزارة المالية الأمريكية بحوالي الف دولار». الا أن شامير لن يجد فرة

اذا ما خيروه بين الهجرة أو المستوطنات أن يقطع اياً من يديه، فقرر المضي قدماً في بناء المستوطنات ولم يحصل على مال يذكر.

كان منتدى الحوار داخل إسرائيل جد ضيق برغم الوجود الكلي للنقاش السياسي، ويفتقر معظم ساسة إسرائيل الى الثقافة والخلفية الادبية للحديث بلغة مقبولة، وأطبقت الكنيست على كل روح للمزحة أو الطرفة والتي قد تزين مواضيع مملة كانت تطرح أمامها وطغى طابع الملل والجدية المفرطة في حديث أعضائها الذي غالباً ما كان يفور حتى يبلغ الصراخ.

لقد إتهم شامير عام ١٩٩٠ (عيزر وايزمن) أكثر وزرائه نضوجاً (وقد شغل منصب وزير الدفاع في حكومة بيغن) بالخيانة لأنه نظم سراً عقد إجتماعات مع الفلسطينيين. ولم يتوانى بيغن أثناء حكمه في استخدام الغوغائية في خصامه مع حزب العمال، وغوغائيته لم تتوقف عند حدود العنف الكلامي بل انه غطى جدران البنايات الخاصة بالعمال وكذلك نوادي الجناح اليساري بالشعارات المعادية، وقام بعدة محاولات لإضرام النيران في منازل سياسيي الجناح اليساري. ورشق مؤيدو الليكود إستناداً لتعليمات زعيمهم بيغن حرفياً الزعماء اليساريين بالطماطة وهاجموا إجتماعاتهم السياسية.

وفي خضم هذا الجو المتوتر والتشاؤمي، ناشدت الصحافة أن يبدي الإسرائيليون إهتماما لسؤال يتعلق باي شكل ستتقولب فيه هذه الحرب، وهو سؤال لا يعني هل بإستطاعة إسرائيل أن تتحمل موقفا يشهر فيه أخ سلاحه بوجه أخيه، وانما ما هو الدافع الذي سيفضي الى مثل هذه الحرب: هل هو الضغط الأمريكي لإخلاء المستوطنات في الأراضي المحتلة الذي سيجعل من الإسرائيلي عدواً لأخيه الإسرائيلي؟ هل سبق السيف العذل وبلغ التوتر الإجتماعي والإقتصادي الزبى؟ اي دور سيضطلع فيه الجيش حيال الحرب الاهلية؟ هل ستتخذ الحرب جوانب أخرى كحرب

يوغوسلافيا؟ وهل ستحافظ على حياديتها أم ستتشظى الى عدة طوائف؟ إن الإستغراق العميق في أسئلة كهذه هو برهان على وجود عدة عوامل نفسية كامنة . اذ يؤمن بعض الإسرائيليين أن مناقشة هذه الأسئلة ستقلب الوضع رأساً على عقب، بينما استوقف الأخرون ايمانهم أن صراعات إسرائيل الداخلية سواء أكانت بين الدينيين والدنيويين أو بين اليساريين واليمينيين أو بين السفارديم والأشكيناز أو الأغنياء والفقراء أو أنها كانت تتعلق بالقضية الفلسطينية ستجد حلها الوحيد في مثل هذه الحرب .

وأيقن كثير من الإسرائيليين خلال حقبة الثمانينات أن ما من أحد يقف وراء اي عنف سياسي اذا ما اندلع في حرب أهلية غير الحاخام (مائير كاهانا)، الذي بزغ نجمه أواخر الستينات في الولايات المتحدة الأمريكية عندما أسس (عصبة الدفاع اليهودي) وحمل شعار(لن يحدث ثانية) الذي يعني فيه أن اليهود لن يكونوا ضحايا بعد اليوم . أخذت هذه العصبة على عاتقها مهمة توفير الحماية للجماعات اليهودية في نيويورك والتي كانت عرضة لكثير من التهديدات من الجماعات العرقية المجاورة لهم . الا انها غدت ومع مرور الزمن مجموعة من اليهود السفاحين وقطاع الطرق لا يردعهم رادع لاستخدام السلاح والعنف ضد كل من يظنون به عدواً لليهود من الأمريكي الأسود الى الدبلوماسي السوفييتي .

هاجر كاهانا الى إسرائيل مطلع السبعينات بعد أن أضحى ارباكاً لمكتب التحقيقات الفيدرالي وإزعاجاً للاتجاه السائد لتأسيس اليهودية هناك . وفي إسرائيل وجه نشاطه الإرهابي نحو تأسيس حركة جديدة داخل إسرائيل عرفت باسم (كاخ) التي تعني (هكذا) أو (هذا هو الطريق) . حاولت الحركة أن تمهد لنفسها مكانة كجزء من الحق الإسرائيلي الموروث ، فبنت روابط مع اليمينيين خلال ذروة نضالها لإطلاق سراح اليهود السوفييت . لقد شاع في مطلع الستينات أن رجال الأعمال الإسرائيليين

اليمينيين قد ساعدوا بتهريب سلاح عصبة كاهانا للدفاع اليهودي .

لم يولد كاهانا ليضع نفسه في إطار العمل السياسي المنظم ، انه ذئب وحيد. لقد ترعرع على الخوف وجنون العظمة والمقت ، وما جاءت منظمته داخل إسرائيل الا لتؤكد الكره العنصري ضد العرب وان تلجأ الى المقاومة الارهابية ضد المعارضة السياسية. انها حركة غير ديموقراطية المسعى وفاشية الأصل. لقد أعادت مشاداته بقاوة الجيش اليهودي وإنهماكه الدائم بمنع التزاوج العربي- اليهودي (لقد رفض حتى الصداقة البريئة بين الرجل العربي والمرأة اليهودية) الى الأذهان النظريات العنصرية النازية. ثم تم وضع أعضاء المنظمة تحت الرقابة الأمنية الدائمة بعد أن تجاوزوا في العنف حدودهم وزجوا ببعض عناصرها في السجن ومن ضمنهم كاهانا نفسه.

ومع هذا نجح كاهانا عام ١٩٨٤ في الوصول الى الكنيست بعد أن حصل على موطيء قدم له بين كسارات سكان السفارديم. بيد انه ما برح حتى في أوج شعبيته غريباً على السياسة الإسرائيلية فلكنة حديثه الأمريكية وأسلوبه السياسي الأجنبي وعالمه المشوش قد أضفت عليه وعلى مجموعته صورة السفاحين. لقد رفض بعد انتخابه أن يؤدي القسم للدولة وادعى انه سيعلن ولاءه للرب. بعدها أعلنت الكنيست أن حزبه غير قانوني وأصدرت تشريعاً يمنع تحريض الكره والعنصرية والعنف ، واضعة بذلك نهاية لحياة كاهانا البرلمانية. لكن مشروع هذا القرار لم يكن من بنات أفكار اليسارين (الذين دعموا تشريعه) ، بل هو الليكود تعاونه بعض الأحزاب الصغيرة الأخرى التي تقف على الجانب اليميني البعيد بعد أن أدركت أن موقع كاهانا سيهدد موقعهم ويجردهم من مقاعدهم البرلمانية الثمينة في الكنيست.

إغتيل كاهانا في تشرين الثاني عام ١٩٩٠ في فندق مانهاتن أثناء محاضرة كان يلقيها على مجموعة من مؤيديه الأمريكان ، وحامت الشكوك حول رجل مصري متطرف

كان يقطن الـولايات المتحدة في تدبير عمليـة الإغتيال، ثم أطلق سراحه لعدم كفـاية الأدلة. أن الإنجاز الأخير الذي تركه كاهـانا هو كشفه للجانب المظلم من الشخصية الإسرائيلية العنصرية ضد العرب.

تمثلت هـذه العنصريـة في المفهـوم السيـاسي(الترحيل) التي تعني إعـادة تـوطين العـرب(بمحض ارادتهم) خـارج إسرائيل. لقـد دعى الإتجاه السائد للصهيـونـة الى توفير الدعم المالي والمعنوي لتشجيع العرب ترك ديارهم والسكن في المناطق المجاورة. إن اياً من الخطط العملية الإسرائيليـة لن تنجح بالقدر الذي نجحت فيـه خطة مفهوم نقل العـرب أو مفهوم أن يفسح الفلسطينيـون الطريق لليهـود. بيد أن مفهـوم النقل أصبح فيما بعد موضوعاً هامشيا في حوارات الصهيونية وأحاديثها المحظورة.

لم يكن كاهـانا بـالمؤيد الـوحيد لهذا المفهوم، ولـو كان الأمر كذلك لأخـذ معه مفهومه الى قبره. فقد بدأت أحزاب يمينية صغيرة وكذلك عناصر من الليكود بتطبيق هذا المفهـوم حتى بات جليـا انه قـد انتشر كالنـار في الهشيم. فهو لم يعـد مجرد طموح لبعض الأحزاب المنشقة الصغيرة بل حتى للصهيونية السائدة في إسرائيل.

لقد تأسس بعد قرار الكنيست عام ١٩٨٨ إلغاء مجموعة كاهانا حزب جديد كان شغلـه الشاغل هـو التمسك بمفهـوم النقل وأطلق على نفسه حـركـة (موليـديت) أو أرض الآباء يتزعمـه الجنرال السابق (ريحافيم زئيفي) المعروف سابقاً بـاتجاهاته لحزب العمال. وحصل الحزب على ثلاثـة مقاعد له داخل الكنيست عـام ١٩٩٢ وشارك مع حكومة شامير الائتـلافية بان شغل منصب وزير. وبهذا يكون شامير قـد شرّع قانوناً مفهوم الترحيل.

إن من يستخـدم كلمـة (ترحيل) في إسرائيـل اليـوم لا يشير اليهـا في معنـاهـا الأصلي: حـركـة تطـوعيـة للفلسطينيين تعمـل تحت إشراف دولي. بل هي تعني في

إسرائيل اليوم طرد العرب من إسرائيل والفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة .
إن من يؤمن بهذا النوع من التطرفية يكون قد جلب على إسرائيل سوداويته العمياء .

الفصل العاشر

حربنا

قال (عبد السلام مناصرة) وقد أومأ بيده صوب تلة صغيرة: «تلك هي قريتي». لم تكن تعج بمثل هذه البنايات والشوارع ولم أعرف فيها بوادر للحياة غير المزارع الخضراء بعد آخر موسم أمطار. كانت حقول القمح تغطي التلال من الأفق الى الأفق فأمسك مناصرة بقبعته الصوفية البيضاء وحدق نحو التلة وأطال النظر وغاص في أغوار تفكير عميق واستجمع صوراً أعادت إلية حال القرية قبل نحو من خمسين عاماً حيث تاريخ ولادته.

تقع التلة في وادي (جزريل) على مساحة ليست بعيدة عن ضاحية (ارما جيدون) الجبلية، وتلك هي التسمية اليونانية لـ(ماجيدو). لقد شهد تقاطع الطرق هذا بسبب موقعه الجغرافي الاستراتيجي العديد من المعارك بضمنها غزو المصريين والبابليين لما كان يعرف مسبقاً بـ(مملكة إسرائيل)، وتشير اليه المسيحية بالمكان الذي ستدور فيه رحى المعركة الحاسمة في (يوم الدينونة). لقد استولى الجنود الإسرائيليون أثناء حرب الإستقلال عام ١٩٤٨ على هذه القرية، وهرب منها سكانها وبضمنهم عائلة مناصرة الذي كان آنذاك طفلاً في سنته السابعة، ثم أزال الإسرائيليون ملامح القرية عن بكرة أبيها بجرافاتهم.

ويعترف مناصرة «كنا في قرية عسكرية، وبينما كنا نرد على نيران القوات اليهودية اعترانا خوف متزايد أن اليهود لن يتركوا الأمر يذهب سدى وسينتقموا منا، فقررنا

إخلاء الأطفال والنساء أولاً ثم تراجع المقاتلون الرجال بعد أسبوع وهجروا القرية. كنا الوحيدين بين جيراننا من القرى الذين قاتلنا على هذا النحو بينما ظلت بقية القرى سالمة دون أذى. لقد شددنا الرحال وحملنا الرضع والصغار وبعض الأفرشة على ظهور الحمير وسار الرجال على أقدامهم طوال الطريق البالغ أكثر من عشرة أميال الى «الناصرة».

لم يكن قدر مناصرة مختلفاً بعض الشيء عن ذاك الذي واجهه نحواً من ستمائة ألف فلسطيني سواء أولئك الذين فروا أو طردتهم القوات الإسرائيلية من أكثر من (٤٥٠) قرية في خضم لهيب الحرب. أما الإختلاف الكبير فهو أن عائلته الكبيرة الحجم لم تهرب الى الجانب الآخر من الحدود بل بقيت داخل المناطق الإسرائيلية وتحركت الى أقرب مدينة مجاورة - الناصرة - التي نشأت منها عائلة المسيح.

عاش مناصرة طفولة جريحة جعلت منه رجلاً قاسياً فهو يقول: «لقد صاغت تلك الرحلة حياتي، انني أحيا شعوراً مراً في اللاإنتماء وأشعر كأني رجل طريد قد فقد ذراعه وبيته وجذوره. كانت عائلتي ميسورة الحال ثم غدت بين عشية وضحاها معدومة المال». وقد شكلت زيارته الأولى أثناء فترة صباه الى الموقع الذي كان يوماً ما قريته الحدث الأكثر مرارة في حياته فهو يقول: «لقد هدمت بيوتنا من أساساتها ويحرث أرضنا الخصبة اليوم سكان من مناطق الكوتيو المجاورة. لقد عرفت حتى الأرض التي كان عليها بيت أهلي شاخاً. إن مسيري على الأرض التي كانت يوما ما قريتي قد أزادتني الماً على ألمي فجعلتها مذ حينها عادة بل زيارة حج أدفعها». أن ذكريات مناصرة هي جزء من شعور بالحنين يعيشه العرب الإسرائيليون للأرض التي تركوها خلفهم. وهذا السبب الذي يجعلنا نلمس حالة التوق ومشاعر الألم التي تتسم بها مذكرات العرب الإسرائيليين والكتاب الفلسطينيين للعالم الذي اختفى.

حافظ النسيج المدني للحياة الفلسطينية الى حد ما على خيوطه في حرب ١٩٤٨،

فقد ازدهرت تجارة وحضارة المجتمع الفلسطيني في المدن الكبيرة مثل حيفا ويافا واتسعت الحياة السياسية النشطة بكثير من الاحزاب. كانت تلك المدن أقل تطوراً من مدينة اليهود في تل أبيب التي بنوها تحت الحكم البريطاني بيد انها كانت أكثر تطورا من معظم المدن الأخرى في العالم العربي. لقد فقد الفلسطينيون في (كارثة) ١٩٤٨ صفوتهم الحاكمة وعقولهم وقادتهم وبناءهم السياسي وحتى قاعدتهم الاقتصادية.

يرجع تاريخ الصور القديمة في ذاكرة الفلسطينيين الى حرب ١٩٤٨ وماقبلها. فتلك الصور المصغرة كانت نظرة وتبدو أنها تنفس عن أريج بلادها، وسهل عليك أن تميز السهول والوديان والتلال والأنهار المنحنية والقلاع والحصون القديمتين وتلك الصور تبين أيضاً الطرازات المختلفة للبناء العربي. وتلك القرى كانت واقعة على قمم التلال وكأنها جزء لا يتجزأ من الطبوغرافية. أما حال اليوم فغيره للأمس لـذات المساحة من الارض. لقد حول البناة الإسرائيليون المتحمسون مجرى هذا النهر وذاك الى قنوات تصريف للمياه وأعادوا تنظيم قمم التلال بجرافاتهم وحولوها الى تجمعات مدنية خليطة ببيوت كثيبة موحدة الطراز.

ومع هذا يبقى القول أن عائلة مناصرة قد تكون أفضل حالاً من غالبية الفلسطينيين الذين انتهى بهم الحال في مخيمات لاجئين في البلدان المجاورة. وكذا قد يحكم عليها مراقب ما موضوعي، بيد أنها للفلسطينيين مأساة يمكن تشخيصها بثلاث مراحل هي: الخيبة فالإذعان فالعودة الى الجذور. لقد مر مناصرة بهذه المراحل الثلاثة وهذا مايحملنا على القول أن تجربته الذاتية هي انعكاس لتجربته السياسية التي يتقاسمها مع كثير من أبناء شعبه.

إلتحق مناصرة في فترة شبابه بالحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي كان المدافع الأقوى عن العرب الإسرائيليين، وكان الحزب الإسرائيلي الوحيد الذي أرشد بالتعايش المشترك السلمي بين العرب واليهود وقبل كلاهما أعضاءً في المجتمع بعد أن

رفضت جميع الاحزاب اليهودية – الصهيونية أن تقبل بين صفوفها أعضاء من غير اليهود. وربما كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي الحزب الوحيد الذي نجح في السنوات الاولى بعد مأساة ١٩٤٨ في اقل تقدير أن يعبر عن الطموح القومي الاصلي للإسرائيليين العرب. ولهذا نرى أن كثيراً ممن ساندوا الحزب الشيوعي لم يكونوا في الحقيقة شيوعيين.

لما يزل الكثير من الفلسطينيين اللاجئين بعد الأشهر الاولى من حرب الإستقلال يؤمن أنه عائد الى وطنه عاجلاً، وأن الواقع الذي هو فيه الآن مكرهاً زائل، وهنا يتذكر مناصرة بعض احتجاجات أبناء عائلته الذين إستأصلهم هذا الواقع الجديد من جذورهم والتي رفض فيها البعض حتى أن يغسل أو يغير ملابسه طالما هو باق خارج بيته. وذهبت أقلية من مؤيدي الشيوعية تعلل النفس بآمال سرية أن معجزة ستنزل وستحل فيها دولة العرب بدل دولة اليهود القائمة الآن. لقد أيد معظم العرب الحزب الشيوعي وأعطوه أصواتهم تعبيراً عن عمل احتجاج أكثر من أن يكون ايماناً بأيديولوجيته.

عاش العرب الإسرائيليون في السنوات الأولى بعد الحرب تحت الادارة العسكرية برغم حقيقة كونهم قانوناً مواطنين على قدم المساواة مع اليهود وأن لغتهم العربية لغة رسمية في البلاد مع اللغة العبرية. لقد فرقتهم الدولة عن اليهود فكانت ضد كل ما فعلوه أنىّ ذهبوا وهذا هو واقع الحال. لقد أحدت من خطواتهم كثيراً، وهذا التمييز مابرح اليوم قائماً جلياً حتى بعد مرور ست وعشرين عاماً على رفع الإدارة العسكرية. لقد جردوا العرب من كامل الخدمات المدنية وأعفوهم من الخدمة الوطنية (العسكرية) الإجبارية في قرار إتفق عليه الطرفان: فالدولة اليهودية لا ترغب في أن تجند العرب الذين يبقى ولاءهم لدولتها محط شك دائم، كما لا يرغب العرب الإلتحاق بقوات ستجبرهم يوماً ما في مواجهة القياس الأقرن في خدمة دولة كانت في

حرب مع إخوانهم وأخواتهم.

لقد شجعت السلطات الإسرائيلية مجموعة صغيرة من الأقلية العربية الإسرائيلية للتطوع في الخدمة العسكرية بعد أن رأت في هذا الأمر اختباراً أخيراً لعباد الشمس في مدى انتسابهم وولائهم للدولة اليهود. وكان معظم هؤلاء من القبائل البدوية التي أبقتها طبيعتها البدوية بعيدة عن المزارعين ومكان المدن من أصل عربي، يضاف اليهم الدروز (وهم مسلمون بتطلب ولاؤهم تعاليم دينية تبقى سرية عن الناس الإعتياديين). كانت الحكمة وراء هذه السياسة الإسرائيلية هي الحكمة الرومانية القديمة (فرق تسد).

ويلغت نسبة البطالة بين العرب الإسرائيليين على الدوام نسبة أعلى من اليهود الإسرائيليين، حتى وصلت عام ١٩٩٢ الى الضعف تقريباً. ولا يوجد في إسرائيل جامعة عربية واحدة برغم وجود ست جامعات يهودية وقرابة عشر كليات للتعليم العالي أو أكثر. ويلقى الخريجون العرب من المؤسسات الإسرائيلية التعليمية ظرفاً أقسى للحصول على فرصة عمل من ذاك الذي يلقاه زميلهم اليهودي. ولا يحق لهم الوصول الى مؤسسات التعليم العالي أو المؤسسات العلمية والبحثية لاغراض التعيين، وهذا الأمر محرم تماماً ضمن مجال عمل المؤسسات الصناعية-العسكرية. لقد بقي حوالي ٤٦٪ من الخريجين العرب في العقد الماضي بلا عمل مقارنةً بـ ١٥٪ من الخريجين اليهود. وخلاصة الأمر أن الخريجين العرب ربما يجدوا لهم موقعاً في سلك التعليم.

وعلاوة على ذلك يبلغ متوسط عمر العربي الإسرائيلي واحداً وسبعين عاماً وهي نسبة أقل بثلاث سنوات عن متوسط عمر اليهودي الإسرائيلي. ويقطن العرب في بيوت فقيرة في قرىً أو مدن تتدنى فيها الخدمات البلدية كثيراً تحت مستوى الخدمات المقدمة لليهود، فالحكومة مهتمة أكثر بتقديم المصادر والدعم المالي لتطوير الصناعة في

المناطق اليهودية مفضلة أن تدع القطاع العربي باق زراعياً، وتلك صورة مشؤومة تعيد الينا حال اليهود في قلارات مدن امريكا الداخلية. فالإهمال في قرى ومدن العرب متفش: المجاري مغلقة والطرق غير معبدة وأرصفة المشاة قليلة والخدمات العامة معدمة والعيادات والمدارس لا تكفي للحاجة المرجوة منها كما ارتفعت نسبة الجريمة، وتعاطي المخدرات آخذ بالازدياد.

كما يتجلى أمامنا ذلك التناقض الصارخ بين حساسية الحكومة المفرطة تجاه الأرثوذكسية اليهودية وبين تجاهلها للوجدان العربي، فتراها أنشأت الطرق وأقامت المنازل على اراضٍ كانت مساجد ومقابر وأماكن مقدسة للمسلمين، ويكفي القول أن الحكومة شيدت فندق (هلتون تل ابيب) عام ١٩٦٠ على موقع مقبرة إسلامية. وعليه حاول الحزب الشيوعي الإسرائيلي جاهداً محاربة سياسة التمييز هذه وناشد التنفيذ العملي لسياسة المساواة والتي عبر عنها إعلان الإستقلال حبراً على ورق.

لقد رأت الحكومة الإسرائيلية في الحزب الشيوعي نظيراً للقومية العربية وهذا ما يفسر لم لاقى الحزب الشيوعي المرتبط بروابط قوية مع الاتحاد السوفييتي مشقة في تحقيق اهدافه، فلم تجد مناداته منذ عام ١٩٤٩ بوضع نهاية للحكم العسكري صدىً لدى الحكومة. وقد توقفت الإدارة العسكرية في حقيقة الامر بقرار من حزب العمال عام ١٩٦٦ بعد أن ظهر أن الاقلية العربية لم تعد تشكل خطراً جدياً على إسرائيل.

فقد أدرك معظم العرب الإسرائيليين بعد السنوات الاولى من الغضب والإحباط أن عليهم القبول بالوجود الإسرائيلي، فليس بمقدورهم واخوتهم العرب الفلسطينيين الواقعين على الجانب الآخر الحصول على فرصة واقعية بإقامة دولتهم على حساب دولة إسرائيل: فإسرائيل قوية ولها جيش حديث أثبت نفسه في حروبه مع الدول العربية المجاورة، والزراعة فيها قد ازدهرت والصناعة شقت الطريق نحو الرقي وعصرية اليهودي الإسرائيلي بدأت تتسلل الى أعماق المجتمع العربي في إسرائيل

الذي حاول كثير من أهليه سيما الشباب أن يحاكيه ويصبح جزءاً من نمط الحياة الإسرائيلية الغربية، وعبد السلام مناصرة واحد من اولئك الذين خلعوا ملابسهم القديمة وارتدوا أزياء غربية حديثة وهو يتكلم العبرانية بطلاقة ويجيد حتى عاميتها. لقد عمل مناصرة بنّاءاً لحساب مقاول يهودي: «انني اؤمن بالتعايش السلمي بين اليهود والعرب، وإنني أعمل لهذا الشيء بصفتي سياسياً نشطاً».

لم يكن هذا التفاعل المشترك محط اختيار الفرد بل هو وليد الظروف. لقد وجد أغلب العرب فرص عمل لدى المستثمرين اليهود وهو أمر قاد الى تزايد الترابط بين المجتمعين. بيد أن هذا الترابط لم يجلب معه اي تغير نظامي أو اجتماعي أو انه أزال الإنحياز ضد العرب وغير من ملامح صورتهم لدى اليهود. بل انه ترابط أجبر كلا المجتمعين على التكيف مع حقيقة أن كليهما يعيش بجانب الأخر ويتفاعلان اليوم بعد الأخر.

ويظهر اليوم كثير من العرب الإسرائيليين رغبة نحو التفوق. إنني أتذكر (رفعت طارق) الشاب القادم من يافا يوم لعب مرة في صفوف المنتخب القومي في السبعينات. لقد أثارت مشاركته في الفريق دهشة عشرين ألف متفرج لم يصدق معظمهم أن يرى مشهداً يلعب فيه عربيا واحدا بجانب عشرة لاعبين يهود فأظهروا علامات الإنحياز ونادوا عليه بأسماء إزدراء وعنصرية. وهنا يقول رفعت: «لم يكن أمراً سهلاً بيد انني تناسيت الجمهور وصيحاتهم بعد برهة من الزمن ومضيت ألعب المباراة بعد الأخرى حتى تقبلني الجمهور بل إنه بدأ يعبر عن إعجابه بي». واليوم يرى رفعت بعين راضية الكثير من اللاعبين العرب قد حذوا حذوه بعد أن غدا هو المدرب الناجح والشعبي لأحد النوادي الإسرائيلية المرموقة بكرة القدم. بيد أن بعض الاوقات الصعبة مابرحت تمر بين الحين والأخر على هذه المباراة أو تلك وتتحول فيها ساحة اللعب الى حدث للإذلال أو اللعنة. ومع هذا يقبل اليوم غالبية اليهود اللاعبين

العرب بين صفوفهم وهو (قبول) أشبه بحال البيض الذين يمقتون الرجل الأسود ولكن يقرون بموهبته الرياضية ولايمانعوا في أن يضموه بين صفوف فريقهم. واستغل ساسة اليهود ظهور الممثلين والرياضيين العرب كدليل أن التعاون العربي-اليهودي ممكن برغم كل شيء. وقد بدا أن العديد من العرب الإسرائيليين شعروا بالحاجة الى (تقليد السيد). لقد عبرت الاحتجاجات العربية في السنوات العشرين الاولى بعد التأسيس عن نفسها بالتجمعات السياسية السلمية وبالمسيرات والمظاهرات، ثم أخذ نمط الإحتجاج العربي يتغير على نحو متطرف ولم يعد يخشى شيئاً ليحيل مظاهرته ضد المارسات العنصرية للسلطات اليهودية الى أعمال عنف تتمثل بغلق الطرقات وإحراق الإطارات والتصادم مع رجال الشرطة. هذه التجربة منحت العرب الإسرائيليين من الشباب والراديكاليين الثقة للمطالبة بتغيير البناء السياسي البالي وطمر التقاليد العتيقة داخل مجتمعاتهم.

لقد أحدثت العصرية تغيراً في البنية الاجتماعية الإقتصادية للمجتمع العربي إذ هجر معظمهم الزراعة واتجه صوب العمل مقابل الأجرة في الصناعة والتجارة والخدمات داخل قطاع اليهود، وهي حالة ولدت معها الرغبة نحو خلع الصفة المدنية على المجتمعات العربية، لقد ارتفع المستوى المعيشي وبدأت في الظهور علامات الوفرة والاستهلاكية.

كانت عائلة (حمولة) القوية واحدة من أعمدة حياة المجتمع العربي الذي تلعب القرابة في سياسته دوراً هاماً. فقد ضمت قائمة المنتخبين والحركات السياسية لإنتخابات البلدية عام ١٩٨٩ أسماء يرجع نسبهم الى عائلة الحمولة التي لعبت كشبكة سياسية واقتصادية واجتماعية ومازال لها وجودها في القرى والمدن العربية. بيد أن ملامح نفوذها أخذت بالإندثار برغم بقاء وجودها حتى اليوم. فدور الأب الرئيس في العائلة قد تآكل وشرع أبناء العائلة باتخاذ قراراتهم المبنية على حسابات عملية أكثر

من أن تستند على روابط عائلية .

أما موقع المرأة في المجتمع العربي الاسرائيلي فما برح متخلفاً . وبرغم حقيقة أن دور المرأة في بعض المجتمع اليهودي الأرثودوكسي لايقل عنها تخلفا في نواح عديدة، فان المرأة العربية أكثر عرضة للإيذاء نتيجة ما تسمى بظاهرة (الإنتقام العائلي) أو قتل المرأة التي ترتكب خطيئة دفاعاً عن (شرف العائلة)، كأن تفقد عذريتها قبل الزواج أو أن يكون لها علاقات غرامية وهي متزوجة . الا أن الزمن قد غير كثيراً من هذا القيد وخرجت المرأة العربية من نطاق مهنة ربة بيت الى مجال العمل في التجارة ودخلت الجامعات وشاركت في السياسة كما انبثقت عام ١٩٩٢ أول منظمة لنساء عرب إسرائيل نادت بإتخاذ إجراءات صارمة ضد جرائم (شرف العائلة) .

لقد نادى علماء النفس العرب والإسرائيليون معاً بضرورة تغريب العرب وبالخطى صوب التقنية الحديثة والقيم الديمقراطية (عملية إسرائيلية العرب)، وهذه ليست بأي حال من الأحوال مباركة خالصة للمجتمع العربي لانه ستأتي في أعقابها ازمة حقيقية بالهوية الذاتية وهي التي ستعكس بطريقة أو بأخرى مشاكل الهوية الذاتية للإسرائيلي اليهودي نفسه .

إن على المجتمع العربي أن يعيش مع عواقب التناقض بين طبيعة إسرائيل لليهودي الإسرائيلي وبين قيمها الديمقراطية ، وهو تناقض يبدو اولاً بلا ذي تأثير على الأغلبية اليهودية بيد أنه في واقع الأمر ذو أثر كبير على الأقلية العربية . إذ أن على العرب الإسرائيليين أن يتقبلوا حقيقة انهم برغم كونهم مواطنين داخل دولة إسرائيل لن يلقوا ماحيوا معاملة مساوية لمعاملة أقرانهم اليهود، فاليهودي في دولة اليهود يتمتع بامتيازات معينة أولها قانون العودة الذي يمنح اليهودي فائدة أساسية يفتقر اليها غير اليهودي ، وهو ما زرع حالة من عدم الرضا بين صناع القرار الإسرائيلي الذين نجحوا بعد كثير من التحايلات في إصدار قوانين إضافية لصالحهم منها قانون خصصا

الأطفال ورهن العقار. ولكي تبقى هذه القوانين شرعية في إطارها ولكي يتجنبوا الدفع للمواطن العربي مخصصات بدل أطفال لجأ المشرعون والسياسيون الإسرائيليون الى إبتكار نغمة (مخصصات الخدمة العسكرية السابقة) وهي تعني أن الطفل يستحق هذه المخصصات إذا كان رئيس العائلة قد خدم مسبقاً في الجيش الإسرائيلي. وحيث أن غالبية العرب العظمى لايحق لهم أو انهم لا يرغبون بالخدمة في الجيش الإسرائيلي فقد أمسوا جميعاً غير مستحقين لهذه المخصصات. كما شرعوا حيلة شعوذة مشابهة قصدت تجريد العربي من مخصصات رهن العقار، ولم تشمل هذه المخصصات العجّز وغير المؤهلين طبياً وكذلك الأرثوذوكس الذين احتجوا علناً ضد هذه اللاعدالة.

يتألم اليوم عرب إسرائيل بسبب الصدام بين الحضارة العربية واليهود وبسبب التشكك حول إنقسام ولائهم وحول حقيقة هويتهم: هل هم إسرائيليون؟ أم أنهم عرب؟ وهل يمكن أن يكونون عرباً وإسرائيليين معاً؟ أم انهم ليسوا بأولئك أو هؤلاء؟. وحقيقة الأمر أن العرب الإسرائيليين يعيشون في الليمبوس. فالغرب يسموهم باسم (عرب ١٩٤٨). أو أكثر إزدراءاً من هذا باسم العرب المتأسرلين بينما يفضل اليهود الإسرائيليون تسميتهم باسم (الأقلية). أو(قطاع العرب) أو ببساطة (عربنا). ويصنف الساسة الإسرائيليون العرب الإسرائيليين ب(المعتدلين) و(المتطرفين) وهو تقسيم يهدف الى مكافأة (العرب الطيبين) وتمييزهم عن (العرب السيئين) وكلا المجموعتين لا تجني فائدة في الواقع العملي.

ولم تأل السلطات الإسرائيلية جهداً في مطاردة الرعاة البدو من العرب إذا ما عبرت قطعانهم الى أرض غير أرضهم وعقوبتهم لهذا الأمر السجن ومصادرة قطعانهم. واذا ما صادرت السلطات الاسرائيلية أرض هؤلاء الرعاة ايضاً فهذا يعني أنها أجبرتهم على ترك مقاطعتهم والتخلي عن الحياة البدوية ولتدفع بهم الى المدينة. لقد سقط حتى العربي (المعتدل) ضحية لعدم الشعور اليهودي هذا.

لقد توجب حتى على العرب الذين لم يدخروا وسعاً ليتعايشوا متوافقين مع الإسرائيليين اليهود وتناسوا المشاكل الناجمة عن هويتهم الذاتية والذين لم يزرعوا بذرة شك حول تعاطفهم السياسي أن يدركوا أن قدرتهم على التآلف مع المجتمع الإسرائيلي اليهودي جد محدودة . إن العزل العرقي والخوف والتحايل قد حال بين العرب واليهود أن يعيشا سوية في مجتمع واحد حتى وإن أوفى العربي بدينه للمجتمع الذي هو فيه بالعملة التي يراها الإسرائيليون عملة صعبة الا وهي الخدمة في القوات المسلحه والقتال بجانب اليهودي ضد أخيه العربي . ولايخفي مالك الأرض اليهودي إمتعاضه وهو يؤجر ملكه للعربي . إن الأحياء التي يعيش فيها العرب والإسرائيليين سوية جد قليلة وتتواجد في مدن مثل يافا وحيفا حيث بقي فيها السكان العرب منذ عام ١٩٤٨ . واذا ما استثينا مشروعاً تجريبياً واحداً لوجدنا أنه من المستحيل أن تعثر على مجتمع ريفي يقطن فيه العرب واليهود معاً ويزرعان الأرض سوية .

وتقدم لنا قضية (ماجد قادر) دليلاً حزيناً آخر . لقد عرفت بنفسي ماجد باسمه الثاني وهو (موشي باركولي) فقد كنت مجنداً ذليلاً وكان هو ضابط الوحدة المبجل . وكانت مهام وحدتنا العسكرية الإستطلاع وجمع المعلومات الإستخبارية والقيام بدوريات على طول الحدود الإسرائيلية مع الأردن ومصر . ويروي من عمل مع ماجد قصصاً مثيرة لا حصر لها عن كفاءته العسكرية .

ولد ماجد في أواخر العشرينات في مجتمع بدوي ، وعقد هو وأقرباؤه خلال فترة الثلاثينات تحالفاً مع اليهود المجاورين لهم ودعموهم خلال حرب ١٩٤٨ . ثم تطوع ماجد وأبناء قبيلته بعد إعلان استقلال دولة إسرائيل للخدمة في صفوف الجيش الإسرائيلي الجديد الذي أمضى فيه دهراً طويلاً من الزمن . لقد ترقى حتى رتبة عقيد وكان ضابط وحدتنا التي كانت من ألمع وحدات الجيش وجرح أثناء قتاله ضد الارهابيين الفلسطينيين والمتسللين العرب والمصريين وفقد ذراعه وقدمه . وتقلد على

إثرها أعلى وسام تقديراً لخدمته ومنحوه اسماً إسرائيلياً هو (موشي باركوني) بيد انه لم يغير اسمه العربي ولم ينكر دينه. لقد كان فخوراً بنسبه العربي وبالإسلام دينه وبوطنيته الإسرائيلية.

إن مسيرة حياة ماجد وقد وصلنا هذا الحد لتزرع بالفرد انطباعاً أن باستطاعة العربي في المجتمع الإسرائيلي أن يخدم الامة ويعيش فيها بحقوق متساوية وحقوق اليهودي. ولكن وآأسفاه فباقي حياة ماجد ستغدر بمثل هذا المفهوم. فبعد أن أنهى ماجد خدمته العسكرية وتقاعد تولى عملاً مدنياً وعاش في مدينة إسرائيلية في الجنوب وبين اليهود. واستمر أصدقاؤه القدامى والذين تبوأ بعضهم منصب وزير في الجيش يكنون له الإحترام بيد أن ماجد-موشي يقول: «ليس الإحترام الذي كنت القاه منهم سابقاً». وقد أراد ولده (ماجد الصغير) أن يخدم في وحدة بحرية بيد أنهم ردوا طلبه لأنه من أصل عربي. فالقانون الإسرائيلي لا يجيز إنتساب البدو أو الدروز أو بقية العرب الذين يتطوعون للخدمة العسكرية للعمل كطيارين أو طاقم غواصات اومقاتلين في الوحدات الخاصة لأنه يرى في العرب خطراً كامنا، واكتفى بإنضمامهم الى الوحدات العرقية الخاصة بهم. وهكذا لم تجد نفعاً توسطات أصدقاء والد ماجد الصغير بقبوله في سلك البحرية، فالإضطهاد البيروقراطي كان أقوى منهم جميعاً.
لقد أحدث هذا الأمر جرحاً بليغاً في أعماق الأب والإبن، وغادر ماجد الصغير البلاد الى الولايات المتحدة ما أن أنهى خدمته العسكرية النظامية، ومات ماجد الأب في شباط عام ١٩٩١ بعد صراع طويل مع المرض آخذاً معه خيبة ظنه عن الواقع الإسرائيلي.

وليس بغريب إذاً أن يتسبب هذا الإرتباك الفكري والإحباط السياسي واتساع الهوة الإجتماعية-الإقتصادية والبحث الدائم عن الهوية الذاتية في إعادة انبعاث الحركة الإسلامية داخل المجتمع العربي-الإسرائيلي. لقد نشأت هذه الحركة تلبية لحاجة

العرب الإسرائيليين الى (العودة الى جذورهم) والإنجذاب الى الإسلام هي المرحلة الثالثة التي وجد مناصرة نفسه فيها.

يقول مناصره: «لقد كنت شيوعياً لأكثر من ثلاثين سنة من سنين حياتي، آمنت فيها بالتعايش السلمي مع اليهود وكنت أنشد من إسرائيليتي وشيوعيتي أن يغدوا أداتين صوب رقي قومي وتقدمهم. اما الآن فقد غدرني أملي ذاك ووجدت في الإسلام طريق هداية جديد. لقد أدركت اليوم أن طرائق سياساتي الدنيوية قد أفضت بي الى ثقافة شيطانية. لقد هجرت الدين الذي ولدت فيه، وأنكرت ربي فشعرت كأني لطيم. لقد كانت الشيوعية ديني وعائلتي وما إن غادرتها هي والسياسة حتى أدركت أن ضالتي تقع في ايمان آخر». ويضيف قائلاً: «لقد تجشمت عناءاً حتى أجد اي دين يناسبني. وانكببت أقرأ الإنجيل، ثم فكرت أن أغدو يهودياً في ديانتي. شرعت بعدها أبحث في نور المسيحية– العهد الجديد – حتى أدركت نهاية المطاف أن ديني القديم هو الأفضل بينها ليس لأني قد ولدت فيه بل لأني اخترت هدايتي، واصبحت رجل دين لأني أنشد العدالة والحقيقة».

تأسست الحركة الإسلامية في إسرائيل قبل حوالي عشرين سنة على يد مجموعة من الشباب الذين هبوا للعودة الى جذورهم الدينية. كان معظمهم من سكان المدن المثقفين وعلى معرفة بطبيعة مجتمعهم العربي ودولة إسرائيل ويتكلمون العبرية بطلاقة ويتصرفون كأنهم يهود، اما الإختلاف الوحيد فهو في مظهرهم الخارجي: قفطان طويلة وقبعات على رؤوسهم ولحايا قصيرة وهي التي تميز عودتهم الى الإسلام.

ويعتبر الشيخ (عبدالله نمر درويش) الرجل البارز بين قادة الحركة الإسلامية الشباب وهو يؤكد أن الحركة الإسلامية تدعو جميع المسلمين بالعودة الى إسلامهم وترك الحضارة الغربية، بيد أنها لا تعبر عن اي رغبة لتحقيق هذا الهدف بالقوة أو العنف كما فعلت في ايران. كما يشدد على وقوفه بجانب الديموقراطية وحق دولة

اليهود في الوجود. وهو يرى أن ظاهرة العودة الى جذور الإسلام لا يجب أن تحدد نفسها على النطاق المحلي أو القطري بل على المستوى العالمي (وقد انتشرت في الاقطار المجاورة مثل الأردن ومصر وتمددت الى اقطار بعيدة أخرى مثل السودان والجزائر).

لقد وجد الشيخ درويش ورفاقه- ويا للسخرية- أرضية مشتركة مع أترابهم من اليهود الأرثوذوكس حتى بات من الصعب أن نميز بين المتطرفين اليهود والمسلمين، فكلاهما من ذوي اللحايا ويرتدون قبعات رأس متشابهة تماماً ويجمعهم في أقل تقدير هدف مشترك: الثيوقراطية (الحكومة الدينية). وهنا يخشى الإسرائيليون من نمو الحركة الدينية برغم رسائل التطمين الكثيرة التي أعلنها الشيخ درويش. فاليهود سواء أكانوا مخطئين في ظنهم أم على صواب قد حددوا هذه الحركة بأسلوب التطرفية الايرانية تدفعهم لذلك بصيرتهم أن كره إسرائيل واليهود أمر موروث في الحركة الإسلامية. وقد تعزز شعور البصيرة هذا في شباط ١٩٩٢ عندما قتل أعضاء في حركة إسلامية متطرفة ثلاثة جنود إسرائيليين، وتلك كانت أسوأ جريمة سياسية إقترفها الإسرائيليون العرب بحق الإسرائيليين اليهود.

ودب هذا الخوف من نمو الحركة الإسلامية الى المسلمين المدنيويين والى العرب المسلمين. لقد هزمت الحركة الإسلامية في انتخابات عام ١٩٨٩ الحزب الشيوعي في العديد من المدن والقرى الكبيرة وغيرت الحركة الإسلامية وجه (الشارع العربي) في العديد من الأماكن، ويرفرف اليوم العلم الأخضر الرائع (لون راية محمد) فوق الجوامع الحديثة البناء التي تغص أيام الجمع بمئات وأحياناً أخرى بألوف المصلين. وأخذت المحلات تبيع الكتب المقدسة والمقالات الدينية. وافتتحت الحركة المدارس ورياض الأطفال التي ينفصل فيها الذكور عن الإناث (كحال اليهود الأرثوذوكس)، وأخذ طابع التعليم فيها المذهبية وفيها يرتل القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس. وكلما حصلت الحركة على موطىء قدم جديد لها تشددت حيال القلة من النساء

العربيات اللواتي يرتدين الزي الغربي مطالبة إياهن بالعودة الى الزي التقليدي (المعتدل).

إن تمسك الحركة الإسلامية في إسرائيل لهو دلالة على عمق الوجدان الديني التقليدي داخل المجتمع العربي بشكل عام وداخل المجتمع الاسلامي في إسرائيل بشكل خاص. وهي شهادة أيضاً على قوة الإسلام كشارة حضارية وتاريخية لهوية المسلم الذاتية. ومع هذا سيكون من الخطأ الحكم على هذه الظاهرة من خلال حسناتها التاريخية والدينية والحضارية. فالحركة الإسلامية تمثل قوة إجتماعية متماسكة ذات جذور عميقة داخل حياة المجتمع. فهي تنظم مراكز المجتمع ومناهج التدريب والتدريب الطبي لحالات الطوارىء وتهتم بمحاربة الجريمة والدعارة وتعاطي المخدرات. كما تهدف الى تحسين البنية التحتية مثل استبدال أنابيب تصريف المياه القديمة بشبكة جديدة وفي بناء الطرق. وبكلمة أخرى حاول الإسرائيليون العرب من خلال تطرفيتهم إعادة هويتهم القومية في نفس الوقت الذي يحاولون فيه استرضاء هذه الهوية مع الشخصية اليهودية في دولة إسرائيل.

واذا كانت الحركة الإسلامية حركة إحتجاج جماهيرية فإن حقيقة انها تأسست بضع سنوات بعد حرب الأيام الستة تبقى حقيقة لا يمكن تجاهلها. لقد ساهمت هذه الحرب وما تلاها في نمو بعض الإتجاهات داخل المجتمع الإسرائيلي اليهودي: الإدراك السفاردي للذاته والراديكالية السياسية والتطرفية. فكما ساعد فتح الحدود القديمة بين الضفة الغربية وإسرائيل اليهود في الوصول الى أماكن تشكل تاريخياً وتوراتياً جزءاً من ذاكرتهم القومية، فإنها ساعدت أيضاً الإسرائيليين العرب للإتحاد ثانية مع إخوانهم الفلسطينيين على الجانب الآخر من حدود ما قبل ١٩٦٧ وفي زيارة أماكنهم المقدسة، وبات بمقدورهم الآن الصلاة أيام الجمع في الجوامع الواقعة في جبل الكنيسة في القدس الشرقية. ويطلق علماء الإجتماع على هذه العملية اسم

(فلسطينية العرب الإسرائيلين) لتناقض بذلك التسمية القديمة (التأسرلية). لقد أحيا هذا الترابط مع الفلسطينين الضمير القومي الديني لدى العرب الإسرائيليين ويمكن تلخيص هـذا الإحيـاء الضميري: نحـن عـرب نعيش في إسرائيـل، قـوميتنـا هي الفلسطينية وديننا هو الإسلام.

لقد تشابكت مشـاكل الهوية الذاتية والتناقض البـاطني لدى الإسرائيلي العربي في فترة السبعينات أكثر من اي وقت مضى، فهو يسير على حبل دقيق بين (الإسرائيلية) و (الفلسطينيـة) و (الإسـلامية). إن على اي بـاحث أو عـالم اجتماع إذا مـا أراد نقل التيارات السائدة اليـوم في مجتمع ما أن يضفي عليها وجهة نظره السياسيـة، وسيؤكد عـالم الإجتماع اليهودي أو ذاك العـربي المؤمن بإمكـانية التعـايش السلمي المشترك على الترابط بين العربي و (إسرائيليته) يقوده لهذا الأمر افتراضه أن العربي الإسرائيلي الذي ترعرع على نمط الحياة الإسرائيلية سيفضل عصرية الحياة الغربيـة على دولة فلسطينية منفصلة. وهنا وبـالإستناد على هذا الرأي سيشكـل العربي الإسرائيلي جسر سلام بين إسرائيل والعـالم العربي. وسيحـاول علماء الإجتماع اليهود والعـرب من ذوي النزعـة القـومية برغم ذلك إثبـات أن الإسرائيلي العربي سيختـار العيش بين اخـوته العـرب الفلسطينيين. ولكن شيئاً واحداً يبقى جلياً مهما اتخذت القضية شكلاً وهو أن مستقبل العـرب الإسرائيليين وحل هذه المشـاكل المتشعبـة يرتبطـان إرتباطـاً وثيقـاً بالسـؤال الصعب المتعلق بحـال الفلسطينيين ومـا سيغـدو عليـه وهم بـاقـون تحت الإحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة.

الفصل الحادي عشر

ألعرب الآخرون

في أحد مساءآت آذار من عام ١٩٩٢ والليل قد أوشك أن يطبق سدوله مضى زوجان شباب يتمشيان على طول أحد شوارع ضاحية من ضواحي تل أبيب الرئيسية والراقية. كان مساء مهرجان البوريم اليهودي(عيد من أعياد اليهود) حيث ترتدي فيه العوائل الملابس الجذابة وتذهب للحفلات لقضاء وقت طيب. هذه الملابس تعكس برامج تلفزيونية شعبية أو تمثل رجال السياسة المعاصرين أو بعض التقاليد الفلكلورية فلا عجب إذاً أن يرى القاصد تلك الحفلات ذلك المساء سلحفاة النينجا أو جورج بوش أو صدام حسين أو رعاة البقر الأمريكان أو بائعات الزهور الهولنديات. إقترب إلى الزوجين من الجانب الآخر للشارع رجلان كان أحدهما مرتدياً قناع قرد بينما غطى الثاني رأسه بالشماغ العربي ومرتدياً عباءة عربية. وما أن اقتربا وجهاً لوجه مع الزوجين حتى أخرج الزوج اليهودي سلاحه ورمى الرجل بالشماغ العربي حتى خرّ جريحاً. وقد قال المهاجم اليهودي: «لقد ظننت أنني رميت إرهابياً»، ثم تبين بعد التحقيق أنه جندي إسرائيلي في إجازة من وحدته العسكرية علماً أن تعليمات الجيش الإسرائيلي تحتم على جنوده حمل السلاح سواء أكانوا في وحدتهم العسكرية أو في إجازة منها.

لقد احتوت هذه الحادثة التي وقعت في قلب إسرائيل بالإضافة إلى جوانبها المأساوية وبأنها رمزية لواقعنا اليوم على جميع العناصر التي تجسد العلاقة الخاصة بين الإسرائيليين والفلسطينيين وبين اليهود والعرب في الأراضي المحتلة والمتمثلة بالخوف

والشك والبغض والقبولية والعنف المتطاير. هذه العواطف جميعها قد تراكمت ونمت في خضم ربع قرن من الاحتلال الإسرائيلي لما أيقن الإسرائيليون أن بمقدورهم العيش هكذا والمضي في العيش هكذا حتى تلاشت أوهامهم في الثامن من كانون الأول عام ١٩٨٧.

لم تكن إسرائيل تقصد بعد إحتلالها في حزيران عام ١٩٦٧ لقطاع غزة والضفة الغربية وهي موطناً لأكثر من مليون فلسطيني ألبقاء فيها أبد الآبدين بل إن غالبية الإسرائيليين كانوا على يقين مطلق أن إسرائيل ستعيد هذه الأراضي لأصحابها العرب إما بسبب الضغط الدولي أو كجزء من اتفاقية سلام. ولما طال الوجود الإسرائيلي سنةً فستين دبّ شعور الخجل والاحراج إلى أجساد الإسرائيليين وأرادوا غسل ماء الوجه فقالوا منكرين أن يكون (احتلالاً) عسكرياً، وابتدعوا لهذه الحجة مصطلحاً جديداً هو (الإحتلال التنويري) بدلاً من الحكم العسكري وابتكروا لدعم هذه التسمية أوهاماً ساذجةً للكيفية التي ستسير فيها خطى الحياة في الأراضي المحتلة حيث ستغدو فيها الإدارة العسكرية إدارةً للرعاية ومراعاة المشاعر والإحتلال سيكون بذي جوانب إنسانية. أما غرض الإحتلال فهوإدارة حياة (العرب الآخرين) أنفسهم وكأن لا وجود للإحتلال فهي ليست علاقة بين المغتصِب والمغتصَب بل هي أنموذج للمساواة الحقيقية بين اليهود والعرب.

لقد كان اليهودي يوماً ما هو المغتصَب وهو الضحية. أفيعقل أن يغدو اليوم قمعياً بعد الويل الذي لاقاه سيما في الحرب العالمية الثانية وخلال فترة الإنتداب البريطاني لفلسطين بين الأعوام ١٩١٧-١٩٤٧. لقد رفض معظم الإسرائيليين التصديق أنهم اليوم سبباً لآلام الغير.

لقد نجحت إسرائيل وعلى مدى عشرين عاماً (١٩٦٧-١٩٨٧) في فرض سيطرتها على الأراضي المحتلة من خلال إتباعها وسائل أقرب إلى منهجية القوى

الإستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين . فقد أناطت مهمة إبقاء الفلسطينيين ساكنين إلى مديرية الأمن العام الإسرائيلي (GSS) والمعروفة بالعبرية بإسم (شاباك Shabak) ، وأصبح رجل الأمن العام المعروف باسم (شاباكنك)ملكاً لهذه الأراضي ، إذ خصصت السلطات الإسرائيلية لكل عميل من هؤلاء العملاء أو لنقل (الأسياد) مساحة من الأرض أسمت فيما بعد (مقاطعة) له على أن يتولى مسؤولية معرفة كل ما يدور في هذه المساحة التي تضم عادة قرية أو أكثر من قرى قطاع غزة والضفة الغربية . وهكذا لم يعد بمقدور الفلسطيني الدخول أو الخروج من المقاطعة التي ينتسب إليها دون معرفة وموافقة سيده الشاباكنك والذي اختار مخبرين له من بين تابعيه ليحيطوه علماً بالذي يدور حوله . إنه يختار هؤلاء المخبرين بالضغط عليهم فإذا ما أراد فلسطيني ما أن يحصل على إجازة بناء فعليه أن ينتظر (سيده) ليبت في الأمر ، وإذا ما رغب تاجر فلسطيني أن يصدر البرتقال من غزة أو زيت الزيتون من نابلس فعليه أن يحصل على موافقة مديرية الأمن العام . وهكذا يعيش الفلسطينيون يومياً في دوامة الروتين وتدقيقية السيد الشاباينك والجهاز الإستخباري الذي يدعمه .

فلو كان هدف الأحتلال هو المحافظة على النظام والهدوء لتحقق هذان الأمران بسرعة البرق . لقد حاول الفلسطينيون خلال الأشهر الاولى التي أعقبت حرب ١٩٦٧ ؛وبعد أن أفاقوا من غيبوبة الهزيمة والإحتلال ؛ الإنتقام من الإسرائيليين ، وقد انطوت خطتهم التي أقرتها منظمة التحرير الفلسطينية على جعل الأراضي المحتلة أراض يستحيل على الإسرائيليين حكمها وما كان يجول في عقولهم هو (نضال التحرير الشعبي) وعلى غرار أفكار (ماوتسيتنغ-الصين) و (فيدل كاسترو-كوبا) . بيد أن المنظمة فشلت في أن تستقي من قول ماوتسيتونغ بأن على مقاتلي المدغرة أن يحظوا بدعم شعبهم وأن يشعروا (كالسمكة في الماء) . ولم يعد بمقدور مقاتليها (السباحة) دون أن يرقبهم أحد وهم بين أهليهم الذين دفعوا بهم إلى جهاز الأمن العام . لقد فضل السكان المحليون تدفعهم بعض المغريات الإسرائيلية العيش بسلام وهدوء بدلاً

من المخاطرة والتعاون مع منظمتهم السرية.

لقد استمرت المقاومة الفلسطينية ضد الإحتلال الإسرائيلي طوال السنين الخوالي دون أن تلحق أذىً حقيقياً في مجرى الحياة اليومية الروتينية لإسرائيل. ليس هذا فحسب بل إن المقاومة الفسطينية الطيّعة قد سهلت على الإسرائيليين قطف ثمار احتلالهم. إذ اعتبروا السكان الفلسطينيين في الأراضي المحتلة أيدي عاملة رخيصة واتخذوا منهم موقف التفوق عليهم والإزدراء منهم. وهكذا ترى مع كل إطلالة فجر جديد عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الأراضي المحتلة يغادرون منازلهم كأنهم النمل الصناعي على أقدامهم أو في حافلات أو على عربات متجهين صوب العمل في إسرائيل.

وهكذا ترى جوانب الطرقات في إسرائيل تعج بالعمال الفلسطينيين من الشباب والشيوخ كل منهم يحمل حقيبة فيها وجبة طعام فقيرة (قطعة خبز، حبات زيتون وبعض الجبنة) آملاًأن ينتشله أحد المقاولون اليهود والذي إذا ما توقفت سيارته تدافع اليها عشرات من هؤلاء الفلسطينيين يزاحم أحدهم الآخر متوسلين ومقبلين أيدي المقاول اليهودي لعله يجد لهم عملاً عنده. وتجد في أسواق العبيد هذه أطفالاً لا يتجاوز عمرهم العاشرة قد أرسلتهم عوائلهم بدلاً من المدرسة إلى العمل ليساهم في دخلها وعليه فإنك تراهم في كل مكان: يغسلون الصحون في المطاعم أو في حدائق أغنياء ضواحي تل أبيب أو واقفين أمام خط الإنتاج لمصنع (شيبا) للبيرة...

لقد تعود الإسرائيليون وجود الفلسطينيين في منازلهم وحدائقهم ومكاتبهم وباتوا يعدونهم جزءاً من أثاثهم فمنظف أرضية شقتنا وكذلك باقي الشقق كان طفلاً فلسطينياً من إحدى قرى الضفة الغربية، وسيظهر أمامك كل يوم صباحاً بدلوه ومكنسته وخرقةٍ بالية فيمر عليه سكان العمارة دون أن يعتقدوا أن مخلوقاً أمامهم واقف لا يعرفون عنه غير اسمه الأول-قاسم- وإذا ما عطف عليه أحدهم أكساه

بعضاً من ثيابه القديمة بدلاً من أن يرميها خارجاً.

لقد تحقق النجاح الإسرائيلي بتهدئة الأراضي المحتلة مقابل ثمن معين. فقد كان من الأهمية بمكان إستخلاص المعلومات بسرعة وبدقة بعد كل عملية تفجير سيارة مفخخة أو الهجوم على فندق أو مطار، وتعلم الشاباكنك الطريق الصعب الذي يعنيه الإحتلال. فعملهم كان عملاً قذراً لخدمة هدف نبيل ألا وهو الدفاع عن بلادهم وشعبهم. بيد أن وسائل حفظ الأمن تتبع معياراً مزدوجاً في العدالة، فالعدالة الديموقراطية متاحة أمام المواطنين الإسرائيليين بينما نهجوا معياراً آخر يختلف تماماً عن سابقه في المنطقة المهلكة الواقعة بين المسموح به والممنوع ضد المشتبه بهم من الفلسطينيين في المناطق المحتلة. وإذا ما اعتقلوا فلسطينياً أرسلوا به في الحال إلى أحد مراكز الحجز المعزوله أو في أجنحة خاصة في سجون إسرائيل المدنيه ولا تعلم الشرطة أو سلطات السجن الوطني ما الذي سيحدث له خلف الجدران.

لقد قضيت بعضاً من خدمتي العسكرية في مطلع السبعينات في قطاع غزة وتوليت فيها مهمة مراقبة الأزقة الضيقة في مخيات اللاجئين. كانت نظرات النساء إلينا تنم عن حقد علينا وخوف منا، وتصرف أغلبنا كالأعاجم حين حطمنا الأثاث وهشمنا الفخار وتركنا البيت وكأن إعصاراً قد زاره. ولم يدرك منا الا القليل لحقيقة أننا نحن الشباب أبناء الثامنة عشرة انا نمثل الإحتلال في أعين الفلسطينيين. وكنا نصطحب في الليل ضابط الشاباك لتفحص السجناء الفلسطينيين يرافقنا عدد من المخبرين الفلسطينين مرتدين أقنعة تغطي وجوههم. لقد انطوى دور المخبرين على الغدر بأصدقائهم وتسليمهم لأيدي الإدارة العسكرية. فبعد أن نتعرف من خلاله على عنوان المشتبه به نذهب لمحاصرة شقته أو بيته، وبينما يقف بعضاً منا خارجاً يدخل الباقون لتحطيم ما هو موجود داخل البيت والقبض على المشتبه به ونوثق يديه وأحياناً قدميه ونجره خارجاً مع عويل وبكاء عائلته ونقذف به داخل السيارة. ثم

تتجه به صوب جناح الشاباك في أقرب سجن فيتلقفه المعنيون عند المدخل ونبقى نحن الجنود خارجاً بيد أننا نسمع أثناء زياراتنا الليلية ذلك الصراخ والعويل وهي دلالة أن السجين قد ضربوه وعذبوه. وعلمت بعدها أنها لممارسة جماعية لرجل الشاباك أن يغطوا رأس السجين الفلسطيني بكيس أسود منقع بالبول ثم يعرضوه ورأسه لما يزل مغطى للهيب أشعة الشمس الحارقة كما يحرموه من النوم بعد أن ينقعوه بالماء البارد.

لقد بدى لفترة من الزمن ناهزت العشرين عاماً كأن البلاد تعيش في غشية عاش فيها الناس متناسين وجود شيء اسمه إحتلال، وقد ساعد نكران الذات والعزلة الإسرائيليين على تجاهل أسواق العبيد الواقعية والموجودة في مدنهم، ورغبوا عن معرفة شيء عن التعذيب الذي يلحقه الشاباك بالنيابة عنهم وباسم الامن العام. كانوا يغضون البصر اذا ما اقتربوا من متراس الطريق العسكري الذي يستطيعون هم العبور منه بينما يتوجب على السيارات العربية التوقف عنده، حيث تم تزويد السيارات من الضفة الغربية أو قطاع غزة بلوحات تسجيل مميزة لتسهيل مثل هذه المهام.

ولم يكن بمقدور الفلسطينيين خلال هذه السنوات العشرين أن يتناسوا الأمر أو يكظموه. لقد عملوا لسنوات لحساب الإسرائيليين بأجور رخيصة وبدون فوائد. كان معظمهم من الشباب أو من حملة الشهادات الجامعية. إن نقص فرص العمل لمثل هذه النخبة تعني أن آلافاً من العقول النيرة ستجد حالها بين أمرين أحدهما أمر من الآخر وهما: أن يبقى عاطلاً عن العمل أو أن يحمل صناديق الخس في سوق حيفا أو أن يمسح مطاعم تل أبيب بعد انقضاء ساعات الدوام. ثم يغطون في نوم عميق بعد انتهاء ساعات عملهم على طرائح قديمة في أرضية المطبخ أو بجانب مكائن المصنع الذي عملوا فيه.

لقد تعرف الفلسطينيون خلال العقدين الأخيرين على كثير من خبايا المجتمع

الإسرائيلي وبذلوا جهوداً حيمة لتعلم اللغة العبرانية لأجل البقاء، فهي شرط أساسي لحصوله على عمل. بينما لم يشكل هذا الأمر أهمية للإسرائيلي في أن يتعلم العربية. وشرع الشباب الفلسطيني يقلد نظيره الإسرائيلي في كلامه وطرائق حديثه وحتى في ملبسه. بيد أن فارقاً اساسياً لما يزل قائماً وهو أن الإسرائيلي هو السيد والفلسطيني هو العبد، وهذا أمر ملأ الفلسطيني حقداً وحسداً في نظرته للمجتمع اليهودي.

وقد بلغ هذا الشعور ذروته في كانون الأول عام ١٩٨٧ عندما انتشرت إشاعة إنتشار النار في الهشيم تقول (لقد قتلنا اليهود بوحشية). كان مصدر هذه الإشاعة هو مخيم جباليا للاجئين شمال غزة حتى مدينة رفح على حدود غزة مع مصر. لقد أشاع الفلسطينيون في غزة أن الحادثة الأخيرة التي راح ضحيتها أربعة من العرب بعد أن دهستهم شاحنة هو (عمل إنتقامي قام به اليهود). لقد وقعت الواقعة عندما فقد سائق شاحنة إسرائيلي السيطرة على شاحنته على الطريق الرئيسي الذي يربط غزة بإسرائيل واتجه بشاحنته على حشد من الفلسطينيين كانوا في طريقهم إلى منازلهم. شاهد هذه الحادثة مئات من الفلسطينيين الذين تولدت لديهم قناعة مطلقة أن الحادث جريمة قتل. وهكذا تحولت حادثة طريق مأساوية إلى حدث تاريخي.

إندلعت المظاهرات في أعقاب الحادثة وعمت أرجاء قطاع غزة، وتلك كانت بذور ما عرف بعدئذ بالإنتفاضة الفلسطينية التي ما انفكت مندلعة حتى اليوم. تعني كلمة الإنتفاضة أدبياً (التغيير الجذري)، وقد استخدمها الفلسطينيون الراغبون بإحداث تغيير جذري على الحكم العسكري الإسرائيلي والإحتلال. لقد طالب المحتجون بنظام حكم جديد يتولى السكان العرب إدارته على أمل الحصول مستقبلاً على دولة فلسطينية. والإنتفاضة ثورة شعبية شملت بالإضافة إلى أعمال التفجيرات على مظاهرات الإحتجاج والإضرابات ورمي الحجارة، والتي نجحت جميعها في لم شمل القواطع الفلسطينية في المناطق المحتلة بيد أن أعمال الإضراب قد أصابت العمل

الفلسطيني بأذىً أكبر من الذي ألحقته بالإقتصاد الإسرائيلي. لقد هيأ معظم الفلسطينيين أنفسهم لدفع ثمن ذلك.

لقد انطوت الإنتفاضة أيضاً على صراعات داخل المجتمع الفلسطيني نفسه: الفقراء ضد الأغنياء والصغار ضد الكبار، وكذلك صرخات الرفض لظروف المعيشة المزرية التي يعيشها كثير من الفلسطينيين سيما اولئك الذين يقطنون مخيمات اللاجئين في قطاع غزة. بيد أنها أعطت للفلسطينين فوق كل شيء الشعور بالفخر. لقد إستحضرت وعززت شعورهم القومي وحسنت وجه صورتهم الدولية. وتلك هي الإنتفاضة التي جاهد الشاباك ليمنع وقوعها. لقد نظموا شبكة من المخبرين من عمال مصانع إلى أصحاب عقول ليحيطوهم علماً بأي محاولة جدية من هذا القبيل مقابل أجر شهري يتراورح بين خمسين إلى مائتي دولار شهرياً.

وقررت السلطات العسكرية الإسرائيلية مطلع الثمانينات وبسبب تزايد قوة الشعور القومي بين الفلسطينيين تشجيع الفلسطينيين على تشكيل عصبة الأرض الفلسطينية في ظن منها أن هذه المجاميع ستعمل بديلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية، وهكذا تم تشكيل (عصبة الأرض) داخل الضفة الغربية بدعم من السلطات الإسرائيلية نفسها التي سمحت لأعضاء العصبة بحمل السلاح والتمتع ببعض الإمتيازات لعلها تحصل منهم على قيادة فلسطينية جديدة مساندة لإسرائيل. بيد أن العصبة فشلت واعتبر الفلسطينيون أعضاء هذه العصبة خونة لأنهم باعوا أنفسهم للإسرائيلي المحتل.

أما المنظمة الثانية التي دعمتها السلطات الإسرائيلية على نحو غير مباشر فهي حركة حماس المتطرفة. وإذا كانت السلطات الإسرائيلية قد أسندت بحذر شديد الحركة الإسلامية، فإنها قد حددت كثيراً من انتساب من له علاقة بمنظمة التحرير الفلسطينية بحركة حماس. وهكذا توزع أعضاء حماس في العربية السعودية والكويت

وبقية إمارات الخليج الثرية لجنـي الأموال بعدأن سمحت لهم السلطـات الإسرائيلية بإدخال هـذه الأموال إلى قطاع غزة والضفـة الغربية لبنـاء الجوامع الجديدة والمدارس والكليات والمراكز الإسلامية والعيادات .

لقـد وجد الشبـاب الفلسطيني في هـذه الثروة للمسلمين ممزوجـة مع دعـواتهم بالعودة إلى جذور دينهم إستغاثة قويـة لهم ، فشرعوا آلافاً مؤلفة يؤدون صلاة الجمعة ويلتحقون بمـدارس دراسة القـرآن واستفادت العـوائل كثيراً من العيـادات الصحية وأرسلت صغـارهـا إلى المراكـز الإسـلاميـة حتى تحولت الجوامع والمدارس أوكـاراً للإثـارة الدينيـة . ها هنا أدرك الشـابابنك المؤمن بسيـاسة (فـرق تسـد)أن وقت خلق حركـة حماس قد حان لأنها ستشكل تهديداً لهيمنـة وطنيي منظمة التحريـر الفلسطينية داخل الأراضي المحتلـة . وهكذا تطـورت حماس بدعم من إسرائيل إلى قـوة سياسيـة حصـلت قاعـدة شعبية كبيرة وتطـور معها حجم العنف العـدائي بينها وبين منظمـة التحرير والذي قاد أحياناً إلى مـوت مئات من الفلسطينيين . فقد جند الجانبان كلاهما رجاله لقتل (المتآمرين) و(تجار المخدرات) و(العاهرات) .

من جانب آخـر خلق هذا التماسك الإسـلامي تخوفاً شـديداً بين الفلسطينيين من المسيح ، فقررت عشرات الآلاف من العـوائل المسيحية في الضفـة الغربيـة الهجرة إلى الولايات المتحدة أو كندا أو اوروبا خـلال فترة الثمانينات حتى فقدت مدينة بيت لحم المرتبطـة كثيراً بتـاريخ المسيحيـة غـالبيـة سكـانها من المسيح واستحـالت إلى حصن إسلامي . وهنـا حذر القادة المسيح البـارزون من مغبةأن تستمر موجـات الهجرة على هـذا النحو لأن بيت لحم ستتحـول إلى (مـدينة ديـزني المسيحيـة) أوأن تكتفي بزيـارة السواح لها .

لقـد أضعف تفتيت المجتمع الفلسطيني المسيحي العنـاصر ذات النـزعة المعتـدلـة والغـربيـــة داخل المجتمع الفلسطيني ، وهـم المجمـوعـة التي ربما وجـد معهم

الإسرائيليون أرضيـة مشتركة. كما أن إسرائيل مـن جانب آخـر لم تحظ بمجرد فـرصة ضئيلة لبلـوغ تفاهم مع حماس. بيد أن المتعصبين أضعفوا حقـاً العنصر القومي داخل المجتمع الفلسطيني كما رغب بهذا الأمر الشابابنك والسلطـات الإسرائيلية برغم بقاء حقـدهم لإسرائيل والشعب اليهـودي عميقاً ولا يقبل المسـاومـة عليـه. وكان أحـد مبادىء هذا الإضعاف هو العداء بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس. فبينما تهدف منظمة التحرير أساساً إلى تحقيق اتفـاقية سلام مع إسرائيل نجد أن حركة حماس ترفض الإعتراف بحق اليهود في إقـامة دولتهم، فهي تنظر للصراع مع إسرائيل وعلى خـلاف القـوميين أنه نضـال ديني وحضـاري وليس مجرد جـدال سيـاسي على أرض معينة، وبأن هذا النضـال يمثل جزءاً من صراع قديم بين الإسلام والحضـارة الغربية التي يقـودها اليهـود والصهيونيـة. ولتوضيح وجهـة نظرهم هـذه قالـوا أن إسرائيل والصهيـونية واليهـودية هـم الصليبيـون الجدد وهم أشبـه بصليبيي القرون الـوسطى الذين جابـوا الشرق الأوسط بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر. فاليهـود قدموا من اوروبا أيضـاً، وكانوا أقلية أخضعت الأرض لسيطرتها بالحرب وصـادروا الأرض من أهلهـا المحليين، بيد أنهم مـا نجحوا قط في الإختـلاط والتفاعل مع بيئتهم. لقـد بقوا غربـاء وما انتسبوا لمكان. وهـم يتكلمـون لغة أجنبية ويرتدون لبـاساً مختلفاً ولهم غير عاداتنا ودينهم غير ديننا. ولم يتقبل العرب المسلمون اليهـود كما رفضـوا الصليبيين من قبل.

وهكـذا تـوصـل المتعصبون إلى نتيجـة مفادهـا أن قدر اليهـود لن يختلف بشيء عن قدر من سبقهم وسيعودوا أدراجهم حيث جـاءوا من شتات اوروبا كما عاد من قبلهم الصليبيون. إن وجهة النظـر البـسيطة هـذه قد تجاهلت الخلفية التـاريخية: لقد تجاهلت أن الشعب اليهودي مـرتبط بهذه الأرض وان الصهيونية ليست حـركة تحرير قـومية أقل شأنـاً من نظيرتها الفلسطينية. لقـد غسلت هـذه الحملة الـدينيـة عقول الشبـاب والمتعصبين من الفلسطينيين فذهبوا لشراء سكاكين المطبخ ليقطّعوا بها اليهـودي البريء

المار في شوارع تل أبيب مرددين صيحات (الله أكبر).

لقد ساعد الإسرائيليون دون دراية وكما تناقلت ذلك أسطورة(غولم) اليهودية في تعزيز قوة المتعصبين. تقول الأسطورة أن حاخاماً عظيماً في (تشيكوسلوفاكيا) في القرن السادس عشر صنع لنفسه مخلوقاً من الطين ثم نفخ فيه الحياة تدريجياً بواسطة قوة جبارة. كان يأمل من هذا المخلوق أن يغدو خادمه المطيع، بيد أن المخلوق السحري أبى ذلك وتمرد على سيده وفر هارباً كالمجنون في شوارع براغ.

ساعدت الإنتفاضة برغم عناصر العنف ونشوء التطرفية فيها حركة المقاومة الفلسطينية أن تحصل لها على بعض الشرعية عند الرأي العام العالمي ولدى كثير من الحكومات الغربية. هذا التعاطف انما يقف على طرفي نقيض مع الكره الشديد الذي زرعته الأساليب الوحشية المبكرة للفلسطينيين، طالما انهم يجعلون من مواطنين أبرياء أهدافاً لنضالهم. لقد استشاط العالم غضباً عندما شرع (مقاتلو الحرية) الفلسطينيون باقتحام المنازل عنوةً منتصف الليل ليأخذوا أربعة أو خمسةً من الأطفال رهائن لديهم. وأذكر انه في شتاء عام ١٩٧٤ هشم الإرهابيون يحيطهم رجال الأمن الإسرائيليين جمجمة طفل رهين لديهم. أيمكن إذاً أن يسميّ أحد ما هؤلاء الرجال القادرين لمثل هذه الوحشيات (مقاتلي الحرية) أو يثني على صنائعهم هذه باعتبارها جزءاً من (النضال القومي)؟!.

وحكم العالم على إسرائيل من خلال ما تكشف عنها من سياسات أمنية أفقدت إسرائيل اسمها الجميل وأضحى حال دولة اليهود في الحضيض بعد أن كان لها عند الرأي العام الغربي موقعاً حسناً، واستحال المظلوم المنتصر في حرب ١٩٦٧ محتلاً ظالماً لأرض شعب آخر. لقد أماطت إنتفاضة الثامن من كانون الثاني عام ١٩٨٧ اللثام عن ذلك المضمون البائس لمصطلح (الإحتلال التنويري). إذ بقي كثير من الإسرائيليين مؤمنين بهذا الوهم بينما هجره جمع آخر من الذين خدموا عسكريتهم في الأراضي

المحتلة وأدرج معهم نفسي قبل أكثر من عشرين عاماً. بيد أن الإنتفاضة أكدت أن لا (إحتلال تنويري) البتة. أما الآن فان الإنتفاضة قد أطلقت العنان لمشاعر عند اليهود حيال الفلسطينين شبيهة بمشاعر الإحباط والغضب التي نفست عنها الإنتفاضة ذاتها عند الفلسطينين. وهكذا تمضي قدماً عجلة العنف الحاقد بين الجانبين.

لقد منعت السلطات الإسرائيلية الصحافة العربية في الأراضي المحتلة أن تنشر المقالات التي تنشرها الصحف الإسرائيلية برغم أن كثيراً من العرب يجيدون قراءة اللغة العبرانية وبإمكانهم الحصول على الصحف اليهودية. ومنعت طبع وبيع الكتب في الأراضي المحتلة والتي سبق وان تم طبعها وبيعها في إسرائيل. كما اعتبرت أعمال (كارل ماركس) أعمالاً تخريبية، وهي لن تشعر بوخز ضمير اذا ما أغلقت صحيفة ما دون مبرر. لقد أخضعت هذه السلطات للرقابة العسكرية كل كلمة تصدرها الصحيفة حتى الكلمات المتقاطعة وحالة الأرصاد الجوية والأخبار الرياضية. وهذه ليست قضية حرية الكلام أو حق العامة بمعرفة عنصري الديموقراطية الرئيسين الذين سحقتهما قوات الإحتلال. أن ما نراه هنا هو الطريقة الأبوية التي تنتهجها إسرائيل في نظرتها أن السكان في الأراضي المحتلة ما زالوا قصراً غير قادرين على معرفة ما يجب قراءته أو عدم قراءته.

هذه الإزدواجية تنعكس أيضاً في اختيار إسرائيل للمفردة اللغوية، فهي ما برحت منذ عام ١٩٦٧ توظف نوعاً من (غسيل اللغة) الذي تستخدم فيه منطقاً صوتياً يضفي طابع الغموض والتفاهة على ما تم وصفه في سياق ما والذي تضاعف استخدامه بعد الإنتفاضة. فهي تستخدم لصالحها مثلاً تعبير (تطهير) مواقع العدو بدلاً من كلمة (مهاجمة). كما تشير تقارير الشرطة لحوادث المرور للضحية اليهودي باسمه بينما تشير إلى الضحية العربي باسم (عرب)، وتطلق على عمليات طرد الفلسطينيين من مقراتهم السكنية اسم (إخلاء). واذا ما أصيب فلسطينياً أو قتل أثناء

المظاهرات علق المتحدث العسكري الإسرائيلي أن الجنود الإسرائيليين (أطلقوا عيارات نارية في الهواء).

لقد تحول الجيش الإسرائيلي إلى قوة شرطة وجهز الشباب منهم بالهراوات والعقل الحديدية والخوذ، وأجبرتهم على مطاردة الأطفال الفلسطينيين الذين يناهزونهم عمراً أو أصغر منهم وخولتهم أحياناً أن يطلقوا النار عليهم. وهكذا راح ضحية ذلك قرابة ثمانمائة فلسطيني خلال السنوات الخمس الأولى من الإنتفاضة على يد قوات الأمن الإسرائيلية، واعتقلت دون محاكمة ما يربو على تسعة عشر ألف فلسطيني وهو رقم يعني أن واحداً من أصل خمس عشرة فلسينياً قد ذاق طعم السجن الإسرائيلي. ولجأت قوات الأمن إلى تهديم بيت الفلسطيني الذي يرتكب عملاً تسبب في جرح أو قتل يهودياً ودون محاكمته حتى لو كانت عائلة المذنب ما زالت تحت سقف الدار. وقد حدث أمر كهذا أيام الإنتفاضة حين لم تكتف قوات الأمن بقتل فلسطينياً يشتبه بارتكابه جريمة قتل بل أبادت معه عائلته. لقد أحالت قوات الإحتلال منذ عام ١٩٦٧ حوالي (٥٠٠) منزل إلى مجرد أنقاض وباعت قرابة (٣٠٠) منزل تاركة سكانها من الشيوخ والنساء والأطفال بلا مأوى لا لشيء سوى أن أحد أعضاء هذه العائلة أو تلك وقف بوجه هذا النظام الإسرائيلي المستبد.

أضافت الإنتفاضة بعداً جديداً إلى الصراع العربي- الإسرائيلي القديم بأن جعلت منه كفاحاً عاماً وطائفياً أكثر من أن يكون نضالاً سياسياً. لقد أزعج استخدام الفلسطينيين للحجارة والسكين الإسرائيلين كثيراً والذين تعودوا اللعب وفق أنظمة مختلفة فضلوا فيها مقاتلة الفلسطينيين بالأسلحة (النظيفة)، والأكثر أهمية من ذلك أن هذه الأسلحة قد أخافت الإسرائيليين كثيراً.

أحال الإحتلال وما رافقه من خوف المجتمع الإسرائيلي إلى مجتمع دفاعي غلبه مبدأ حفظ الذات. لقد نجحت إحدى الفلسطينيات في إرباك المجتمع الإسرائيلي

بأسره عندما زرعت قنبلة في سينما القدس. ثم ابتكرت قوات الأمن وسيلة بدت في وقتها ذكية وهي تعيين حرساً عند مدخل كل مسرح سينما لفحص الحقائب، واستمر هذا الحال حتى اليوم ليس عند مداخل مسارح السينما فحسب بل في كل البنايات العامة في إسرائيل مثل المدارس ورياض الأطفال.

هذا الخوف المتزايد من الفلسطينيين قد حرك مشاعر الكره والإنتقام لدى الإسرائيليين، وهو أمر قاد بحد ذاته إلى الإفصاح عن التعصبية والعنصرية. اذ اقترح بعض من سكان مستوطنة (أرئيل) وهي من أكبر المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وكان بضمنهم (رئيس بلدية المدينة) إجبار العمال الفلسطينيين على وضع بطاقة بلاستيكية لغرض السيطرة على دخولهم. لقد تناسى أصحاب المقترح وهم من أنصار الليكود المضامين المرعبة لهذا المقترح وأعادوا إلى الأذهان ما فعلته النازية الألمانية قبل ستين عاماً عندما أجبرت يهود أوروبا على وضع نجوم صفراء على ملابسهم. إن خيبة الظن والإحباط من عدم ايجاد حل سياسي معقول للنزاع العربي-الإسرائيلي قد جعلنا الإسرائيليين يتخبطون على غير هدى وباتوا عرضة لكثير من الحلول القمعية وأكثرها شيوعاً هو حل التطرفية السياسية.

من جانب آخر ما فتأ اليساريون والأحرار منذ سنوات عديدة خلت ينادون بعزل المجتمعين عن بعضها البعض بيد أن أصواتهم لم تلق يوماً أذناً صاغية برغم أن الأغلبية من الإسرائيليين عادوا مؤخراً إلى الخط الأخضر (وهنا أتكلم مجازاً) أو حدود إسرائيل القديمة لما قبل حرب الأيام الستة. ثم إن الإسرائيليين يتجنبون بدافع الخوف زيارة الأراضي المحتلة كما لا يرغبون رؤية الفلسطينيين في شوارعهم فترة أطول من هذه. انهم يقتربون اليوم بعد الآخر إلى نتيجة أن لا بديل لهذا الأمر غير ايجاد عزل سياسي بين الجانبين لعله يكون أقل الشرور أذىً.

الفصل الثاني عشر

نهاية الحلم

لم يعد شموئيل هارش يعيش في وهم آخر: لقد فشلت فكرة الكيبوتز (المزارع الجماعية اليهودية). هكذا يقول هادش وهو جالس على مجموعة من الصخور البركانية في مقبرة (كانتريت) ومزرعته الى يمينه. كانت أمواج بحيرة طبرية وأمامه قبور مؤسسي الكيبوتز. يقول هادش وقد أشار بيده الى الأسماء المحفورة على صخورهم: «لقد حاول هؤلاء ان يغيروا الطبيعة البشرية وان يخلقوا الانسان الجديد ولأسفي فان الكيبوتز لم تتوفق في هذه المهمة لأن طبيعة الانسان أقوى من صنائعه. إن شعب هذا الكيبوتز كحال باقي المجتمعات الانسانية يرغب أن يبذر أقل البذور ويجني أكثر الثمار».

واذا ما استمدنا التاريخ لهادش لرأيناه بملابسه الزرقاء وحذاءه ذو الرقبة الطويلة يجسد خلاصة سكان الكيبوتز الأوائل. لقد كان والده الذي دفن في مقبرة (كمالكت) بين مؤسسي أول مزرعة جماعية يهودية عام ١٩١١.

وصلت مجموعة من شباب هالوتزيم او رواد اوربا الشرقية مع وجبة المهاجرين المعروفة باسم الهجرة الثانية وشرعوا العمل في مزارع موحشة بأجر معين. وقرروا بعد أن أصابتهم خيبة الظن جسدياً وروحياً ان يقيموا لنفسهم تجمعاً جماعياً بادارة ذاتية. فتحركوا جنوب الطريق مسافة ميلين بموازاة شاطيء البحيرة وأقاموا (ديجانيا) التي هي أول مزرعة جماعية يهودية في فلسطين.

يعتبر الكيبوتز المساهمة الإسرائيلية الأكثر أصالة في التجربة الانسانية للقرن العشرين وكنت دوماً أعثر في رحلاتي حتى الى أبعد مناطق العالم على شخص ما قد عرف بعض الشيء عن الكيبوتز ولكنه لايعلم شيئاً عن إسرائيل أو الشرق الأوسط أو اليهود. ومابرح حتى اليوم الكثير من شباب العالم معجباً بفكرة الكيبوتز. ليس هؤلاء فقط بل حتى المثقفين وعلماء الاجتماع. فهي قد تأسست باعتبارها تجربة للتعايش الانساني المشترك وان نتائجها كانت تبغي الوصول الى تطور تقع أحداثه داخل الإنسان نفسه أي أنها أداة نحو تغيير الطبيعة البشرية.

طفق سكان الكيبوتز متأثرين بالكتابات الاشتراكية وبالكاتب الروسي الشهير (تولستوي) الى خلق مجتمع طوباوي. ان ما كان يجول في ذاكرتهم فكرة واحدة تشاطروا فيها مع الفلاسفة الشيوعيين الذين الهموهم بعض الشيء: (ساهم بقدر مادعتك اليه قدرتك وتلقى قدر حاجتك). لقد جاهدت الكيبوتز لتغير الصورة القديمة ليهوديي الأكواخ: أي من تاجر ومرابي الى مزارع ورائد يحرث الارض.

كان نظام الحركة الشبابية اليهودية الأداة المثلى التي جندها الكيبوتز وغدت وجهة أي عضو في منظمة شبابية ذات اتجاه عمالي هو الاستيطان في الكيبوتز. وهنا كان لابد للتركيبة النهائية ان تحدث ومتألف من المساهمة الفردية الوطنية للصهيونية ورواد إسرائيل مع متابعة الايديولوجية الاشتراكية لخلق مجتمع أكثر راحة وأوسع عدالة، وكان مفروضاً من الحركة الشبابية ان تكون الممر المؤدي الى حياة أفضل داخل الكيبوتز.

لقد كنت كأي طفل إسرائيلي عضواً في احدى هذه الحركات التي كانت تطلق على نفسها اسم هاشومير هاتزاير او (المراقبون الشباب) وهي منظمة الى يسار حزب العمال الإسرائيلي. لم يكن ليبدو لي آنذاك شيء أكثر إسرائيلية من منظمتي وكل ماكنت أبغيه أن أحاكي أصدقائي في لبسهم وطريقة حديثهم ولم ادع لنفسي فرصة نزهة تفوتها

فهدفي كان أن أثبت لهؤلاء انني لم أعد طفلاً يهودياً مشرداً (ديسبورا) او مهاجرا بولندياً بل إسرائيلي حتى العظم. وقد ذهبت يحدوني نفس السبب لـ (احقق صهيونيتي) داخل الكيبوتز. لقد مكثت فيها عاماً واحداً وصدت بعدها أدراجي الى الحياة المدنية وتلك كانت هزيمة. إن وخز الضمير لم يدعني أرقد سالماً: لقد فشلت أن (احقق ذاتي) في الطريقة التي لقنوني اياها واشترطوها علي. إن الوقت القصير نسبياً الذي امضيته في الكيبوتز هو الدلالة التي شخصت فرديتي وقيمي وفطرتي السياسية الأساسية.

وقد أمسى بناء المزارع الجماعية اليهودية كريبايا ريفية الوسيلة الرئيسية التي تقاسمتها كل مزارع الحركة العمالية في مسعاهم لنشر الصهيونية الاشتراكية الى جبهات عديدة. لقد عززت أمن المجتمع اليهودي في الأيام الأخيرة لما قبل تأسيس الدولة وأكثر منها بعد الاستقلال عام ١٩٤٨. وبات هذا التأثير القوي للكيبوتز على المجتمع الإسرائيلي أكثر ملموسية في مرحلتي الخمسينات والستينات. وبرغم ان اعضاء الحركة البالغة عددهم مائة الف عضو لم يشكلوا حينئذ الا ثلاثة بالمائة من مجموع السكان اليهود فان مساهمتهم الهامة والمتنوعة لدولة إسرائيل مازالت حتى اليوم يشار اليها بطيب خاطر. فقد شكل أعضاء الكيبوتز حوالي عشرين بالمائة من مجموع طياري القوة الجوية الإسرائيلية ومقاتلي الوحدات الخاصة التي هي أهم خطوط الدفاع الإسرائيلي. كما نبعت نسبة طيبة من قادة البلاد خلال الثلاثين سنة من الهيمنة العمالية من هذه الحركة. وهذه المزارع تنتج خمسة عشر بالمائة من مجموع صادرات البلاد الصناعية وتوفر لها خمسين بالمئة من حاجتها الزراعية.

أدرك هؤلاء المساهمين في والمتمسكين بمبادىء الثورة البلشفية أن جني المستقبل لايتم الا بالنضال، وشاطرهم هذا الاحساس أعضاء الكيبوتز وتطلعوا اليها كأنها المسعى النبيل الأول في التاريخ الانساني الهادف الى بلوغ مثاليات الشيوعية المتمثلة

بالعدالة الاجتماعية والرفاهية والاعتماد المتبادل .

واليوم قد تغير كثيراً هذا الحال وأضحت الكيبوتز على عتبة أزمة خطيرة فهي قد فقدت بعد مرحلة الستينات شعورها بالهدف بعد ان ملكت إسرائيل جيشاً قوياً قادراً على الدفاع عن شعب إسرائيل وعليه تلاشى الموقع الحيوي للكيبوتز كمدافع عن الجهات البعيدة . كما حذا شباب المدينة حذو شباب الكيبوتز في حماسهم للتطوع في الوحدات الممتازة الإسرائيلية . وبعد فقد بهتت أضواء دائرتها السياسية بعد ان خسر حزب العمال السلطة لمصالح الليكود وانخفض عدد أعضاءها في الكنيست من عشرين يوم كانت في عصرها الذهبي الى أربعة فقط .

وساء حال الكيبوتز في حقبة الثمانينات عندما غاصت في وحل كساد اقتصادي عميق بسبب الادارة السيئة وافتقارها للدافع المحرك وخسارتها للدعم الحكومي المالي لها . وقد أقدمت الكيبوتز في خطوة منها لإنقاذ التضخم المالي الكبير لليكود على المساهمة الاستثمارية القصيرة داخل سوق تبادل العملات وهو ما رفع مديونيتها في مطلع التسعينات الى عشرة مليارات دولار .

تمخض الانهيار الاقتصادي عن انحلال ايديولوجية الكيبوتز وباتت أكثر عرضة للاذى . فنكران الذات والمثالية اللتين كان مجتمع الكيبوتز يوماً ما فخوراً بهما قد تبخرتا سريعاً . فلم تعد رغبة التطوع في الوحدات الممتازة للجيش الإسرائيلي تمتلك شباب الكيبوتز وأخذ معظمهم يرفض العودة اليها اذا ما أنهى خدمته العسكرية البالغة ثلاثة سنوات متجهين صوب إغراءات المادية والحريات الفردية الكبيرة التي تقدمها لهم الحياة المدنية الإسرائيلية التي يبدو انها لم تشبع رغبات بعضهم فتركوا حتى حياة المدينة الإسرائيلية وحلقوا الى كشمير او الهند او بيرو وبعضهم كـ (الاخوة رابوبورت) طار الى لوس انجلوس .

يعيش غابرييل رابوبورت وعائلته في (بيت الفا) وهي مزرعة جماعية يهودية تأسست في العام ١٩٢٠، وهي واحدة من أقدم وأكثر المزارع اليهودية احتراماً في إسرائيل وأكثرها ازدهاراً. هاهنا يقدم غابرييل رابوبورت مثالاً آخر للجندي المزارع الرائد الذي جاهدت صهيونيته السائدة كثيراً حتى تخلقه هكذا. لقد جسد غابرييل بصفته عضواً في الكيبوتز وضابطاً عسكرياً كبيراً مثالية واسطورية الصباري. انه ابن الرواد الذين كانوا أول من استوطن بيت الفا، وقد حارب قبل الاستقلال مع حركة هاغاناه السرية وساعد أيضاً في حصار القدس عام ١٩٤٨. ثم ترقى الى رتبة عقيد في الجيش الاسرائيلي وبعد أن ترك الخدمة العسكرية عاد الى حقول بيت الفا حيث انشأ أطفاله على نفس مبادىء الصهيونية الاشتراكية التي ترعرع عليها. بيد أن النجاح لم يكتب لمهمته.

علم غابرييل صغاره الرماية وتعلموا منه مبكرين قيادة الجرارات الزراعية. بيد أن اياً منهم لم يستقر في الكيبوتز فاحدى بناته قد غدت يهودية مولودة من جديد وتزوجت من عضو يميني فاصل وبارز وذهب أولاده الثلاثة كما أراد لهم ذلك الى الوحدات المقاتلة الممتازة ولكنهم بعدئذ فشلوا في العودة الى الكيبوتز وهجروا البلاد الى لوس انجلوس وهناك مات أحد الاخوة الثلاثة بمرض أصابه وبقي الآخران في الولايات المتحدة حيث لحقت بهما أصغر بنات غابرييل.

هؤلاء الصغار شأنهم شأن الكثير من أترابهم قد خبروا الكيبوتز عائقاً في طريق فرديتهم وحريتهم وربما لعب اعتمادهم المالي عليها دوراً في هذا الأمر: لقد أراد هؤلاء الشباب ادخار مالاً كثيراً بين عشية وضحاها لظنهم ان المال سيأتي لهم بالسعادة التي يتمنون والتي لاتستطيع الكيبوتز منحهم إياها. وفي مطلع الثمانينات كان هناك قرابة ثلاثين شاباً يعيشون في أو قرب لوس انجلوس بعد أن كانوا يوماً ما أعضاء في الكيبوتز. لقد الحد هؤلاء وعملوا سوية وكأنهم نقلوا الحياة الجماعية من إسرائيل الى

كاليفورنيا. لقد هزت رياح التغيير أركان كل الكيبوتز الإسرائيلية مع اقتراب الاحتفال للذكرى الخامسة والثمانين على تأسيسها، وهي قد أجرت على نفسها بعض التغيير في محاولة منها لانقاذ نفسها من الإنحطاط الفكري والكساد الاقتصادي والإنحلال الاجتماعي والانخفاض الكبير في السكان فهي قد سمحت على سبيل المثال لاعضاءها الشباب بمواصلة دراستهم العليا في الجامعات والتمتع بإجازة لمدة سنة داخل المراكز المدنية الإسرائيلية او حتى في الخارج فقاعة الطعام التي كانت يوماً قلب الحياة الجماعية قد فقدت مركزيتها.

شملت هذه التغيرات أيضاً التعليم الجماعي برغم الغضب الذي استشاط به المؤمنون الحق بأيديولوجية التطهير. إذ تعود أطفال الكيبوتز التربية منذ ولادتهم في بيوت معزولة مع أقرانهم الاخرين حتى يبلغوا سن الثالثة عشرة حيث يلتحقوا بالخدمة العسكرية. وليس بمقدورهم رؤية عوائلهم الا لساعتين في اليوم أو في عطلة نهاية الأسبوع برغم أن عائلاتهم لا تبعد عنهم سوى أمتار قليلة. هذه الطريقة الخاصة كما وصفها عالم النفس الراحل (برونو بتلهم) كانت (المساهمة الأكثر وضوحاً وفردية قدمها الكيبوتز).

كان جزءاً من هذا النظام التعليمي أن يأخذ الإناث والذكور حماماً مشتركاً -اي الذكور مع الإناث والصغار مع الكبار، وهو ما أحدث ثورة فكرية في مطلع هذا القرن. لقد أيقن المؤسسون تماماً أن هذا الحمام سيخفف من التوتر الجنسي بين الرجل والمرأة وسيخلق جواً صحياً في العلاقات بين الجنسين. بيد أن التجربة فشلت وتوقفت في مطلع الخمسينات. ومع هذا استمر الشباب من الجنسين يتشاطرون غرف النوم. وكم كانت صدمتي حين وصلت الكيبوتز وأدركت أن علي أن انام في غرفة مع اثنين من البنات، وقد سلخت بعض الوقت حتى أتعود وجودهما الدائم معي وأعرف قواعد اللعبة. فإذا ما شاء أحدنا أن يغير ملابسه أدار الآخر وجهه الى

الحائط .

تعتبر الزراعة في الكيبوتز حتى اليوم قطاعاً مزدهراً ومتقدماً. فبعمليات غسيل تحولت التربة الغربية من البحر الميت من تربة مالحة الى أخرى خصبة. وبسبب الطقس الحار للبلاد استمرت زراعة بعض الفواكه والخضروات مثل الخيار والطماطة حتى في فصل الشتاء لتزويد أسواق اوروبا. أما الحالة السائدة في الكيبوتز اليوم فهي الإنتقال من الصناعة والزراعة الى الخدمات. فشرعت بتأجير البيوت الصغيرة وتقديم وجبات الإفطار وافتتحت مطاعم الوجبات السريعة وبعضها واقعة في وسط تل أبيب، وافتتحت صالونات تجميل ومؤسسات معمارية وقانونية ووكالات للدعاية، وراودت بعضها فكرة افتتاح النوادي وحانات بيع الخمر.

وفي محاولة منهم للبقاء افتتح الكيبوتز مدارس لأطفال من غير أعضائها وأقاموا لهم مقابراً. فقد اشترى أحد الصناعين الفرنسيين الأثرياء الذي عاش أخوه في أحد هذه المزارع الجماعية قطعة أرض من الأراضي المقدسة في مقبرة (كينريت) بأن تبرع بربع مليون دولار لصيانة الموقع. بيد أن المحاولة الأكبر لمغادرة الماضي قد جاءت بها (نيون موردخاي) التي تقع على بعد أربعين ميلاً شمال بحيرة طبرية حين قررت إدارتها العامة فصل النشاط الإقتصادي عن الحياة الإجتماعية والثقافية، فالكيبوتز تقدم لأفرادها الأعضاء الملابس والغذاء والبيت المؤثث بالإضافة الى حاجياتهم الثقافية والإجتماعية ومصروف جيب قليل. وآنذاك لم يكن اي إشراف على نوعية أو كمية العمل. واليوم أجبرت نيون موردخاي جميع أعضائها على العمل لفترة (٢٧٥) يوم في السنة، وأي تقصير في هذا الجانب سيتحمل صاحبه عقوبة مالية بخفض مخصصاته الفردية.

وبدأت موردخاي على غرار بيروسترويكا ميخائيل غورباتشوف بحمل مركزية نشاطاتها الإقتصادية، وأضحى لكل فرع سواء أكان زراعياً أم صناعياً أم خدمياً نظامه

المستقل، لا يرتبط مع أو يمول من الجماعة بل إن عليها أن تثبت قدرتها وكفاءتها الإقتصاديتين. وبعضها الآخر شرع بدفع أجوراً للأعضاء عن وقتهم الإضافي في العمل بعد أن رفض هؤلاء مسبقاً التطوع للعمل الإضافي مجاناً، وهو ما تسبب إفساد كثير من المحاصيل وهدر الأموال. وإذن فقد دعت الحاجة لتقديم حوافز لتتمكن الكيبوتز من تلبية الحاجة الموسمية من المحاصيل الزاعية. وتمثل الإتجاه الآخر بأن أقدمت الكيبوتز -لأجل النهوض باقتصادها- على بيع صناعتها أوالدخول في مغامرات صناعية مع مستثمرين آخرين. ولهذا الغرض جيء بمدراء وخبراء من خارج الكيبوتز مقابل رواتب ضخمة تدفع لهم.

اما الآن فقد تغيرت الأحوال وغدت الصناعة ضرورة لنفسها، فهي لم تعد وسيلة لتوفير العمل بل مشروع تجاري لا غير. وكنتيجة لهذا الأمر هبت على ساحة الكيبوتز الهادئة رياحاً رأسمالية عاتية جلبت معها شركات الأسهم المالية كل ما تنطوي عليه من مجلس إدارة ومدراء واجتماعات مجلس الإدارة وأرصدة ضخمة. هذه قد ساعدت في ولادة طبقة أخرى داخل الكيبوتز احتلت أعلى السلم الاجتماعي.

هذه التغيرات قد رفعت معها المبادىء الأساسية التي نشأت عليها الكيبوتز، ويقول أحد قوات الحرس الكبار: «لقد استحدثوا فكرة الأجور، ويزود المستخدمون المأجورون الصناعة بالرجال فما هو الإختلاف بيننا نحن أصحاب هذه التجربة الفريدة وأي طريقة أخرى للحياة الإسرائيلية».

ويخشى الكثيرون ان الكيبوتز ما لم تغير من اتجاهاتها هذه فإنها ستتحول من مجتمع مثالي ورائد الى آخر تجاري مادي مغامر، ومن المجتمع الريفي الى آخر معقد خاص في الصناعة والخدمات ومن طليعة الصهيونية الإشتراكية الى قاعدة رأسمالية واستهلاكية لا تقدم لأفرادها شيئاً عدى حياة الرفاهية التي تعيشها باقي المناطق الراقية في إسرائيل.

الفصل الثالث عشر

أعراض السوبارو

يتردد اسم (سوبارو) على مسامع أرجاء العالم بأنه إسم لسيارة يابانية لكنه يحمل في ثناياه داخل إسرائيل لقباً اقترن بسكان ضواحي.

اسرائيل المتوسطة الحال. فالسوبارو التي هي نتاج إحدى شركات صناعة السيارات اليابانية الرائدة كانت أول سيارة تدخل أسواق إسرائيل مطلع السبعينات من هذا القرن. لقد رفضت شركات صناعة السيارات اليابانية قبل عشرين عاماً التعامل مع إسرائيل خشية المقاطعة العربية لها بينها تجاهلت السوبارو هذا الضغط وتعاملت مع إسرائيل وأصبحت لهذا السبب أول شركة يابانية تدخل أرض الميعاد. أما اليوم فيختلف الحال وبات لإسرائيل متعاقدين مع جميع شركات صناعة السيارات اليابانية. غير ان الدعم الإسرائيلي لشركة سوبارو لاينطوي تحت إطار التعبير عن العرفان لها فحسب بل لأن دخول السوبارو لإسرائيل شكل الحد الفاصل للإنتقال التدريجي لمجتمع إسرائيل من صرامة منتج أولي الى مستهلك غربي.

كان المجتمع الإسرائيلي في مرحلة الستينات مجتمعا بسيطاً بسبب محدودية موارده ومصادره المالية ولم يتجاوز فيه الأثرياء في عددهم القلة القليلة والذين حدا بهم مزاج البلاد السائد الى اتخاذ موقف المعتذر دائما خجلاً من حالة الفيض التي يعيشونها. كانت معظم المنازل تفتقد الى البراد لحفظ الأطعمة وتلك مشكلة خطيرة بحد ذاتها بسبب جو البلاد شبه الإستوائي. وكان حلماً أن تفكر العائلة الإسرائيلية المتوسطة

الحال آنذاك باقتناء مكيف هواء أو غسالة ملابس اما عدد السيارات عام ١٩٦٦ فكان خمس سيارات لكل ألف مواطن بضمنها سيارات الحكومة وسيارات الشركات. وواسطة النقل الأساسية كانت الحافلات العمومية التي تقطع المسافة بين تل أبيب والقدس والبالغة أربعين ميلاً بحوالي ساعتين من الزمن.

ويبدو ان الحكومة قد راق لها واقع الحال هذا كثيراً فانعدام السيارات أجبر السكان على قضاء الليالي في ديارهم ليس هذا فحسب بل ان يأووا الى فراشهم مبكرين وينهضون الى اعمالهم مع بواكير الصباح الاولى لأن بيوتهم تخلوا من جهاز التلفاز. لقد أرادت الحكومة عملاً أكثر وانتاجاً أوفر فعكست بذلك روح الإشتراكية العمالية التي تخضع فيها رغبات الفرد الى حاجيات المجتمع وهكذا عد المجتمع الإسرائيلي عبارة (البضائع الاستهلاكية) مصطلحاً فاجراً في قاموس المفردة القومية واستبدلت مفهوم الاستهلاكية بالبديل الذي رأته الأمثل وهو الاعتدالية والصرامة. ولكي تضع الحكومة هذا المفهوم موضع التنفيذ فإنها حرمت الإسرائيلي من شراء المواد الاستهلاكية بأن فرضت ضرائب عليها بلغت (٣٠٠)٪ من قيمة الشراء لمواد مثل الثلاجات والغسالات والمكاوي وهنا توجب على العامل الإسرائيلي أن يعمل لثلاث سنوات حتى يتمكن من دفع قيمة جهاز تلفاز أو غسالة مثلاً. وما برح هذا الموقف قائماً من خلال الترجمة العبرانية لمثل هذه البضائع بمصطلح (المواد الفارهة).

ثم غيرت حرب الأيام الستة وماتلاها هذا المفهوم بعد أن زودت الأراضي المحتلة الإسرائيلي بفرص إقتصادية عززت مستوى معيشته وشهدت الصناعة الإنشائية ازدهاراً خاصاً فلكي ندافع وتبقى قبضتنا على الأراضي المحتلة وعلى الفلسطينيين فلابد اذن من بناء التجمعات العسكرية والطرق والمستوطنات. وكحال نظام الإستعمار على مر التاريخ شرع الإسرائيلي الغازي باستثمار الايدي العاملة الفلسطينية بثمن بخس وجلبت له ازدهاراً وعبدت الطريق امام ظهور الأثرياء الجدد

في البلاد فالمقاول الصغير الذي لم يكن قبل الحرب أقدر هو وعائلته على غير عيشة الكفاف أضحى بين عشية وضحاها ثرياً وذا سطوة بعد أن ضاق به الوقت لكثرة طلبات الحكومة لبناء الطرق والمواقع العسكرية . وتوزعت أمواله بين فروع الاقتصاد فهو إذا ما ابتاع شقة جديدة وكبيرة يكون قد وفر مالاً آخر الى مقاول آخر وبات قادراً أن يسد مبالغ الثلاجة والغسالة (المواد الفارهة) .

مهدت حالة التحسن المستمر هذه السبيل صوب حقيقة جديدة ، كانت إسرائيل مجتمعاً غير طبقي في اغلبه وفيه عملت كل من التجديدية النسبية والمذهبية الاشتراكية وايديولوجيتها في الإبقاء على حالة اللاطبقية في أقصاها . بيد أن السبب الرئيس يكمن في ان إسرائيل نفسها لم تكن قادرة على توليد هذا النوع من الفجوات الإقتصادية والاجتماعية المتوفرة في بلد آخر مثل الولايات المتحدة بين غنيها وفقيرها . هذه اللاقدرة ناجمة ليس عن كون إسرائيل بلداً صغيراً يعرف فيه أحدهم الآخر فحسب بل لأنها مجتمع نفير عام بحذافيره أي انه مجتمع يتطلب من جميع مواطنيه غنيهم وفقيرهم أن يخدم فترة طويلة في الجيش ينتقل فيها من مجند الى إحتياطي والتمايز الطبقي سيولد شرخاً لا يمكن اهماله لانه سيمنع الدولة من ان تحفظ لمواطنيها دوماً المعنوية العالية إذ كيف بمقدور الفقير أن يشعر بانه شريك مع الغني الذي يفوقه مالاً وموقعاً في البلاد التي يتقاسمانها .

لم تأل حكومات العمال وكذلك الليكود في فتراته الاولى جهداً لإبقاء المجتمع الإسرائيلي مجتمعاً تتساوى فيه الطبقات الإجتماعية لغرض إتاحة أوسع مجال للحركة الاجتماعية وخلق الشعور أن لكل فرد برغم صعوبة الظرف نفس الفرصة الكامنة في التقدم وهكذا ولد مجتمع ربما كان من اكثر مجتمعات الطبقة الوسطى في العالم .

إن إسرائيل الطبقة الوسطى اليوم والذي تحقق له حلم الطبقة الوسطى مازال يرى نفسه مجرداً من الكثير من الأشياء فإسرائيل لما تزل تنظر الى البراد والمجفف

والتلفاز الملون مجرد رموز أثاث أكثر من أن تكون وسائل راحة وحياة أفضل. وجليت الحضارة الإستهلاكية الجديدة لإسرائيلي الطبقة الوسطى الستارة الخلفية لهاجسه الأكبر وهو (سيارته). وهكذا تتجمع عشرات الآلاف من العوائل مساء كل جمعة لغسل وتلميع سياراتها ليس لانهم يدخرون مالاً بهذه العملية بل لأنهم يعبدون السيارة. وأن تقتني سيارة سوبارو يعني انك حققت الحلم النهائي والسوبارو هي الدلالة التي تربط صاحبها بمجتمع الطبقة الوسطى.

أصبح مالك السيارة اليابانية ونتيجة لاقترانها بالولايات المتحدة هو من تحقق له الحلم الإسرائيلي. فإسرائيلي الطبقة الوسطى ينظر الى صاحب السيارة السوبارو بـ (المستهلك الامريكي) برغم ان السوبارو من صنع ياباني وليس لها علاقة مع الولايات المتحدة بأي شكل من الاشكال. إن أمريكا للإسرائيلي ليست مجرد مفهوم جغرافي بل هي رمز لمستوى الحياة وفيها ينال المرء جميع أحلامه.

لقد حاول الهيبي الإسرائيلي ان يبقى دوما في تماس مع آخر تطورات العالم الاكبر. انهم يدخلون آخر صرعات السلوكية الراديكالية وكذلك الأزياء وفن الطبخ والثقافة. فاذا ما ارتدى سكان قرية (جرين وچ) رداءاً أسوداً إرتدى جميع رواد النوادي والكازينوهات نفس الرداء. انها طريقة للتظاهر انهم ليسوا سكان تل أبيب بل سكان نيويورك. لقد هاجر كثير من الإسرائيليين بل هربوا من إسرائيل بسبب هذا الشعور الذي كان ينخر فيهم وليجربوا حظهم في الولايات المتحدة. ولاتوجد إحصائية دقيقة عن عدد هؤلاء المهاجرين بيد أن الرقم يتراوح بين ربع مليون الى نصف مليون منذ عام ١٩٤٨. ان من هجر البلاد خلال الفترة الاولى هم أولئك الذين فشلوا أو شعروا انهم فشلوا أو ادعوا انهم شعروا انهم فشلوا في تحقيق حلم الإسرائيلي. وانحصر دافع الهجرة قبل عشرين سنة على الصعوبات المالية داخل إسرائيل ثم تولدت وعلى مدى السنين دوافع إسرائيلية للهجرة كان معظمها الخوف

من الحرب وتجنب اداء خدمة الاحتياط التي هي مرة كل سنة في أقل تقدير حتى بلوغ منتصف العمر .

إن ماكان نموذجياً لدى الإسرائيلي وعلى خلاف بقية المهاجرين هو شعورهم بالخجل من انهم هاجروا مواطنهم التي ولدوا فيها وهم الآن يتحينون الفرصة للاعتذار لها وبانتا عائدون (قريباً) (حتى وان امتدت فترة (قريباً) حتى يوم الدينونة) . إن المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع المغتربين الوحيد داخل الولايات المتحدة الذي يجادل بان أمريكا ليست بمكانه الدائمي . ثم ظهرت في السنوات الاخيرة موجة من الإسرائيليين الذين لم يتنابهم الخجل لما فعلوا وهجروا إسرائيل ليس لأن الضجر قد سكنهم بل لانهم أدركوا في إسرائيل ليست بالمكان المناسب . وهو يسعى لأن يتذوق الجوهرالحقيقي للحياة الأمريكية بعد أن عاش وجودها الزائف في إسرائيل . هذه المجموعة الجديدة من المهاجرين ضمت صفوة المجتمع الإسرائيلي من الأساتذة ورجال الأعمال .

إن إسرائيل بلد التطرفية وفيه تتأرجح طبائع الناس على نحو كبير وعنيف بين الاحساس بالاخفاق التام وبين النشوة الغامرة بالابتهاج واقامة القداس . هذه التأرجحية ليست بعيدة عن الدين اليهودي نفسه فهو يرى الوجود اليهودي حركة تقبع بين الدمار والإصلاح وربما كان سببها غياب قيم المساواة القديمة والعدالة الاجتماعية . لقد توجب على إسرائيل اليوم ان تواجه بالاضافة الى مرح ورفاهية الحياة الأمريكية مشاكل أمريكا . ان إسرائيل الأمس بالكاد كانت تحمل ان تتصور ان أبناءها قد بلغهم الفقر المدقع وان احدهم قد طوى على الغنى . إنني مازلت أتذكر عام ١٩٦٥ عندما أعلنت فتاة كانت تبلغ من العمر الثانية عشرة في برنامج إذاعي انها تتضور جوعاً حينها اهتزت أركان وجدان الأمة بأكملها وكان مخاضها ان ارتفعت حمى اجتماعات الكنيست وزادت الصحافة من ضغطها على حكومة العمال للتحقيق في

القضية. أما اليوم فيا أكثر حالات المجاعة الحقيقية.

لقد ارتفع مؤخراً عدد الفقراء في إسرائيل وبلغ نهاية عام ١٩٩١ حوالي النصف مليون فقير ويبلغ المرء خط الفقر في إسرائيل اذا وصل دخله الشهري الى (٢٢٠) دولار أو إذا بلغ معدل دخل العائلة باكملها (٤٠٠) دولار. فإيجار الشقة الصغيرة الشهري لايقل عن (٣٠٠) دولار وهذا يعني ان المبلغ المتبقي لايكفي لسد حاجات المرء الأساسية بل لاعجب ان الكثير منهم قد انحدر تحت خط الفقر حتى بلغت نسبتهم واحد الى كل سبعة إسرائيليين ومعظمهم من الأطفال. كما تشير تقديرات رسمية أخرى ان أطفال ثمانية عشر ألف عائلة يعانون اليوم من سوء التغذية. ويقول موظفون في مراكز الرعاية الإجتماعية الإسرائيلية انهم قد اصطدموا بحالات مرعبة وفيها (في سيناريو دويكنزي) يتسول الصغار بين كسارات الطعام داخل النفايات أو ان يفعلوا أعمالاً شاذة بحثاً عن شفقة الآخرين.

وضعت هذه الظروف المروعة إسرائيل في عداد الدول التي داومت على تقييم حالة فقرها بانتظام. لقد تجاوزت نسبة الفقر في إسرائيل نسبتها في كندا والمانيا وهي أقل فقط من الولايات المتحدة التي تجاوزت فيها نسبة مادون خط الفقر ٢٠٪ من السكان وعليه فان شبح الفقر لم يعد يخيم على أحلام الفرد في منامه بل انك لتراه في تل أبيب والقدس حيث يمضي ذلك الفقير البائس ليلته برفقة البرد القارس لاتغطي جسده سوى خرقة بالية ومتقوقعاً في صناديق كرتونية.

كانت إسرائيل الماضي نموذجاً لدولة الرفاهية الحديثة وفيها تولت الدولة شؤون الرعاية حتى لاتجد ضالاً بلا مأوى أو عليلاً بلا دواء أو محتاجاً لمال يسد فيه رمق الحياة. غير أن خيوط هذا النسيج الاجتماعي قد انسلت مع انتقال الدولة من الاشتراكية ونظام الرعاية الاجتماعية الى السوق الحرة والفاقة. أما الحصيلة الثانية فكانت نفسها التي عبرتها باقي أقطار اوربا الغربية التي سلكت نفس الطريق ألا وهي

البطالـة والفاقة والتشتت الإجتماعي . لقـد قذفوا برضيع العدالة الإجتماعيـة في مياه استحمام الكفاية الاقتصادية .

يخضع جميع الإسرائيليين لنظـام الضمان الصحي ولهم الحق متسـاوين في العـلاج داخل المستشفيـات تلك هي النظريـة والتطبيق منذ عهـد الاستقلال غير ان شروخـاً كثيرة قـد نخرت اليـوم هـذا البنيان حتى لينتهي فيـه حـال من لا يسعفـه جيبه ليـدفع الضمان الصحي أن يبقى بلا علاج أو يدفعوا به الى الرعـاية الطبية من الدرجة الثانية . وإني أتذكر والـدي عام ١٩٨٨ حين توجبت حالته ان يجري عمليـة جراحية للقلب . فهـو قـد واضب على دفع الضمان الصحي طـوال ثـلاث عقـود من الـزمن أي منـذ وصولنـا إسرائيل وعندمـا حانت ساعـة الصفر واحتـاج للضمان الصحي تذوق طعم الحقيقـة المر . إذ تحتم عليه ان ينتظـر مـوعداً بعـد سنة لاجـراء العمليـة بسبب قائمـة المنتظـرين الطويلـة . ولان حالتـه لاتحتمل التأخير واستنـاداً الى نصيحة طبيبـه ذهبت لاجراء العمليـة في مستشفى خاص كلفت حـوالي (٢٠) الف دولار امريكي . وبعد مـرور سنتين تحتم على والـدي أن تجري ذات العمليـة الا انها كانت أوفـر حظـاً فقـد اكتفت بـدفع ثـلاثـة آلاف دولار أمـريكي (تحت العباءة) للجراح . ونسمي هـذه المدفـوعـات غير الشرعية بمسميـات كثيرة منهـا مسـاهمة وقـاية أو أجـور استشـارة والحقيقة هـي انك بفضـلها ستقفـز فوق قـائمة الانتظـار وتختار جراحـك الذي تـريد وتتحصن ببعض الإمتيـازات الطبيـة داخل المستشفى . وانك لتجد مثـل هذا الفسـاد الاداري في جميع ضروب الحياة الإسرائيليـة . فقد نشرت تقاريراً نهايـة الثمانينات تفيد بـان بعض القضاة قـد استلمـوا رواتب مـوظفين بالإبتـزاز ، وتفشت فضـائح داخل القوات المسلحة عن عمليات الابتزاز المالي والتزوير واختلاس كبار الضباط لعشرات الملايين من الدولارات الامريكية .

هـذه دلائل ان مثاليـة الماضي قـد عبـدت الطريق للمادية بمثل هـذه النسب التي

اقتربت الى الجشع البشع ومذهب المتعة المتطرف فالإسرائيلي يرغب دوماً ان يجني مالاً وفيراً وبسرعة . لقد قدمت واشنطن لإسرائيل منذ عام ١٩٦٧ حوالي سبع وسبعين مليار دولار امريكي على شكل قروض أو مساعدات عسكرية وهو رقم يعني ان كل رجل وامرأة وطفل إسرائيلي قد تلقى ماينـاهز سبعة عشر الف دولار امريكي من دافعي الضرائب الأمريكان . ورأت الولايات المتحدة في إسرائيل حليفاً يعتمد عليه وشريكاً ستراتيجيا في النضال ضد الإتحاد السوفيتي . وقد تقوى هذا التحالف بفضل الدستور الديمقراطي الإسرائيلي واللوبي الصهيوني في إسرائيل وكذلك بتأثير المجتمع اليهودي . وقد ساعدت هذه العلاقه الخاصه بين اسرائيل والولايات المتحده البلاد في ان تخلق ظرفاً فريداً يعيش فيه الشعب بتخمة ورفاهية فوق حدود القدرة المالية . ولولا هذا الدعم الأمريكي لغدت إسرائيل كباقي بلدان العالم الثالث . وهنا نعرب عن عرفاننا لأمريكا التي جعلت إسرائيل تستهلك أكثر مما تنتج .

لقد أفسد هذا الكرم الأمريكي حكومات العمال والليكود المتعاقبة منذ فترة ما بعد احتلال الأراضي في حزيران عام ١٩٦٧ فهي لم تطلب منهم شيئاً مقابل هذا الكرم . فالإدارات الأمريكيه المتتاليه منذ عهد الرئيس ليندون جونسون الى الرئيس رونالد ريغان لم تتخذ إجراءً دبلوماسياً ضد إسرائيل برغم انها عارضت بناء مستوطنات إسرائيليه في الضفه الغربيه وقطاع غزه . وذهب الرئيس ريغان كثيراً في سخائه على إسرائيل ليجعلها تشعر بالامان وصب على الاقتصاد الإسرائيلي المال بعد المال على شكل مساعدات عسكريه فكان نوعاً من الكرم فهمه الإسرائيليون انهم لما يفعلوا بعد خطأ في عيون الأمريكان .

إلا ان قادة إسرائيل أدركوا لما وطئت قدمي الرئيس جورج بوش عتبة البيت الابيض في كانون ثاني عام ١٩٨٩ ان الحزب قد ينتهي . فالرئيس بوش ووزير خارجيته قد افتقرا الى العاطفه والالتزام الايديولوجي اللذين تحلا بهما سابقيهما حيال

إسرائيل فلم تعد إسرائيل بنفس تلك الأهمية والحصن الحصين الذي سيقف حائلاً دون عبور الشيوعيه الى المنطقه بعد أن إنهار الاتحاد السوفيتي . لقد حاول فريق بوش - بيكر إسترضاء العرب على حساب إسرائيل في مسعاه إسناد الموقف الامريكي الجديد في المنطقة واحتواء انتشار القومية العربية والتطرفية الإسلامية التي تهدد إمداد الغرب بالنفط .

وعليه قررت ادارة الرئيس بوش تجميد بناء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وتلك أصبحت بمدئذ القضية الأكثر ثقلاً عاطفياً وسياسياً للإسرائيليين والفلسطينيين على حد سواء . كان يعيش ما يقارب (١٢٠) الف يهودي في هذه المستوطنات وطلبت الحكومة الأمريكية إيقاف بناء مستوطنات جديده وتحديد البناء في المستوطنات القائمة حالياً ثم طلبت إسرائيل (لأنها قد تحلت بسياسة ضبط النفس في حرب الخليج) قرضاً مالياً من الولايات المتحده بقيمة عشرة مليارات دولار للمساعدة في استيعاب حوالي مليون يهودي قادمين من الإتحاد السوفيتي السابق وهذه كما تراها الحكومة الإسرائيلية قضية إنسانية لا تمت للسياسة بأية صلة . بيد أن بوش وبيكر رفضا الأمر وأخبرا الإسرائيليين «إذا أردتم المال توقفوا عن بناء المستوطنات التي تقف حجر عثرة أمام السلام» وتلك هي المرة الاولى في تاريخ العلاقات الأمريكية الإسرائيلية التي تتخذ فيها الولايات المتحده العقوبات المالية كقوة سياسية . وبعد أن تغيرت حكومة إسرائيل ولان إنتخابات الرئاسة الأمريكية قد اقتربت عدل الرئيس جورج بوش قراره السابق وأخبر رئيس وزراء إسرائيل اسحق رابين في ايار عام ١٩٩٢ ان الولايات المتحدة ستمنح إسرائيل هذا القرض .

بيد ان الإسرائيليون الذين أذهلتهم صدمة القرار الأمريكي السابق قد أدركوا ان لأموال البلاد يجب ان يضعوا بضع أولويات . فقد حاول قادة إسرائيل وعلى مدى سنوات طوال التلويح بعدة شعارات في آن واحد وفيه وعد أحد هذه الشعارات بخلق

الأمان في أقصى درجاته ووعد شعار آخر بمستوى معيشة عال ووقف الآخر بجانب الإحتلال وعلى قمع الفلسطينيين والآخر بميلاد مجتمع الديموقراطية والعلم، وفي بناء المستوطنات وتظاهر آخر بأن إسرائيل تريد السلام.

لقد تجلى للإسرائيلي الجديد ان صلته بسيارة السوبارو قد استحالت عليه سيفاً ذا حدين فهي إذ ساعدته في ترجمته المحلية للحياة الأمريكية فانها قد أجبرته أن يعلن عن أولويات حياته. وهنا ثقبت مرحلة التسمينات منطاد حلم السوبارو الإسرائيلية، فإسرائيل لا تتوقع ان بمقدورها ان تدبر شؤون حياتها كما كانت تفعل في الماضي فهي بلد فقير وصغير وإذا ما استمرت هجرة المزيد من اليهود الى إسرائيل مستقبلاً كجزء من خط حلم الصهيونية فان إسرائيل ستكون بحاجة للمعونة الخارجية سيما من الولايات المتحدة وهي لتحقق هذا المسعى عليها ان تتوقف عن احتلال واستعمار الأراضي.

إن المعضلة الإسرائيلية بسيطة بيد أنها غاية القسوة ان تمضي قدماً مع الصهيونية كما كان شأنها في الوجود دوماً. أو أن تتهيأ لتضحي بالروح الصهيونية التقليدية في الهجرة على مذبحة الأرض وأن تنسى السلام.

الخاتمة

ستجد إسرائيل نفسها في هذا العقد الأخير من الألف الثاني للميلاد أمام مفترق طرق حاسم من تاريخ وجودها القصير، فهي عليها أن تحث الخطى صوب عتبة القرن الواحد والعشرين كما فعل هذا بقية العالم الذي شمر عن ساعديه ليستقبل المتغيرات الجديدة ويتكيف معها. لقد فقدت أغلب الهويات السياسية والاجتماعية القديمة داخل اسرائيل أنسابها. فنحن ننظر الى أكبر حزبي إسرائيل السياسيين في إطار (اليمين) و (اليسار) أو المحافظ والاشتراكي. بيد أن الواقع يقول انهما استحالا الى سوقين كبيرين للايديولوجية فكليهما لديه بعض مما لدى الآخر وبات بمقدورنا الآن أن نرى بين صفوف الليكود بعضاً من الاشتراكية العتيقة الطراز والاستعداد للاتفاق مع الفلسطينيين. بينما تتطلع الى العمال فنـراه أصبح مـوطنـاً للـرأسمالية القـديمة والتطرفية حيال الفلسطينيين والقومية الراديكالية. كما بهت ضياء الانقسامية بين السفارديم والأشكيناز. أما الطبقة الاجتماعية الاسرائيلية الجديدة فتقوم على الدخل الشهري ومستوى المعيشة أكثر من قيامها على العرقية.

إن المشكلة الأكثر تردداً في مواجهتها لإسرائيل اليوم وغداً هي كيفية رأب الصدع أو تخفيف حدة التوتر بين إسرائيل والفلسطينيين والأقطار العربية. لقد شاركت إسرائيل في مؤتمر مدريد للسلام الذي عقد في تشرين الثاني عام ١٩٩١. بيد أن سخرية الحضور الإسرائيلي في مؤتمر مدريد هو مشاركة رئيس وزرائها الأكثر يمينية الا وهو اسحق شامير فهو لم يكن راغباً برغم ظهوره على الشاشة في تغيير سياسته

الاستيطانية في الأراضي المحتلة او تعزيز عملية السلام. بيد أن خطوات جريئة قد تم تخطيها بعد انتخاب الحكومة الجديدة برئاسة رابين واستعداده لتقديم تنازلات الى الفلسطينيين والسوريين، فلم يعد هناك تردد من اتخاذ قرار شجاع وجوهري والا وجدت إسرائيل نفسها بين أنقاض تغيرات وتطورات السياسة الجديدة وهي ستجد نفسها بدلاً من أن تواكب مسيرة التاريخ قابعة خلف ستاراته او أسوأ من هذا ان اضلت وجهتها السياسية وغاصت حتى الركب.

لقد أوضحت تجارب الماضي أن قادة اسرائيل والصهيونية كانوا دوماً واقعيين وانهم تفاعلوا مع الحياة وفق هذه الواقعية وبأن إسرائيل كانت دوماً متصاونة وتجد القوة حتى في أعتى لحظاتها لتنهض من جديد، وربما كان فوز العمال في الانتخابات الأخيرة تفاعلاً مع هذا الاتجاه. وكان قادة إسرائيل في أحايين معينة متعنتين صلبين في مسعاهم للإبقاء على موقع يتعذر احتلاله كحال شامير ومائير بيد أن بعضهم كحال بن غوريون وبيغن وحيثما تطلب الموقف ذلك أظهروا بعضاً من المرونة والاعتدال. إن حيزاً للتفاؤل مابرح قائماً.

الفهرس

الإسرائيليون الجدد

مشهد تفصيلي لمجتمع متغير!

يقول الكاتب ان العدو العربي هو العدو الأول لاسرائيل برغم ان العربي لم يكن أذىً لليهودي ما لم يسابقه اليهودي الى الأذى ولم يفعل به ما فعلته النازية باليهود. ان عداءنا لليهود انها قد اغتصبت أرضنا وشردت شعبنا وهدمت المنازل وقتلت الأطفال وقبل هذا التاريخ لم يكن لنا مع اليهود شيئاً فكانوا يعيشون سالمين في بلداننا العربية اليمن او العراق او المغرب على سبيل المثال لا الحصر فايهما عدو الآخر.

حاول المؤلف في كتابه هذا ان يخلق لليهودي واسرائيل تاريخاً إلا انه فشل وتخبط على غير هدى حينا ناقض نفسه بالذي قدمه اليهود للحضارة ، أهم الجنود أم المزارعون؟ فترك الماضي القديم ولجأ في خطوة واحدة طولها ألف ميل ليصل الى حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧ اللتين أراد بهما ان يجد اسرائيل المعجزة وان يحط من شأن العرب كثيراً متجاهلاً أو متناسياً حقائق التاريخ ، بل انه أنكر حتى فضل الانجليز عليهم في حرب ١٩٤٨.

وبعد فاني سأترك للقارىء الكريم الحكم على ما ورد فيها من صحة أو خطأ من المعلومات برغم أني ادرك ان بعضها كان مقصوداً منه الإساءة للعرب والإسلام منها على سبيل المثال لا الحصر ان المؤلف ذكر ان اليهود قد تعلموا عبادة القبور من الإسلام وهذا طعن مقصود الإساءة للإسلام فنحن لدينا زيارة القبور وليس عبادتها . وفي ذلك قول الرسول الكريم محمد ﷺ «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» .

الأهلية
للنشر والتوزيع